

المختار من التراث العربي

٢٥

من كتاب

خلاصة الأثر

في أعيان القرون الحادي عشر

لمحمد الأمين بن فضل المقدسي

ت ١١١١هـ = ١٦٩٩م

السفر الأول

من أعيان السياسة والإدارة
أختارت النصوص وقدمت لها وعلقت عليها

الدكتورة ليلى الصباغ

الاسراف الفني : زهير الحمو

المقدمة العامة

لقد وسم كثير من الباحثين في الأدب والتاريخ ،
حضارة « المجتمع العربي » ، خلال العصر العثماني ،
الذي امتد أربعة قرون (٩٢٢ - ١٣٣٥ هـ / ١٥١٦ -
١٩١٦ م) ، بسمات الانحطاط ، والتدهور ،
والانحدار ، مندفعين وراء الفكرة الشائعة ، بأن الحضارة
العربية الاسلامية ، التي تأصلت جذورها ، وأينع ثمرها ،
خلال العصر العباسي ، وفي كل بقعة من بقاع الوطن
العربي ، والعالم الاسلامي ، الممتد آنذاك بين الهند والصين
شرقاً ، والأندلس غرباً ، قد أصابها ذلك الحكم الأعجمي ،
الغريب ، بالوهن والذبول . بل يشد بعضهم الزمن تراجعاً ،
فيمد مرحلة الانحطاط هذه إلى فترة أبعد في القدم ،
حتى تغطي حقبة طغيان العناصر الأعجمية على الحكم

العربي كلها ، وبصفة خاصة ، التركية منها ، التي سادت من منتصف القرن الخامس للهجرة ، وحتى منتصف القرن الرابع عشر (٤٤٧ - ١٣٣٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٩١٦ م) . وبذلك ربطوا بين تدهور الأحوال السياسية للخلافة العربية العباسية ، وانحطاط الحالة الحضارية في انحاء البلاد العربية والاسلامية .

وهكذا تولد في الأذهان ، بل وثبت فيها ، أن الحضارة العربية الاسلامية قد انقطع معينها ، أو جفت عروقها ، منذ أن خرج مقود السياسة في العالم الاسلامي ، والوطن العربي من يد العرب . وقد يكون في بعض تلك التعميمات ، والأحكام ، بعض صحة ، وقد لا يكون ، إلا أن مايجب أن يكون ، هو قيام المؤرخين ، والمفكرين العرب المعاصرين ، يبحث هذا الأمر ، بحثاً أكثر جدية ، وأصالة ، وموضوعية ، وأشد عمقاً ، واستقصاءً ، ولا سيما في ضوء مايعثر عليه كل يوم من « التراث العربي » المدوّن ، والمحسوس ، الذي واكب تلك المراحل المتهمة من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية .

إن الدراسات الأولية التي لامست مؤخراً ، بعض

الفرات الموسومة بالتدهور ، والافلاس ، من الحضارة العربية الاسلامية ، وبصفة خاصة « المرحلة السلجوقية » ، و « عصر المماليك » ، أظهرت أن « الحضارة العربية الاسلامية » في المشرق لم تشلّ ولم تحبّ جذوتها ، بل ظلت فاعلة ، ومتقدة العطاء ، مع اغتنائها بلوينات جديدة . واستطاعت هذه الحضارة المكيّة ، أن تطبع الدول غير العربية ، التي قامت على أرضها ، بطابعها العربي ، وأن تحوّلها إلى دول حضارية ، تهتم بالعلم ونشره ، والفن وازدهاره ، بعد أن كانت شعوب تلك الدول بدوية المجتمع ، جلفة الطباع ، هزيلة الحضارة ، ولا ديدان لها سوى الحرب والطعان. بل واستطاعت في تلك الحقبة ، أن تمنح أوروبا ، التي غزت الأرض العربية ، دفقة الحياة الحضارية. إن « الحضارة العربية » لم تمت بدخول الأتراك السلاجقة وحكمهم للعالم الاسلامي المشرقي ، ولا بهجوم الصليبيين وتوضعهم في أجزاء من الأرض العربية ، ولا بحملات المغول الكاسحة ، وتخريبها لعاصمة الخلافة العربية في بغداد ، ولكثير من مظاهر الحضارة ، ولا بحكم المماليك في مصر والشام ، بل إن حركيتها كانت أقوى

من جميع تلك النوائب التي لحقت بها ؛ فعادت الحياة تملأ حنايا العالم الإسلامي ، والوطن العربي من جديد ، برفد وتغذية من معينها الثرّ الذي لا ينضب . كما أن هذه الحضارة لم تتقهقر بتفجر الحضارة الأوربية في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، إذ إن ذلك التفجر اليناع ذاته ، وفي جذوره الأولى ، كان من عطائها . بل ظل الأوروبيون ، يرون فيها ، عبرسيّاحهم ، وجالياتهم ، وحتى منتصف القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد ، نبعاً يرشفون منه ، ويأخذون مايرونه مساعداً على تكامل حضارتهم .

لقد بقيت « الحضارة العربية الاسلامية » إذاً ، على الرغم من جميع الكوارث السياسية التي حلت بقومها العرب ، حيّة ، وفعالة . وقد تكون انكمشت على ذاتها ، ودارت في فلك نفسها ، فلم تدخل بحوار مباشر وسريع مع الحضارة الأوربية الجديدة ، لعوامل عديدة — قد لا تكون هذه المقدمة الموجزة مجال مناقشتها — ، ومن ثمّ ، بدا لأبنائها ، بعد احتكاكهم المباشر بالحضارة الأوربية المتألقة ، ومنجزاتها ، في القرنين التاسع عشر والعشرين ، أنها

قد فقدت جميع قوى الحياة والاحياء ، فلوى بعضهم وجوههم عن سبر أغوارها ، والوصول إلى أصولها ؛ ولا سيما أنهم كانوا يعيشون تلهلاً سياسياً ، هاضراً للذات ومقلقاً . وكان موقفهم هذا مشابهاً لموقف أبناء أوربا في مطلع عصورها الحديثة ، عندما نظروا إلى حضارتهم في العصور الوسطى ، نظرة ازدراء وإهمال ، لأنهم رأوا فيها آنذاك ، وهم المتفتحون للحياة الربيعية الجديدة ، مرحلة شتاء وظلام . إلا أنهم عندما تماسكوا حضارياً ، عادوا إليها ، ليروا فيها بدء حوارهم الحضاري مع الحضارات الأخرى التي سبقتهم ، ومنها « الحضارة العربية الإسلامية » ذاتها ، وليشهدوا من خلالها ميلاد مدنيّتهم المعاصرة ، فقوموها تقويماً جديداً ، ومغايراً لتقويمهم السابق .

لقد آن الأوان لإعادة تقويم « الحضارة العربية » ، في الفترات التي وصفت بالانحطاط ، والتدهور . فعلى المؤرخ العربي المعاصر ، أن يدخل ميدان الدراسة العلمية العميقة ، وهو خالي الدهن تماماً من أية أفكار مسبقة ، وأن ينكبّ بشهية وإقبال ، على « تراث » تلك الحقبة ، وأن يمعن فيه درساً ، وتنقيباً ، وتدقيقاً ، وتجريحاً ،

وتعديلاً ، وبموضوعية بحتة . ولعلّه سيرى بأن « الحضارة العربية » ، على الرغم من بعض ذبول حلّها بين حين وحين ، وهنا أو هناك ، تبقى أشبه بتلك المياه المختزنة في باطن الأرض ، التي تغيب فترة تطول ، أو تقصر ، ثم تندفع فوّارة ، ساخنة ، ومعطاء . وأن هذه الحضارة ، التي رفع عُمُدَها العرب ، ومزجوا في بنائها فكرهم العربي الاسلامي ، الحي والمبدع ، بأفكار الحضارات السابقة ومعطياتها ، وتفاعلوها اثناء تشييدها ، انسانياً ، مع جميع الشعوب التي انضوت تحت أجنحة حكمهم ، كانت أقوى بقاءً ، وأكثر ديمومة ، من وجودهم السياسي الموحد ، وزعامتهم السياسية للعالم الاسلامي . وهذه الحضارة ، إذا ماوعوها عقلياً ، وعلمياً ، ستساعدهم بقوى أصولها الحصبة ، وجذورها الانسانية العميقة ، على استعادة وجودهم السياسي العربي ، الموحد والقوي .

وإذا ما سلطت أنوار البحث على « المرحلة العثمانية » من تاريخ « الحضارة العربية » فقد يتبدى أن الأتراك العثمانيين ، بكل ما يوصفون به من أصالة بدوية ، وحب للحرب والغزو ، قد هذبته الحضارة العربية الاسلامية ، وتبنوها ، وأخذوا دعائمها التشريعية ، وكثيراً من نظمها ،

واغترفوا من جميع علومها ، ولاسيما الدينية ، وشجعوا على تدريسها وتدارسها ، والتأليف في بابها . وبنوا المدارس لطلابها ، وتعلمد قضاتهم وعلمائهم ، ووعاظهم ، وأئمة مساجدهم ، بل وسلاطينهم ، وعديد من رجال الحكم ، على تراثها . ورسخت اللغة العربية عند بعضهم حتى تفوق فيها ، وألف بها نثراً وشعراً ، فأغنى التراث العربي . ومن أبرز الأسماء المعروفة في هذه الحلبة ، « طاشكبري زادة » (١) ، و « حاجي خليفة » (٢) ، و « منجم باشي » (٣).

(١) أحمد بن مصطفى بن خليل (٩٠١ - ٩٦٨ هـ / ١٤٩٥ - ١٥٦١ م) . ولد في بروصه ، ودرس العربية والأدب والفقه . ودرس الحديث وعلوم اللغة العربية ، وولي القضاء في استامبول . له مجموعة من المؤلفات العربية أهمها « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » و « مفتاح السعادة » .

(٢) « مصطفى بن عهده » (١٠١٧ - ١٠٦٧ هـ / ١٦٠٩ - ١٦٥٧ م) ويلقب « بكاتب جلبي » . وقد عمل في الجيش ، وعين في منصب « الخليفة » أي المساعد الثاني في ديوان المحاسبة ، فلقب بحاجي خليفة . أهم مؤلفاته بالعربية « كشف الفنون عن أسامي الكتب والفنون » .

(٣) أحمد بن عيسى بن لطف الله (المتوفى سنة ١١١٣ هـ / ١٧٠٢ م) . ولد في سالونيك ، وتعلم فيها . ودرس الفلك وروابطه بالتنجيم على عادة ذلك العصر . وصل إلى منصب كبير منجمي البلاط السلطاني في عهد السلطان « محمد الرابع » ، ومن هنا أتى لقبه . من كتبه العربية « صحائف الأخبار » .

ومن يقرأ كتب تراجم المؤرخين العرب في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين ، قد يعثر على كثير منهم .

وبالمقابل فإن الأتراك العثمانيين ، لما سادوا البلاد العربية سياسياً ، تركوا لها خلال القرون الأولى من حكمهم لها ، تقاليداً العلمية السابقة ، ومدارسها ، وحلقات مساجدها ، بل زادوا في بعضها ، وفي أوقافها ، واحترموا علماءها من السنة مهما كان مذهبهم . علماً أن مذهب الدولة الرسمي هو المذهب الحنفي ، وقبلوا تحركهم وسيطاً بينهم وبين الرعية . إن هذا الواقع ، لا يغطي بالطبع ، سوء إدارة عديد من ولايتهم ، وفساد انكشاريتهم ، وجورهم في معاملة سكان البلاد ، والقسوة عليهم بالضرائب ، فالتناقض بين المنشحيين قائم وبيّن .

وإذا ما طالع القارئ العربي ، باهتمام ، وتمعن ، وتمحيص ، كتب « التراجم العربية » في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين بصفة خاصة ، قد يخرج وهو مؤمن ، إذا ما أسقط منها تراجم بعض « المجاذيب » ،

من المتصوفة « العوام » ، بأن المجتمع العربي ، بل والاسلامي ، لم يعدم حركيته ، وإنما كان يعيش فعاليات حضارية متنوعة ، وبصفة خاصة العلمية والأدبية منها . وأقل شيء يقال فيها ، بأنها ليست أدنى في مستواها ، من فعالياته ، خلال الفترة المماوكية السابقة ، التي أنصفت إلى حد ما ، ووصفت بالخصب مع عدم التجديد ؛ وإن كان يغطي ذلك النشاط الحضاري ، موجة من « التصوف العامي » ، الذي أغرق فكر العامة ، وبعض « المثقفين » ، في دوامات الكرامات واللامعقول . ففي ميدان التاريخ مثلاً ، تابعت المدارس التاريخية العربية خطوط عملها السابقة ، وأنتجت مؤرخين على امتداد الوطن العربي ، موسوعيي المعرفة ، مدققين ومحققين ، ويدهشون الباحث المعاصر ، بغزارة مؤلفاتهم وتنوعها ، وضخامتها ، بل وبالقيمة التاريخية العلمية لبعضها • من أمثال النعمي (١) ،

(١) عبد القادر محمد النعمي (٨٤٥ - ٩٢٧ هـ / ١٤٤٢ -

١٥٢١ م) . مؤرخ دمشق عاصر دخول العثمانيين إلى بلاد الشام ومصر .

من مؤلفاته الهامة : « الدارس في تاريخ المدارس » .

و « ابن طولون » (١) ، و « ابن الحنبلي » (٢) و « النجم
الغزي » (٣) ، و « البوريني » (٤) ، و « المحببي » (٥) ،

(١) محمد بن علي بن طولون الدمشقي (٨٨٠ - ٩٥٣ هـ / ١٤٧٥ -
١٥٤٦ م) . مؤرخ وفقيه . له مؤلفات عديدة في التاريخ وفنون أخرى .
من أشهر كتبه « مفاكهة الخلان في حوادث الزمان » ، و « إعلام الوری
من ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى » .

(٢) رضي الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (٩٠٨ - ٩٧١ هـ /
١٥٠٢ - ١٥٦٣) . من علماء حلب ومؤرخيها . له مؤلفات عديدة .
أهمها في التاريخ « در الحبيب في تاريخ أعيان حلب » .

(٣) محمد بن محمد بن بدر الدين الغزي الملقب بالنجم . ولد في
دمشق ، وتوفي فيها (٩٧٧ - ١٠٦١ هـ / ١٥٧٠ - ١٦٥١) .
مؤرخ وأديب وفقيه . له مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم ، وأهمها
في التاريخ « الكواكب السائرة في تراجم أعيان المائة العاشرة » وذيله :
« لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن
الحادي عشر » .

(٤) الحسن بن محمد البوريني (٩٦٣ - ١٠٢٤ هـ / ١٥٥٦ -
١٦١٥ م) شاعر ومؤرخ وأديب ، وفقيه . من أبرز مؤلفاته : « تراجم
الاعيان من أبناء الزمان » .

(٥) محمد أمين بن فضل الله المحببي (١٠٦١ - ١١١١ هـ / ١٦٥١ -
١٦٩٩ م) . أديب ومؤرخ . له عدة مؤلفات ، أهمها في التاريخ :
« خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » .

و « ابن أبي السرور البكري الصديقي » (١) ، و « ابن
أبي الرجال » (٢) ، و « الشلي » (٣) ، و « عبد القادر
العبدروس » (٤) وابن القاضي (٥) ، و « ابن

١ (١) محمد بن أبي السرور البكري الصديقي (٩٩٨ هـ - مجهول
تاريخ الوفاة / ١٥٨٩ م - ...) مؤرخ وفقه مصري. له مؤلفات عديدة في
التاريخ . من أهمها : « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » . و « المنح
الرحمانية في الدولة العثمانية » .

(٢) أحمد بن صالح بن أبي الرجال اليمني (١٠٢٩ - ١٠٩٢ هـ /
١٦٢٠ - ١٦٨١ م) أديب ومؤرخ . مؤلفه الهام « مطلع البدور ومجمع
البحور » .

(٣) محمد بن أبي بكر بن أحمد الحسيني الشلي الحضرمي (١٠٣٠ -
١٠٩٣ هـ / ١٦٢١ - ١٦٨٢ م) . له عدة مؤلفات أهمها في التاريخ
« السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر » .

(٤) مؤرخ يمني (٩٧٨ - ١٠٣٧ هـ / ١٥٧٠ - ١٦٢٨ م)
انتقل إلى الهند وتوفي فيها . من مؤلفاته : « النور السافر عن أخبار
القرن العاشر » .

(٥) أحمد بن محمد المكناسي الزناتي المعروف بابن القاضي .
مؤرخ ورياضي (٩٦٠ - ١٠٢٥ هـ / ١٥٥٣ - ١٦١٦ م) . من
مؤلفاته : « درة الحجال في أسماء الرجال » و « غنية الأرائض في
طبقات أهل الحساب والفرائض » .

كنان» (١) ، و « المرادي » (٢) ، وغيرهم كثير ، حتى يمكن أن يقال عن هذه المرحلة بأنها مرحلة ازدهار في التأليف التاريخي ، وبصفة خاصة في بلاد الشام. وقد رافق ذلك الازدهار في ميدان التاريخ ، نشاط أدبي ملموس ، مما دعا بعض الأدباء المعاصرين اليوم ، إلى إطلاق صفة « النهضة الأدبية » على تلك الحقبة الزمنية .

ولا يلاحظ قارئ « التراجم » ، فضلاً في التأليفين التاريخي والأدبي فحسب ، وإنما نشاطاً أيضاً في ميادين العلوم الأخرى ، ولاسيما علوم الدين ، واللغة العربية . ومع أن نسبة المترجم لهم ، من النابهين في علوم الرياضيات ، والفلك ، والطب ، والكيمياء ، هي أضعف من نسبة

-
- (١) محمد بن عيسى بن محمود بن كنان (١٠٧٤ - ١١٥٣ هـ / ١٦٦٣ - ١٥٧٤ م) . من متصوفة دمشق ومؤرخيها . من مؤلفاته « المروج السندسية في تاريخ الصالحية » و « المواكب الاسلامية في الممالك والمعاسن الشامية » و « الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر وألف ومية » .
- (٢) محمد خليل بن علي (١١٧٣ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٦٠ - ١٧٩١ م) . كان مفتي الشام ونقيب أشرافها . أشهر كتبه « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » .

البارزين في حقول العلوم الدينية واللغوية ، إلا أن هناك
عديداً منهم ، قد عمل ، ونبغ ، وألف ، واخترع ،
وفي مختلف الأقطار العربية . وقد يكون هناك من لم يترجم له ،
وكان في الوقت ذاته ، حجة في العلم . ومن هؤلاء على
سبيل المثال « تقي الدين بن معروف » الراصد الشامي ،
المتوفى عام ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م . وهو الذي كانت له
اليدين الطولى في التخطيط لمرصد « استامبول » عندما عمل
رئيساً للفلكيين (منجم باشي) في بلاط السلطان . وقد
خلف « تقي الدين » عدة مؤلفات ، منها ماهو في « الهندسة
الميكانيكية » . وكتابه في هذا الباب بعنوان « الطرق السنية
في الآلات الروحانية » ، وقد حققه ونشره ، وقدم له
الدكتور « أحمد يوسف حسن » في كتابه « تقي الدين
والهندسة الميكانيكية العربية » (حلب ١٩٧٦) .

إن جميع تلك المعطيات الأولية ، للدليل واضح
على حياة فكرية عربية غنية ، تأبى بشدة وصفها «بالانحطاط» ،
و « التدهور » ، ولاسيما أن تقويمها قد تم بصورة سابقة
لدراسة علمية ، موضوعية ، عميقة ، ودقيقة . بل إنه
يمكن القول عنها ماقاله بعض المستشرقين عن حقبة

« السلاجة الأتراك » بأنه « لا يحق لنا أولاً أن ننعت بالانحطاط ، حقبة من التاريخ ، تألق فيها عدد من كبار مفكري الحضارة الإسلامية » كالذين أشير إليهم سابقاً . ومن هذا التراث الفكري العربي ، الغزير والثمين في المرحلة العثمانية ، وقع الاختيار على كتاب من كتب « التراجم الطبقية » الغنية ، وهو « خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر » للمؤرخ ، والأديب « محمد الأمين المحبي » ، لتنتقى منه مقتطفات ، تقدم للقارئ العربي ، نموذجاً ثراً من تراث تلك المرحلة ، وصوراً حيّة لمختلف الفعاليات التي كان يعيشها المجتمع العربي والإسلامي في تلك الحقبة .

* * *

قيمة كتاب « خلاصة الأثر »

قال ابن شاشو (١) - وهو من معاصري المحبي -
عن كتاب « خلاصة الأثر » : « صنف (أي المحبي)
تاريخاً لم يسبق إلى حسن تنميته ، لم يبق للكتب قبله ذكراً ،
فكانها بالنسبة إليه إذا عدت صفراً ، حوى جميع محاسنها » (٢)
وكان هذا الكتاب من الكتب المرموقة والمتداولة في القرن
الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، الذي توفي المحبي في
مطلع عقده الثاني ، بدليل حرص المثقفين في ذلك القرن على
قراءته ، واستعارته من بعضهم بعضاً ، على ما ذكره

-
- (١) عبد الرحمن بن محمد . (١٠٥٥ - ١١٢٨ هـ / ١٦٤٥ -
١٧١٦) . أديب من أهل دمشق . له كتاب في « تراجم بعض أعيان دمشق »
قلد فيه ريحانة الألبا للخفاجي ، ونفحة الريحانة للمحبي .
(٢) المصدر السابق . ط . بيروت ١٨٨٦ . ص ١٠٠ .

« المرادي » في مخطوطته : « مطمح الواجد في ترجمة
الوالد الماجد » (١) .

وفي الواقع ، إن لكتاب « خلاصة الأثر » قيمة تاريخية
علمية ثمينة : فبمعاصرة مؤلفه لعديد من الشخصيات التي
يترجم لها ، وللأحداث والأحوال المختلفة للمجتمع
التي تتضمنها تلك التراجم ، أو بقربه الزمني منها ، وأحياناً
المكاني ، وبوفرة التراجم التي يعطرحها وتنوعها ،
وبغزارة المعلومات التي يقدمها ودقتها ، هو من الأصول
النادرة ، التي تعطي صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة ،
عن تاريخ البلاد العربية ، والعالم الاسلامي ، بصفة عامة ،
وببلاد الشام بصفة خاصة ، خلال مرحلة لاتزال غامضة ،
ولما تدرس الدراسة الكافية ، أو تقوم التقويم الموضوعي
السليم - كما أسلفنا القول - . والسفر بمجموعه من الكتب
التاريخية الموثوقة ، لأن مؤلفه مؤرخ حق ، وبالمعنى
العلمي الحديث للتاريخ : فقد جمع الثقافة الواسعة ،
والمتينة ، لعصره ، إلى بنية أخلاقية قويمة ، تتصف

(١) مخطوطة مصورة من المتحف البريطاني تحت الرقم
OR 4050 sch 5501 ص ١٣٧ .

بالصدق والأمانة ، والنزاهة ، والتجرد . وتوَجَّ الثقافة
والخلق ، باتباعه منهجية تاريخية ، علمية ، سليمة ،
تبدت واضحة، في اعتماده على كمية وفيرة من المصادر
الكتابية ، والروايات الشفوية ، المحققة والموثوقة ، أدرجها
في مقدمة كتابه أو خلال تراجمه ؛ وتجلَّت كذلك في
ملاحظته الخبر واستقصائه من مظانه، بدأب وصبر، وأينما
وجده ، ومهما بعدت شقته ؛ ثم في موازنته بعض المصادر
ببعضها ، ونقدها بموضوعية ودقة ، ومن مختلف الوجوه ،
واستخلاص الوقائع الصحيحة منها . كما تبينت تلك
المنهجية السليمة ، في أمانته في طرح الوقائع مع الاعتراف
بمصادرها ، وفي شرحه الوافي لمختلف الأمور، وفي تركيبه
المتناسك لبنية الشخصية التي يترجم لها ، وإحاطته بكل
جوانبها ، بحيث تبدو حية وناطقة . وعلى الرغم من مزج
المحبي التعليل الميتافيزيقي بالتعليل العقلاني ، فإن اتجاهه
نحو التعليل المنطقي والواقعي يبقى هو الأقوى .

كل تلك الأمور تجعل من مؤلَّف « خلاصة الأثر »
مؤرخاً ، يدخل بحق ، ومن باب عريض ، إلى مصاف

المؤرخين الكبار، لا في عصره فحسب ، وإنما في عصرنا
أيضاً ؛ ولا سيما إذا لوحظت ضخامة العمل الذي قدمه .
هذا إلى جانب توطيدها لقيمة كتاب « خلاصة الأثر »
سفرًا تاريخيًا ، أمينًا وموثوقًا ، وأصلاً ثمينًا من أصول
تراثنا العربي .

ويجب ألا تنسى في بحران تقويم « خلاصة الأثر »
أصلاً تاريخيًا ، رفيع الشأن ، قيمته الكبيرة في الأدب
العربي : بأسلوبه الرصين ، وبما حواه من معلومات قيمة
عن أدباء تلك المرحلة من التاريخ ، وشعرائها ، وبما
تضمنه من انتاجهم الثري والشعري ؛ وأخيراً بكونه نموذجاً
من الإنتاج الأدبي التاريخي للقرن الحادي عشر الهجري /
السابع عشر للميلاد .

ولابد من الإشارة ، إلى أن ذلك السفر، على الرغم من
قيمه التاريخية والأدبية الثمينة ، وعلى الرغم من استفادة
المؤرخين والأدباء من معينه في بحوثهم ، لم يحظ بعد
بدراسة خاصة وافية . وقد تكون « الدراسة الموجزة »
له ، المطروحة في هذه المقدمة ، خطوة في هذا السبيل ،
علماً أن « دراسة موسعة » له آتية في الطريق .

* * *

سيرة المحبّي

مؤلف خلاصة الأثر

لم يكن الشيخ الشاعر « محمد المحمودي » رفيق المحبّي
ومعاصره ، مغالياً عندما رثاه قائلاً ؛ :

لم يبق كهفٌ للأفاضل يُرتجى
بعد المحبّي ذي المعاني الزاهية
الفاضلُ ، التحريرُ ، أوحده دهره
من حاز أنواع الفنون الباهية
الجِهْدُ ، النقاد ، درةُ شامنا
كثُرُ الدقائق والعلوم الوافية

« فالمحبّي » ، كما يبدو للباحث في إنتاجه العميم ،
هو قمة من قسم الأدب والتاريخ ، في الحضارة العربية
الإسلامية ، ونموذجاً شامخاً للمعرفة الموسوعية في عصره :

أخذ من فنون العلم ، وضروب الأدب ، الوفير وما ارتوى ،
وأعطى غزير عرفانه ، وجسم أدبه ، مأروى .

و « المحبي » هو « محمد الأمين » بن « فضل الله » ،
ابن « محب الله » ، بن « محمد محب الدين » بن « أبي بكر
تقي الدين » بن « داود » المحبي . ولد في مدينة دمشق ،
عام ١٠٦١ هـ / ١٦٥١ م ، من أسرة عربية ، ترجع في
أصولها إلى مدينة « حماة » ؛ فهي غير أسرة « المحبي »
الدمشقية . ويفتخر « المحبي » بأصلته العربية ، وكأنه
يعبر بذلك عن شعور قومي عربي يحسه تجاه الأروام
« الأتراك » الحاكمين ، ويميّزه عنهم . وفي ذلك يقول ،
في مطلع ترجمته لأسرته في كتابه « نفحة الريحانة » :
« بيت المحبي ، بيت أبي وجدّي ، ومنبت عرق مخّتي
ومجدي ، والمجد ما افتخرت به العرب من القدم .

ولاني من العرب الأقدمين

وقدمات من قبل خلقي الكرم

وأنا إذا افتخرت هزّني أريحية الطرب ، ونافست

بآباء ، تماكني عند ذكرهم حمية العرب :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجمع» (١)

وبيت « المحبي » ، إلى جانب أصالته العربية ، كان بيت علم وعرفان : فوالد جده « محمد بن أبي بكر بن داود » - وهو أول من وفد من الأسرة إلى دمشق . واستقر فيها عام ٩٩٣ هـ / ١٥٨٦ م - كان عالماً محيطاً بفنون عديدة من العلوم : كالتفسير ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والفرائض ، والحساب ، والمنطق ، والحكمة ، والفنون الغربية ، كالزيرجا (٢) ، والرمل ، وغيرها . كما كان أديباً ضائعاً . وقد زار بلاد الروم (أي بلاد الدولة العثمانية) مرات ، واحتك بعلمائها ، وحكامها . وعينته السلطات العثمانية مدرساً في « المدرسة القصصائية »

(١) تحقيق عبد الفتاح الحلو . ٤ أجزاء . القاهرة ١٣٨٧ هـ /

١٩٦٧ ج ٢ . ص ١٨١ .

(٢) الزيرجا : جدول تنجيمي سحري شائع في المغرب الأقصى ، ذكره ابن خلدون في مقدمته ، وينسب إيجاده إلى الصوفي « أبي العباس السبتي » ، في نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

بدمشق (١) . وفي هذه المدينة تزوج من بيت العلامة
الدمشقي « إسماعيل أبي الفداء النابلسي » (٢) . وقد
تولى عدة مناصب قضائية ، وعمل بالفتيا ، وكان حنفي
المذهب ، واشتهرت فتاواه ، وخلف كثيراً من المؤلفات .
ولم يكن جدّ « المحبي » ، وأبوه ، أدنى علماً ، وأقل
فضلاً من الجد السابق الذكر ، فقد سارا على خطاه
ونهجيه ، وتسنما هما الآخران مناصب قضائية كما فعل
ويبدو أن أسرة « المحبي » كانت ثرية بالمال ثراءها بالعلم .
ويشير المؤرخ نفسه إلى ذلك عند حديثه عن جده فيقول
بأن « الدنيا أقبلت عليه إقبالاً عظيماً ، وملك الذخائر
والتحف ، مالا يضبط بالاحصاء . » .

وهكذا يتضح من متابعة أصول « المحبي » لأبيه ،

(١) مدرسة بحارة القضاة في محلة الخضيرية . درست وتحول
مكانها إلى دور سكن اليوم . وقد شرط واقفها أن يكون المدرس بها
أعلم الخنفية بالأصلين . وقد انشأتها خطبسي خاتون سنة ٥٩٣ هـ /
١١٩٦ م . (النعمي : الدارس في تاريخ المدارس . جزءان . تحقيق
جعفر الحسني . دمشق ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م . ج ١ . ص ٥٦٥) .

(٢) من كبار علماء دمشق في القرن العاشر الهجري / السادس
عشر الميلادي . عمل بالتدريس والفتيا . توفي عام ٩٩٣ هـ / ١٥٨٦ م .

بأن « محمد الأمين » قد ولد ونشأ ضمن أسرة علم ،
و ثراء ، وقضاء ، وجاه . ولم تكن أسرة والدته ، وهي
من « آل الأسطواني » ، لتقل شأناً ، ومرتبة ،
وغنى ، وعلماً ، عن أسرة أبيه . فهي ابنة « أبي الصفا
محمود بن أبي الصفا الأسطواني » الدمشقي الحنبلي .
و « كان من جملة الرؤساء ، وفضلاء الكتاب ، ولي خدمات
كثير من كتابات الخزينة والأوقاف » .

ويتضح من المصادر التي تحدثت عن « المحبي » . ومن
ترجمته لنفسه في كتابه « نفحة الريحانة » ، ومما ورد في
ثنايا « خلاصة الأثر » ، أنه يمكن أن نُميّز في حياة « المحبي »
ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : وتمتد من ميلاده وحتى بلوغه الخامسة
والعشرين من عمره (١٠٦١ - ١٠٨٦ هـ / ١٦٥١ -
١٦٧٦ م) . وهي أطول مرحلة في حياته القصيرة نسبياً ،
إذ لم يعمر المحبي سوى خمسين عاماً هجرياً . وقد قضى
تلك المرحلة كلها في مسقط رأسه دمشق ، ماعدا عامين
منها ، كان يتنقل خلالهما ، بينها وبين بيروت ، حيث
عمل والده قاضياً فيها . ويمكن أن توصف هذه المرحلة ،

بأنها مرحلة تكوين المحبي لثقافته العربية الإسلامية الواسعة ،
على يد علماء من العرب المسلمين .

ولا يعرف ، في الواقع ، شيء عن طفولة « المحبي »
قبل الحادية عشرة من عمره ، ولكن استطاع القول ،
إنه كان يعيش في كنف والديه ، حياة بحبوحة ويسر ،
لاحياة ضنك وعُسر . ومن الطبيعي أن يكون قد تعلم
القراءة والكتابة على يد والده ، وفي سن مبكرة ، قد تكون
السادسة أو قبلها ، على عادة علماء ذلك العصر ، الذين
كانوا يقدمون أولادهم للعلم منذ طفولتهم الباكرة .
ولا بد أن يكون القرآن الكريم هو أول مدارس ، وحفظ ،
ونختم . ويذكر « المحبي » بأنه بدأ بالاشتغال بالعلم ،
قبل بلوغه الحادية عشرة من العمر ، أي قبل عام ١٠٧٣ هـ /
١٦٦٢ م ، وهو العام الذي غادره فيه والده ، ليلتحق ببلاد
الروم ، وليغيب عنه فيها أربع سنوات .

ولا يذكر « المحبي » شيئاً عن والدته ، وعن وجودها
أو عدمه ، بل إن الرسالة التي بعث إليه بها والده ، عندما
علم بوفاة « فضل الله » ، أنخي المحبي الصغير ، لاتشير ،
ولو بكلمة صغيرة إلى تلك الأم . وكل مايتبين مما طرحه

« محمد الأمين » في مؤلفيه . « خلاصة الأثر » و « نفحة
الريحانة » ، أنه خلال فترة غياب والده ، كان في كفالة
عمه العطوف « صنع الله » ، وخاله المحب الودود « محمد
ابن أبي الصفا الأسطواني » . وبذلك وجد « المحبي »
في غياب والده ، وأثناء مراهقته الأولى ، من يعوض
له حنان الأب ، ويوجهه الوجهة الصالحة ، المتلائمة مع
ميله للمعرفة ، واهتماماته العلمية والأدبية . فدرج ينهل
من علماء دمشق ، فنون العلوم المختلفة . وكانت دمشق
آنذاك ، مركزاً نشيطاً من المراكز العلمية العربية ، كثرت
فيها المدارس ، وحلقات المساجد ، وأمامها كبار العلماء
من الأقطار العربية والإسلامية . وفي الواقع ، لقد تتلمذ
« محمد الأمين » على كبار مشايخ عصره ، « كإبراهيم
ابن منصور القتال » (١) (المتوفى ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧ م) ،
و « رمضان بن موسى المعروف بابن عطيف » (٢)
(المتوفى ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م) ، وكان نحوياً وراوياً

(١) انظر ترجمته التفصيلية في خلاصة الأثر ؛ أجزاء . القاهرة
١٢٨٤ هـ (تصوير دار خياط بروت د . ت) ج ١ . ص ٥١ فما بعد .
(٢) المصدر نفسه . ح ٢ . ص ١٦٨ فما بعد .

للشعر ، و « محمد بن بدر الدين بن بلبان البعلي » (١)
(المتوفى ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢ م) وكان من المقدمين
في الحديث ، و « عبد الحي بن أحمد العكري » (٢)
المعروف بابن العماد (المتوفى ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) ،
صاحب كتاب « شذرات الذهب » ، و « محمد بن علي
المعروف بالعلاء الحصكفي » (٣) (المتوفى ١٠٨٨ / ١٦٧٧ م)
مفتي الحنفية بدمشق ، و « محمد بن يحيى
القرضي » (٤) (المتوفى ١٠٩٠ هـ / ١٦٧٩ م) ،
و « محمود البصير الصالحي الدمشقي » (٥) (المتوفى
١٠٨٤ هـ / ١٦٧٣) وكان عارفاً بالرياضيات والالهيات ،
والطب ، و « عبد القادر بهاء الدين المعروف بابن عبد الهادي
العمرى » (٦) (المتوفى ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م) ، وغيرهم .
و درس عليهم الحديث ، والتفسير ، والفقه ، والنحو ،

(١) المصدر نفسه ج ٣ . ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٢) المصدر نفسه . ج ٢ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٣) المصدر نفسه . ج ٤ . ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) المصدر نفسه . ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٥) المصدر نفسه . ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٦) المصدر نفسه . ج ٢ . ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

والمعاني ، والبيان ، والمنطق ، وعلم الكلام ، والتصوف ،
والأدب ، والحساب ، والهندسة ، والفلسفة . ولم يقتصر
في استقاء معرفته الواسعة ، من علماء دمشق فحسب ،
بل كان يتتبع زيارات كبار علماء العصر الوافدين من
البقاع الإسلامية المختلفة . ومن هؤلاء العالم المدني « ابراهيم
ابن عبد الرحمن الحيارى » (١) (المتوفى ١٠٨٣ هـ /
١٦٧٢ م) أحد المشاهير في الحديث ، والمعارف ،
وفنون الأدب والتاريخ ، وقد أجازته بجميع مروياته ،
وغيره . ويبدو أنه في هذه المرحلة من حياته أخذ « الطريقة
الخلوتية » (٢) في التصوف من شيخها الكبير آنذاك

(١) المصدر نفسه . ج ١ ص ٢٥ فما بعد .

(٢) أتت تسميتها من « الخلوة » (أي الافراد والانعزال) ،
التي هي من لوازم الطريقة . وهي تستند إلى الرياضة ، وكسر النفس ،
وتهذيب الأخلاق ، وقمع الشهوات ، والامتناع عن اللذات . وكان
للمريدين في كل سنة « خلوة عامة مع شيخهم أيام الشتاء ، يصومون خلالها
ثلاثة أيام ، ويأكلون عند المساء مقدار أوقيتين من الحريرة ، ورغيفاً
من الخبز أكثر من أوقية ، لا يشربون الماء القراح ، بل يشربون القهوة ،
ويستمرون في الذكر والعبادة ، آناء الليل وأطراف النهار . وأما باقي
الأيام ، فيقومون سحراً ويتهمجدون على قدر طاقتهم ، ثم يأخذون في =

« محمد بن عمر الصالح الحنبلي » (١) .

وأظهر « المحبي » في سن مبكرة ، ميلاً للشعر ،
وأنتج في ميدانه ، وأرسل باكورة شعره إلى والده في
بلاد الروم . إلا أن الوالد ، على الرغم من مباركته
ذاك الانتاج ، حذر ابنه من السير في هذا الطريق ، قائلاً
له : « إياك من الشعر ، فإنه كاسد الشعر ، ويشغل الفكر .
وعليك بالاشتغال ، لتبلغ درجة الفحول من الرجال » .
ولم يخيب « المحبي » ثقة أبيه فيه ، فتابع جني ثمار
العلم والأدب من كل منحى ، ودون توقف . وعندما
عاد الوالد إلى دمشق ، بعد غياب أربع سنوات ، وجد
« محمد الأمين » وقد شب واشتد عوده ، وزخرت
نفسه بأطاييب المعرفة . فاصطحبه معه إلى بيروت ، حيث
كان يعمل قاضياً . إلا أنه بعد عامين ، تنقل فيها بين
دمشق وبيروت ، عاد المحبي إلى الاستقرار مع والده

= الذكر ، إلى وقت الاسفار ، ثم يصلون الصبح ... ويقرؤون الأوراد
إلى ارتفاع الشمس ، ويصلون الا شراق ، وهكذا يفعلون العبادات
في أوقات الصلوات المفروضة . » (خلاصة الأثر . ج ١ ص ٣٨٩ - ٣٩٠) .
(١) المصدر نفسه . ج ٤ . ص ١٠٣ .

في دمشق، حيث انصرف الوالد إلى تأليف كتاب في تراجم عصره، يكون ذيلًا لتاريخ «البوريني». ولم يستمتع «محمد الأمين» طويلاً بصحبة أبيه، إذ وافت هذا الأخير المنية بعد ثلاث سنوات. في ٢٣ جمادى الثانية عام ١٠٨٢ هـ / ١٦٧١ م.

لقد تابع «المحبي» خلال السنوات الخمس التي عاشها رفيقاً لوالده، ولأربع سنوات أخرى بعد وفاته، تنمية ثقافته. وقد جاء الحزين العلمي لوالده، وتجارب هذا الوالد الحياتية، وصداقاته للعلماء والشعراء، من العرب والأتراك، وتزاوره معهم، ومحاوراته ومناقشاته في شتى الموضوعات فيما بينه وبينهم، ولاسيما مع «منجك بن محمد بن منجك» (١) (المتوفى عام ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م) أحد كبار شعراء دمشق آنذاك، لتغني الزاد الثقافي «للمحبي»، وتوسع آفاقه.

وخلاصة القول، يتضح من متابعة خطوات «محمد الأمين» في هذه المرحلة من حياته، أنه قد اكتسب،

(١) انظر ترجمته وبعضاً من شعره، في المصدر نفسه ج ٤.

ص ٤٠٩ فما بعد.

وهو لما يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر ، علماً غزيراً ،
أخذه من عديد من كبار رجال الاختصاص في عصره .
إلا أنه بعد أربع سنوات من وفاة والده ، وفي عام ١٠٨٦ هـ /
١٦٧٥ م ، قرر أن يغادر موطنه دمشق ، ويرتحل إلى
بلاد الروم .

ولا يعرف بالدقة ، السبب الأساسي الذي دفعه
إلى ترك دمشق . إلا أنه قد يكون هناك جملة أسباب :
وأولها ، على ما يبدو ، نفسي - عاطفي ، انجرف فيه
« محمد الأمين » وراء شعوره بالوحشة والغربة ، بعد أن
افتقد بعض أحبائه ، وقد يكون والده وبعض معلميه
منهم . وفي ذلك يقول :

« واجتنيبت من خواطرهم كل يانع مستطاب ،
لكني لم أقصد من رؤيتهم مطمعاً ، حتى غربوا وشمس
الفضل معاً . . . فعانيت الوجود دونهم كالنهار بلا شمس ،
وعانيت الأمر ولاهم كالراحة بلا خمس ، وفقدت بهم
الوطر الذي شايعته ، والأمل الذي على الوفاء والرعي
للذمم بايعته ، فلم ألبث حتى كرهت الثرى ، وتحركت

عزيمتي لداعي النوى ، فأمضيت بلجهة الروم العزم .
وأدخلت على حرف العلة عامل الجزم « (١) » .

ومع أهمية ذلك السبب ، إلا أنه لابد من أن عوامل
أخرى قد شجعت على المضي في هذا السبيل ، كـرغبته
في الاستزادة من العلم ، وتعرف ثقافة العلماء من الأتراك ،
من منابعها ، ولاسيما أن العاصمة « استامبول » أو « دار
الخلافة » - كما كان « المحبي » يطلق عليها في كتابه -
كانت آنذاك مركزاً علمياً فعالاً : ففيها المدارس الوفيرة ،
وبصفة خاصة منها ، تلك التي انشأها السلاطين لإعداد
المدرسين والقضاة . وهي موئل عديد من العلماء الأتراك
الأفذاذ ، ومحط كثير من علماء العالم الاسلامي ، والوطن
العربي ، الذين كانوا يتوافدون إليها ، إما لطلب علم ،
أو بثه ، أو للحصول على منصب علمي في التدريس ،
أو القضاء ، أو الإفتاء ، أو غيره . ولعل « المحبي »
أراد هو الآخر ، أن يسلك مسلك قضاة الأروام وعلمائهم ،
لينال من مثل تلك المناصب ، وله في ذلك أسوة بجده
وأبيه . ومن المرجح أنه قد شجعت على الانتقال ، منحة

(١) نفحة الريحانة . ج ١ ص ٦ - ٧ .

« الملازمة » (١) التي كان أحد القضاة الروم الكبار ،
قد وعد والده بها ، وهو لا يزال طفلاً . ويضاف إلى تلك
العوامل ، رغبة « المحبي » الشاب ، في التنقل والترحال ،
للاطلاع على مختلف مظاهر الحياة في العاصمة ، والمدن
التركية الأخرى ، على عادة علماء ذلك العصر وأدبائه .
وفي الواقع ، يلاحظ من « التراجم » التي طرحها « المحبي » ،
وقبله « الغزي » ، و « البوريني » ، و « الحنبلي » ،
أن عديداً من علماء البلاد العربية والإسلامية ، وأدبائها ،
كانوا يتنقلون ، وعلى نطاق واسع ، بين مواطنهم وبلاد
الروم من ناحية ، وبين مواطنهم وبقية أقطار البلاد العربية
من ناحية أخرى ، وشاع من ثمّ « أدب الرحلات » :
فقد كان العالم المتنقل أو الأديب ، يدوّن ملاحظاته
ومشاهداته المختلفة ، ونحواطره ، خلال رحلته ، نثراً
أو شعراً . وفي الواقع ، كان المثقفون من الشباب العرب ،
يرون في ذلك الارتحال ، اغناءً للذات وتجديداً لها ،
وجلواً للقدر والشأن ، وفي ذلك يقول مؤرخنا ذاته :

(١) وثيقة تمنح صاحبها وظيفة في التدريس .

« وفي الانتقال تنويه لحامل الأقدار ، ولولاه لم يكس البدر
حلة الابدار » (١) .

المرحلة الثانية من حياة المحبي : وتحتوي حياته في
بلاد الروم ، ومدتها ست سنوات (١٠٨٦ - ١٠٩٢ هـ /
١٦٧٥ - ١٦٨١ م) . غادر المحبي دمشق برفقة عمه ،
في الثامن من شهر صفر عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م ؛
ووجهتهما بروصة . وكانت ، كاستامبول ، مدينة علمية
كبيرة . إلا أن المحبي لم يمكث بها طويلاً ، فقد غادرها
إلى « أدرنة » ، العاصمة الثانية للدولة العثمانية . وكان
السلطان العثماني « محمد الرابع » (١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ /
١٦٤٨ - ١٦٨٧ م) مقيماً فيها آنذاك ، ومعه كبار رجال
حكومته . ومكث « المحبي » في « أدرنة » عدة شهور ،
وكان على اتصال - فيما يبدو - مع قاضي عسكر الروملي
« محمد بن لطف الله » المعروف بـ « محمد عزتي » ، الذي
كان قد أعطى أباه منحة « الملازمة » له ، والذي ارتبط
به « المحبي » ارتباط التلميذ بأستاذه . وخلال إقامة

(١) نفحة الريحانة . ج ١ . ص ٧ .

« محمد الأمين » في أدرنة ، سعى للاستماع لعدد من كبار العلماء الأتراك فيها ، كما اجتمع ببعض العلماء العرب ، وبعض الشخصيات العربية السياسية ، كالأمير « أحمد ابن زيد » وأخيه ، من أشرف مكة . وكانا قد وفدا إلى دار السلطنة كي يسعيا لدى السلطان ، لإعادة « الشريف أحمد » إلى شرافة مكة ، بعد أن عزله الأشراف عنها . وقامت صداقة بين « المحبي » والشريف ، تمتنت أواصرها في استامبول ، حتى امتدح الأول الثاني بعدة قصائد . وبعد أشهر من الإقامة في « أدرنة » ، انتقل « محمد الأمين » إلى « استامبول » ، وقد يكون لتسلم منصب التدريس في مدرسة « الخوجة خير الدين » ، وكان قد عينه فيه « محمد عزتي » ، وفي الوقت ذاته لملازمة هذا الأستاذ العالم ، بعد أن اعتزل الخدمة . لقد تعلق « المحبي » بأستاذه الرومي . وكان بيت هذا الأخير ، مجلس علم ومناظرة حافلاً ، يضم جمعاً حاشداً من العلماء والأدباء ، وتجري فيه المذاكرة والمطارحة في جميع الفنون ، ولاسيما في ميدان الأدب والشعر ، وهذا أكثر ما كان يلذ للمحبي سماعه ، والاغتراف منه . وفي الواقع ، لم يستفد المحبي

من علم أستاذة ، ومحاميه فحسب ، وإنما عبّ أيضاً من معين مكتبته العامرة ، التي حفلت بكل ما طاب واستحلى من أفانين المعرفة . وإلى جانب ذلك ، أخذ عن عديده من العلماء الأتراك والعرب ، ومنهم العالم الجزائري الكبير « يحيى الشاوي المغربي » (١) المتوفى ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٤ م . الذي أجازته إجازة شعرية ، هي صورة لطيفة من الإجازات الشعرية الشائعة في ذلك العصر .

وتعرف « المحبي » أثناء وجوده في العاصمة العثمانية ، بعدد من الشعراء العرب المقيمين فيها ، ومنهم « عبدالله ابن محمد الحجازي المعروف بابن قضيب البان الحلبي » (٢) ، و « عبد الباقي بن أحمد المعروف بابن السمان الدمشقي » (٣) ، و « أسعد البتروني » (٤) وغيرهم . ودرس الشعر التركي وأقام صلات مع بعض فحول المعاصرين له ، ووازن بينه وبين الشعر العربي ، وجمع حصّة وفيرة منه .

(١) انظر ترجمته في خلاصة الأثر . ج ٤ . ص ٤٨٧ ، وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٢) انظر المصدر نفسه ج ٣ . ص ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه . ج ٢ . ص ٢٧٠ .

(٤) المصدر نفسه . ج ١ . ص ٣٩٩ .

خمس سنوات عاشها « المحبي » في استامبول ، وهو منغمس في مناخ علمي رفيع : يتتبع بدأب ، أخبار العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ، الناثرين منهم والشعراء ، العرب والأتراك ، الأموات منهم والأحياء ، ويمزج في ذهنه المفتوح الذكي ، الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة ، بالثقافة التركية ، التي هي مزيج من فكر إسلامي ، فارسي ، عربي ، تركي . لقد قضى قسطاً كبيراً من وقته في مطالعة الوفير من الكتب بالعربية والتركية ، ولاسيما تلك التي أشار إليها في مقدمة كتابه « خلاصة الأثر » ، بصفتها موارد له . وكان خلال مطالعته ، يدوّن كل ما يراه هاماً في ميدان الشعر ، والأدب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وعلوم اللغة ، وغيرها من ميادين المعرفة ، بدليل ما يحمله كتابه منها ؛ هذا بالإضافة إلى ملاحظاته الهامة لأحوال الدولة العثمانية في المركز ، عن كُتب .

إلا أن الأمور لم تتابع مجراها كما اشتهاها « المحبي » : فقد توفي أستاذه « محمد عزتي » في الثالث عشر من شهر شوال سنة ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م . وكانت وفاته — على ما يبدو — صدمة كبيرة له ، على الرغم من أنه كان مدرّكاً

بأنه مريض ، ويشكو آلاماً عديدة . إلا أن تعلقه الشديد به ، أشعره بغربة قاسية بعد افتقاده ، ولذا فانه لم يبق في استامبول بعد وفاته إلا يوماً واحداً فقط ، غادرها بعده إلى موطنه « دمشق » .

المرحلة الثالثة من حياة المحبي : ومدتها تسعة عشر عاماً (١٠٩٢ - ١١١١ هـ / ١٦٨١ - ١٦٩٩ م) . وقد قضى « المحبي » الجزء الأكبر منها في دمشق ، وجزءاً آخر في التنقل بينها ، وبين الحجاز ، ومصر . وإذا كانت المرحلتان السابقتان من حياته قد اتصفتا بأخذ المحبي للعلم والأدب من مختلف مناهلهما ، ويجمع المأثور ، واختزان الكثير ، فإن هذه المرحلة الأخيرة ، كانت مرحلة النضج والعطاء .

عاد « محمد الأمين » إلى دمشق وهو في الثلاثين من عمره ، أي في فضارة الشباب ، إلا أنه كان يحمل على كتفيه - على ما يظهر - كثيراً من الأحزان والهموم . إن أساه بفقدان معلمه ، جعله ينطوي على نفسه ، ويعتزل الناس . وقد وصف « المحبي » نفسه عند عودته ، وصفاً نفسياً مؤثراً بقوله : « رأيت الدهر عاندني في الديار

والأحباب ، وكساني المشيب قبل أن أعرف حق الشباب . . .
وقد ولتني الثلاثون أذنبها ، وصبت عليّ المصائب ذنابها ،
فحلّيتها (أي دمشق) ، في عصر ذهب رواؤه ، وفرغ
من المعارف إنأؤه . . . وعَضُدُ الأدب هَيْضُ ، وثمده
بعد هنيئه غيض . . . والناس إما ساكت أَلْفاً ، أو ناطق
خلفاً . ولزمت كسر البيت ، وسكنت سكون الميت « (١) .
وقرر « المحبي » ، وهو في خلوته ، أن يجمع أوراقه ،
وينصرف إلى التأليف . إلا أنه يظهر أن عزلته لم تكن تامة ،
إذ ظل يتتبع أخبار وفود العلماء الكبار إلى دمشق ، فيسعى
إليهم ، ومن هؤلاء « محمد بن سليمان المغربي » (٢) أحد
العلماء، العلامة في ذلك العصر ، الذي وفد إلى دمشق
عام ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٢ م ، وأجاز المحبي بمروياته .

ولا يعرف من المحبي أي مؤلفاته العديدة ابتدأها قبلاً ، وقد
يكون سطر بعضها قبل هذه المرحلة . أما كتاباه الكبيران
« خلاصة الأثر » و « نفحة الريحانة » ، فيبدو أنه قد شرع
بتأليف الأول قبل الثاني ، إلا أنه اصطدم ، وهو يكتب ،

(١) نفحة الريحانة . ج ١ . ص ٩ .

(٢) انظر ترجمته في خلاصة الأثر . ج ٤ . ص ٢٠٤ فما بعد .

بنقص معلوماته في بعض التراجم ، ولاسيما تراجم أهل
الحجاز ، ومصر ، واليمن . فقرر بحسه التاريخي الدقيق ،
وفكره المستقصي ، أن يزور تلك البقاع ، ويستقي
معطياته من الميدان مباشرة .

وسافر أول ماسافر إلى الحجاز ، إذ يقضي بذلك
وطرين معاً : الحج ، والحصول على مايبغي من معلومات .
وفي مكة طلب إليه أن يكون نائباً لقاضيهما ، فقبل .
ولم يُضِيع وقته عبثاً في الحجاز ، فإلى جانب عمله في القضاء ،
وسعيه الحثيث لجمع معطيات عن شخصيات الحجاز
واليمن ، ولاسيما المعاصرة له ، فإنه تابع أخذ العلم عن
علماء الحجاز الكبار . وأراد أن ينتقل من الحجاز إلى
مصر ، إلا أن ظروفه لم يوضحها ، أعاقته . فعاد إلى دمشق
حوالي عام ١١٠٢ هـ / ١٦٩٢ م .

وفي دمشق ، عاود سيرته الأولى من الانعزال ،
والتأليف ، حتى جاءه « زين العابدين البكري » (١) ،
وهو من كبار علماء مصر وأدبائها ليخرجه من خلوته
وكآبته . وعندما طلب منه أن يرافقه إلى القاهرة ، استجاب

(١) انظر ترجمته في نفحة الريحانة . ج ٤ . ص ٤٧٨ فما بعد .

لدعوته ، إلا أن عائقاً ما ، لا يذكر « المحبي » صفته ،
أقعه عن ذلك ثانية . وبقي في دمشق ، إلى أن قدم إليها
صديقه التركي « عبد الباقي المعروف بعارف » ، الذي
عين قاضياً في مصر ، فرافقه إليها .

وفي القاهرة ، طابت لمؤرخنا الحياة في كنف « زين
العابدين البكري » وعمل على تبييض ماسوده من « نفحة
الريحانة » ، هذا إلى جانب عمله نائباً للقاضي « عارف »
صديقه . وفي القاهرة التقى بأستاذه وقريبه « عبد الغني
النبلسي » (١) المتصوف والأديب الدمشقي الكبير ،
وأخذ منه « طرقاً ، وتحائف ، ودقائق ، وحقائق » .
ويبدو أنه ظل مقيماً في القاهرة حتى وفاة صديقه البكري ،
عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م .

وعاد المحبي مرة أخرى إلى مسقط رأسه دمشق ،
وقد ازداد نضجاً ، وتجربة ، وعلماً ، ليتابع تأليفه ،
ويعمل مدرساً في « المدرسة الأمينية » (٢) . والظاهر

(١) انظر المصدر نفسه . ج ٢ . ص ١٣٨ فما بعد .

(٢) قبلي باب الزيادة من أبواب الجامع الأموي المسمى قديماً
بباب الساعات . قيل إنها أول مدرسة بنيت للشافعية . ويشير الحصني في
« منتخبات التواريخ لدمشق » ٣ اجزاء دمشق ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ .
(ح ٣ . ص ٩٤٤) أنها واقعة في سوق الحرير إلى اليوم .

أن الأمراض قد استولت عليه ، فأصابه الهرم ، على الرغم من أنه لم يكن قد بلغ الخمسين .

وفي الثامن عشر من شهر جمادى الأولى عام ١١١١هـ / ١١ تشرين الثاني ١٦٩٩ ، حضرت المحبي الوفاة ، خاتماً القرن السابع عشر الميلادي . وصلى عليه شيخه «عثمان القطان» في الجامع الأموي ، ودفن بتربة الذهبية من مرج الدحداح ، قبالة قبر « أبي شامة » .

مؤلفات المحبي : لقد زود « المحبي » المكتبة العربية بعدة مؤلفات ، هي جزء ثمين من تراثنا العربي . فإننتاجه لم يقتصر على المؤلفين الضخمين الآنفى الذكر ، وإنما شمل مجموعة أخرى . وإننتاجه هذا إنتاج وفير ، على عادة علماء عصره الكبار ، وعلماء العصور الإسلامية السابقة له ، حتى إن انسان الوقت الحاضر ، ليدعش ، وهو الذي يتمتع بحياة أكثر رفاهة ورخاءً ، ويملك من وسائل التقنية الكتابية ما هو أرقى وأيسر ، كيف توافر للمحبي ، وغيره من أولئك العلماء ، الوقت الكافي ، كي يطرح مثل هذا الثمر الطيب الغزير ، والناضج . ويمكننا عند الحديث عن كمية مؤلفاته ، أن نستعير تعبيره ، الذي وصف به

إنتاج والد جده ، فنقول عنها بأنه « لوحسب عمر المحبي
— وهو لم يتجاوز الخمسين — والذي كتبه ، لبلغ كل
يوم كراساً بالكامل » .

ويستطاع مبدئياً تصنيف مؤلفات المحبي في ثلاث
زمر ، بحسب نوعية المعرفة الأساسية التي كوَّنت قوامها ،
وإن كان هذا لا ينفي بالطبع تداخل معارفها فيما بينها .
وهذه الزمر هي :

أولاً : مؤلفات يغلب عليها الطابع اللغوي .

ثانياً : مؤلفات أدبية ، نثرية وشعرية .

ثالثاً : مؤلفات تاريخية .

أولاً : المؤلفات ذات الطابع اللغوي : وهي ما ألفه
المحبي في ميدان اللغة العربية وعلومها ، وبصفة خاصة
في قواعدها ومفرداتها ، وإن كان هذا لا يمنع تخلل الأدب
في ثناياها . ويبدو من مجموعها ، وكأن « المحبي » أراد
من خلالها ، تثبيت أصول اللغة العربية ، والتذكير بها ،
منعاً للانحراف عنها ، واللحن فيها ، وحفاظاً عليها من
الدخيل من الألفاظ غير العربية . وهذا اتجاه عربي ،

يلاحظ أن عدداً من معاصري المحبي ، أو الذين سبقوه ، قد درج عليه . وكأن ذلك الاتجاه كان يهدف إلى تنبيه المجتمع العربي ، إلى الخطر الذي يتهدد اللغة العربية ، ولاسيما بعد انتشار اللغتين الفارسية والتركية ، وتسرب بعض الكلمات الأعجمية إلى العربية . وبذلك يكون « المحبي » وزملاؤه ، يمثلون نموذجاً واعياً وفعالاً ، لإحياء قومي عربي ، ابتداءً عبر اللغة والأدب . وتشمل مؤلفات المحبي ذات الطابع اللغوي خمسة كتب ، هي :

- ١ - مايعتول عليه في المضاف والمضاف إليه .

- ٢ - جني الجنتين في تمييز نوعي المثنيين .

- ٣ - الدر المرصوف في الصفة والموصوف .

- ٤ - الناموس (وهو حاشية على القاموس) .

- ٥ - قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل .

ثانياً : المؤلفات الأدبية : لقد كان المحبي ميالاً

للأدب منذ طفولته كما أشرنا إلى ذلك ، وقد رأينا كيف كتب الشعر وهو لما يزل صبيّاً في الثانية عشرة من عمره ، وكيف تابع الشعر والشعراء ، والأدب والأدباء .

وقد عبّر هو نفسه عن تلك الميول الأدبية فقال : « وبعد ،
فلاني لم أزل منذ ألقيت الألواح ، وميّزت بين المصباح
والصباح ، أنفق نقد عمري في تحصيل الأدب ... وكم
أعلام بهم التقيت ، ونجوم بصحبتهم ارتقيت ، حتى
استخرجت من دفائنهم ما كنزوه من ميراث النبوة » (١) ،
وفي الحقيقة ، لقد كان المحبي أديباً وشاعراً ، إلى جانب
كونه مؤرخاً ، أكان ذلك في معرفته الأدبية الغزيرة ،
أم في تدوينه سير معاصريه من الأدباء ، أم في حسه النقدي
الأدبي ، أم في أسلوب كتابته وشعره الرقيق اللطيف .
فلا عجب إذاً ، أن يعطي في ميدان الأدب ، ثماراً جميلة ،
وحلوة المذاق . وله في هذا الباب ستة مؤلفات هي :

١ - الأمالي . ولا يعرف محتواها ، إذ لم يعثر على
نسخة منها .

٢ - حصّة على ديوان المتنبي . وينطبق على هذا
المؤلف ما ذكر في شأن المؤلف السابق .

٤ - نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة . وهو
سفر أدبي ضخم ، قلده فيه « المحبي » كتاب :

(١) نقلاً من مقدمة نفحة الريحانة لعبد الفتاح الحلو . ص ٢١ - ٢٢ .

« ريحانة الألبا » للخفاجي ، بل جعله ذيلاً له . وهو بمثابة كتاب تأريخ لشعراء القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، في البلاد العربية ، والرومية . فقد ضمنه تراجم أبرز شعراء العربية في مصر ، وبلاد الشام ، والبحرين ، واليمن ، والحجاز ، والمغرب ، وبلاد الروم . وهو كتاب محقق ومنشور بأربعة أجزاء ، وسيصدر الخامس .

٥ - ذيل نفحة الريحانة . وقد استدرك فيه المحبي بعض من لم يترجم لهم من الشعراء في النفحة ، إلا أنه توفي قبل أن يكمل تماماً ما أقدم عليه .

٦ - براحة الأرواح ، وجالبة السرور والأفراح . وهو أرجوزة تضم حكماً وأمثالاً .

ثالثاً : المؤلفات التاريخية : كان للمحبي منذ نعومة أظفاره ، ميول واضحة نحو متابعة الأخبار ، مشابهة لميوله الأدبية . وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه « خلاصة الأثر » : « فلاني منذ عرفت اليمين من الشمال ، وميزت بين الرشd والضلال ، لم أزل ولوعاً بمطالعة كتب الأخبار ،

مغرىً بالبحث عن أحوال الكُمَّل الأخيار . وكنت شديد
الحرص على خبر أسمعته ، أو على شعر تفرق شمله .
فأجمعه ، خصوصاً للتأخري أهل الزمن « (١) .

فمن المرتقب إذاً ، وميوله التاريخية بذاك العمق والرواء ،
أن يقدم إنتاجاً خصيباً في هذا الباب ، كما فعل في ميدان
الأدب . ولا سيما أنه عايش أباه أثناء تأليفه لتاريخه .
الذي ذيل به على كتاب « الحسن البوريني » ، وربما
عاونه . وهكذا كان طرح المحبي لكتابه التاريخي الضخم
وهو « خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي
عشر » ، الذي يقدم كتابنا هذا مستلآت منه :

* * *

(١) ج ١ . ص ١ .

المترجم بكتاب « خلاصة الأثر »

إن كتاب « خلاصة الأثر » من كتب « التراجم الطبقية » الكبيرة ، أو بتعبير آخر من كتب « سير الرجال » ، ضمن طبقة محددة ، هي قرن من الزمان . والقرن هنا هو « الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي » . ومدرسة « التراجم » و « الطبقات » في التأليف التاريخي العربي من أقدم المدارس التاريخية ، وأزهاها . وقد قال الدكتور جبور صادقاً في مقدمة كتابه « الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة » للنجم الغزي ، وقد قام بتحقيقه : « لأظن أن هناك أمة أغنى من الأمة العربية في كتب السير ، ولا أظن أن مؤرخي أمة من الأمم ، التفتوا إلى تدوين مشاهير أمتهم ، كما التفت مؤرخو العرب . فمنذ أن بدأ « ابن إسحق » بوضع سيرة النبي ، والواقدي ، وابن

سعد ، في تأليف الطبقات ، وإلى يومنا هذا ، والصبغة
الغالبة في الكتب العربية هي سير الأعلام من الرجال » (١) .
وأكد المؤرخ الانكليزي « غب » بأن « نبوغ العرب الحقيقي
في علم تدوين التاريخ يتجلى في كتابة السير » (٢) .
وقد وصلت « مدرسة التراجم » هذه ، إلى ذروة من ذراها
الرفيعة بمؤلف « وفيات الأعيان » لابن خلكان (المتوفى
سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) . إلا أنها تطورت بعده ، وخرجت
من مضمون الشمول الزمني الواسع ، إلى التحديد في
طبقة ، جعلت على الأغلب قرناً . ف « المحبى » إذأ يتابع في
كتابه ، تقليداً تاريخياً سبقه إليه كثيرون قبله . فهو قد
اختار تراجم القرن الحادي عشر الذي عاش فيه ، كما
فعل « النجم الغزي » قبله (المتوفى عام ١٠٦١ هـ / ١٦٥١ م)
بالقرن العاشر ، والثالث الأول من القرن الحادي عشر ،
فكان كتاباه : « الكواكب السائرة » المشار إليه آنفاً ،

(١) (٣) اجزاء . بيروت - حريصا . ١٩٤٥ - ١٩٥٩ .

ج ١ . ص أ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية . ترجمة جماعة من الأساتذة

المصريين . المجلد الرابع . العدد الثامن ص ٥٣ . بند (تاريخ) .

وذي له « لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر » . وكما فعل قبلهما « السخاوي » (المتوفى عام ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) ، حينما دون كتابه « الضوء اللامع في أهل القرن التاسع » ، و « ابن حجر العسقلاني » (المتوفى عام ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) في مؤلفه « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » .

وقد امتازت « مدرسة التراجم الطبقية » في بلاد الشام بصفة خاصة ، بأن أصحابها لم يترجموا لقطر معين فحسب ، وإنما لأعيان العالم الاسلامي كله . ففي « خلاصة الأثر » إذاً تتجلى النظرة الشمولية المكانية للعالم الاسلامي خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، بأوضح صورها . فقد ترجم المحبي فيه لأبرز الشخصيات الإسلامية التي توفيت بين ١٠٠١ هـ - ١١٠٠ هـ / ١٥٩٢ - ١٦٨٦ م ، من بلاد الهند شرقاً ، وحتى أقصى المغرب غرباً ، محتوياً بالطبع امتداد الوطن العربي ، والدولة العثمانية في آسيا الصغرى وأوروبا . وبذلك قدّم في كتابه المطبوع ، بأربعة أجزاء ، والحاوي على (١٩٨٤) صفحة ، (١٢٨٩) سيرة من سير الأعيان . وقد قسم أعيانه الذين ترجم لهم ، إلى أربع

فئات ، كما يتضح من مقدمة كتابه ، حيث قال : « كنت شديد الحرص على خبر أسمع ، أو على شعر تفرق شمله فأجمعه ، خصوصاً لتأخري أهل الزمن ، المالكين لأزمة الفصاحة واللسان ، من كل ملك تتلى سورة فخره بفم كل زمان ، وأمير لم تبرح صورة ذكره تجلى على ناظر كل مكان ، وإمام لم تنجب الليالي بمثاله ، وأديب تهتز معاطف البلاغة عند سماع فضله وكماله » (١) .

والكتاب قد طبع منذ أكثر من قرن في القاهرة (١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م) وفي المطبعة الوهبية ، بعد أن قام بتحقيقه المبدئي السيد « مصطفى وهبة » ، وأمر بطبعه « محمد باشا عارف » أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر . إلا أنه لا بد من إعادة تحقيقه على النمط العلمي الحديث ، وشرح مختلف نصوصه ، وفهرسته أبجدياً .

ويلاحظ أن « المحبي » قد خصّ فتى « الملوك » ، و « الأمراء » معاً بنسبة ضئيلة من مجموع التراجم في كتابه ، فهي لا تتجاوز (١٢٠) ترجمة من (١٢٨٩) أي بنسبة

(١) ج ١ . ص ٢ .

(٩ ٪) فقط ، بينما كان نصيب العلماء والأدباء ،
النصيب الأوفى وهو ٩١ ٪ ، ويدخل ضمنهم المتصوفة
المختلفون وأعضاء « المؤسسة الدينية » من قضاة ، ومفتين ،
وأئمة مساجد ، ووعاظ ، وغيرهم من العاملين في الجوامع ،
إذ من المفروض مبدئياً ، أن يكون هؤلاء الاعضاء —بالإضافة
إلى عملهم الإداري — من العلماء .

وقد رتب « المحبي » تراجمه على حروف المعجم
« ليسهل لمطالعه ما غم عليه واستعجم » . ويبيّن في مقدمة
الكتاب ، طريقته في الترتيب فقال : « أقدم أولاً الاسم
الذي أوله همزة ممدودة ، ثم ما كان أوله ألفاً ، وأقدم
من ذلك من شاركه أبوه في اسمه ، فاذا تعدد ذلك ،
قدمت الأسبق وفاة . ثم أرجع فأذكر من بعد حرف
الهمزة ، الحروف المعجمة من أولها إلى آخرها ، وأذكر
في كل حرف ما فيه من الاسماء ، مقدماً ما كان في ثاني
الاسم من الحروف المقدمة ، وهكذا أفعل في أسماء الآباء ،
فاذا انتهى من وصلني اسم أبيه ، ذكرت من لم أعرف
اسم أبيه ، مراعيّاً سبق الوفاة » (١) .

(١) المصدر نفسه . ج ١ . ص ٤ .

ويعني الترتيب المعجمي للتراجم ، بتر التسلسل الزمني
والمكاني في السياق التاريخي ، وكذلك الفتوي . فلا «يربط
الترجمة بما سبقها أو يليها سوى أول حرف في الاسم».

فالترجمة الواحدة إذاً هي وحدة متكاملة ، سعي فيها
« المحبي » أن يعرف قارئه بمختلف جوانب الشخصية
التي يترجم لها . فهو يعرف باسمها ، ونسبها (وحتى
الجد السادس والعشرين أحياناً أو أبعد من ذلك بكثير) ، ولقبها ،
والبلد التي تنتمي إليه مولداً ، وإقامة ، وأصالة ، والمذهب
الذي اعتنقته ، وأحياناً الأصل القومي (كردي ،
رومي . أعجمي . إلخ) ، إلا أنه نادراً ما يشير إلى الأصل
العربي ، ولعله عني بذلك أن كل من لم يشر إلى أصله غير
العربي فهو عربي ؛ كما يوضح الطريقة الصوفية التي
تنتسب إليها إذا كانت من السالكين .

ثم يعرف بعملها وصفاتها الجسمانية (إذ اتوافرت لديه) والحلقية ،
والاجتماعية ، والفكرية ، والدينية ، والعلمية ، واهتماماتها .
وإذا كان المترجم له عالماً ، فانه يبين أساتذته ، والعلوم
التي درسها ، والكتب التي طالعها . وإذا كان من الملوك
والأمراء فانه يبين أهم أعماله ، وإذا كان من الأدباء

والشعراء فإنه يقدم نماذج من أدبه نثراً وشعراً . وينتهي الترجمة عادة ببيان تاريخ وفاة الشخص الذي يترجم له ، والمدينة التي توفي فيها ، ومكان دفنه .

ومن ذلك يتضح أن كل « ترجمة » تمثل « تاريخاً شاملاً » للشخصية ، وتعكس مختلف جوانب حياة المجتمع الذي تعيش ضمنه .

ولابد من الإشارة في خاتمة ذلك « الوصف الخارجي » الموجز لكتاب « خلاصة الأثر » ، أن ليس هناك تساوي في كمية المعطيات التي تحتويها « التراجم » . وبتعبير أبسط ، لا تتسق التراجم كلها ، في عدد الصفحات المخصصة لكل واحدة منها . فهناك تراجم لم تعط سوى بضعة أسطر ، بحيث جمعت ثلاث تراجم أو أربع في صفحة واحدة . وهناك تراجم خصت بصفحة كاملة ، أو اثنتين ، أو ثلاث أو أربع . وقد يتجاوز بعضها الصفحات الأربع إلى ثلاث عشرة صفحة ، أو خمس عشرة ، إلا أن عددها محدود . ويبدو أن إطالة المحبي في بعض تراجمه ، أو

اقتضابه في بعضها الآخر ، لا يرتبط دائماً بأهمية المترجم
له ، وقيّمته ، وإنما بمدى توافر المعلومات لديه عنه .
ويلاحظ أن تراجم « الشعراء والأدباء » هي التي أفاض فيها
« المحيي » بصفة خاصة ، إذ ضمّنها كثيراً من شعرهم
ونثرهم .

* * *

اختيار النراجم

وبعد تلك المقدمة الموجزة التي تعرّف « بالمحبي » المؤلف ، وكتابه « خلاصة الأثر » ، نقدم عدداً من « تراجم » ذلك السفر الضخم ، منبهين إلى النقاط التالية :

أولاً : من المستحسن للقارئ العربي دائماً ، إذا ما أراد مطالعة أصل من أصول التراث العربي ، أن يقرأه برمته ، حتى تكون نظرتَه إلى مضمونه ، أكثر شمولاً وعمقاً ، وأقرب إلى الصحة والدقة . ولكن لما كان إنتاج بعض ذلك التراث واسعاً ، ككتاب « خلاصة الأثر » هذا ، مما قد يوهم القارئ بثقله ، فيبتعد عن مطالعته تماماً ، على الرغم من فائدته ، فقد درجت « مديرية إحياء التراث العربي » في وزارة الثقافة والارشاد القومي

مشكورة ، على تقديم مستلآت منه ، ليتعرف القارىء
ببعض مضمونه ، ويكون بمثابة تشويق له ، يتابع
بعده قراءة الكل .

ثانياً : إن أية عملية « انتقاء نصوص » من مؤلف ما ،
عملية عسيرة جداً على المتتقي ، مهما سعى كي يضع
لها من أسس ، تهدف إلى المحافظة على الكتاب ، مضموناً
وروحاً ، ودون أن ياحقه التشويه ، أو الانتقاص ،
أو أي أذى آخر . فقد يخرج بانتقائه عن الغرض الذي تونخاه
صاحب الأصل من مؤلفه ، أو ربما هو نفسه من انتقائه .
وإن اختيار تراجم محدودة ، من مجموع (١٣٠٠)
ترجمة تقريباً ، عملية أكثر صعوبة وتعقيداً : فقد لا ترسم
التراجم المنتقاة ، صورة صحيحة عن هذا المؤلف التاريخي
الضخم ، وقد تضعفه في ذهن القارىء ، وتقلص
من قيمته ، ومع ذلك ، فلا بدّ مما ليس منه بد .

ثالثاً : أسبقت « التراجم المختارة » : « مقدمة » الكتاب ،
وقد شرح فيها المؤلف المضمون العام لكتابه ، وأسباب
تأليفه له ، ومصادره ، وأسلوبه في ترتيبه ، مما يعطي
القارىء فكرة عن بعض منهجيته في العمل .

رابعاً : التزاماً ما أمكن بالموضوعية ، فقد اتخذت بعض الصوى الهادية في بعض عملية اختيار التراجم المطروحة في هذا الكتاب ، وجهدت كي تكون منسجمة ، إلى حد ما ، مع ما أراده المحبي من كتابه ، في الترجمة لأبرز أعيان القرن الحادي عشر الهجري ، من ملوك ، وأمراء ، وعلماء ، وأدباء . ومن ثمّ كانت القاعدة الكبرى في الاختيار ، تقديم (نماذج) من (مختلف الشخصيات) (السياسية والإدارية) ، و (العلمية) ، و (الأدبية) ، بحيث تبرز بمجموعها . — ما أمكن ذلك — بعض أحوال القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد ، وأحداثه ، في نطاق الوطن العربي ، والعالم الاسلامي . ومن ثمّ فقد وزعت تلك الشخصيات على مختلف الأقطار العربية والاسلامية ، وعلى شتى المناصب السياسية ، والعلمية الكبرى ، التي ترجم « المحبي » لأصحابها ، وعلى متنوع الفعاليات التي اشتهرت بها بعض تلك الشخصيات ، ما أستطيع إلى ذلك سبيلاً . وتمشياً مع تلك القاعدة الأساسية ، وحفظاً لفكر القارئ ورؤيته من التشتت ، فقد صنفت « التراجم المختارة » ضمن مجموعتين رئيسيتين ، على أن

تخص كل مجموعة بجزء من هذا الكتاب . والمجموعتان هما :
الأولى : وتضم تراجم بعض العاملين في الحقل السياسي
والاداري .

الثانية : وتحتوي تراجم بعض الناشطين في ميدان
الفكر والثقافة .

خامساً : لقد توخى في عملية تقديم تلك « التراجم
المختارة » . أن ترتب تراجم الشخصيات ضمن المجموعة
الواحدة ، الترتيب الأبجدي الذي رتبها المحيي به مع
الاحتفاظ بكامل الترجمة دون انتقاص ، أمانة منا للمؤلف
والمؤلف ؛ هذا مع بيان موقع الترجمة من مجموع الكتاب ،
جزءاً وصفحة .

سادساً : لقد سعي ، في مدخل كل مجموعة من
تينك المجموعتين من التراجم ، لطرح موجز لما يمكن أن
يستخلص من معلومات من « مجموع تراجم الكتاب » ،
توضح بعض الأحوال المختلفة التي كان عليها المجتمع
العربي ، والاسلامي ، وشتى نشاطاتها ، السياسية ،
والاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية ، والفنية ، كي
تبين للقارئ قيمة هذا السفر التاريخي الثمين ، وما يلقيه

من أضواء على تاريخ القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد، وفي الوقت ذاته، كي توجه فكره في مسارات مجدية ، نحو فهم ذلك العصر ، من خلال التراجم المتفرقة، وموازنة تلك الصور المطروحة مع صور عصور أخرى ، ومع الحاضر . وبذلك يستمتع القارئ بقراءتها ، ويفهم مغزاها .

وقد اصطلح على طرح ما يستفاد عن أحوال المجتمع « السياسية » ، و « الاقتصادية » ، و « الاجتماعية » ، في مدخل « المجموعة الأولى » ، وما يستخلص من معلومات عن أحواله « الفكرية » و « الفنية » في مقدمة « المجموعة الثانية » . هذا مع التأكيد مرة أخرى ، بأن تلك المستخلصات من المعلومات ، قد استقيت من « مجموع التراجم » ، دون تمييز بين « السياسية والإدارية » منها ، أو « العلمية » أو « الأدبية » ، أو « الصوفية » .

* * *

المدخل الى تراجم اعلام السياسة والادارة

إن ما وضعناه تحت عنوان « التراجم السياسية والإدارية » ،
يتضمن في الواقع ، تراجم زمرتين من الشخصيات :
الزمرة الأولى : وتحتوي تراجم بعض الشخصيات
التي أدرجها « المحيي » في فئتي « الملوك » و « الأمراء »
من الفئات الأربع للأعيان ، الذين ترجم لهم .
الزمرة الثانية : وتتضمن تراجم بعض أعضاء « المؤسسة
الدينية » ، من مفتين ، وقضاة ، ووعاظ ، وأئمة مساجد ،
وعاملين آخرين فيها . وهذه الزمرة الثانية تدخل في ذهن
المحيي ، ضمن فئة « العلماء » على الرغم من عملها

الإداري ، وأثرها السياسي : فمن المفروض ألا يصل إلى تلك المناصب إلا من درس العلوم الدينية ، وتفقه فيها ، وتخرج من المدارس التي أوجدها السلاطين العثمانيون لهذه الغاية ، أو من اعترف بعلمه ودراساته في مدارس أخرى . ولذا ، أمانة منا لفكر المؤرخ « المحببي » ، فقد ميّزناها عن « الزمرة الأولى » ، يجعلها زمرة قائمة بذاتها ، وبفصلها عن الأولى .

محتوى الزمرة الأولى من التراجم :

لقد أشير سابقاً ، عند التعريف الموجز ، بكتاب « خلاصة الأثر » ، أن عدد « التراجم السياسية والادارية » (الزمرة الأولى) فيه ، قليل نسبياً ، فهي لا تتجاوز ٩ ٪ من مجموع التراجم . إلا أنها مع قلتها ، ملونة تلويناً كبيراً ، وتتضمن شتى النوعيات من الشخصيات السياسية في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد ؛ وهذا ينسجم مع تشعب فكر المحببي ، وغزارة معلوماته ، ونظراته المكانية ، الشمولية الواسعة ، لعالم عصره ، التي لم تتحدد بقطره « بلاد الشام » ، أو بالأقطار المجاورة فحسب ، وإنما بكل سعة امتداد العالم الاسلامي . فقد

انطلقت دائرة إحاطته بفئة « الملوك والسلاطين » من أقصى الهند شرقاً . حيث ترجم لبعض سلاطينها وأمرائها ، إلى أقصى المغرب العربي ، حيث طرح سيرة سلطانين من سلاطينها الكبار ، إلى أقصى الجنوب في اليمن حيث قدم عدة تراجم لأئمتها من الزيديين . فإلى الزاوية الشمالية الغربية من العالم الاسلامي ، حيث تحدث عن سبعة سلاطين من بني عثمان ، وانعطف شرقاً فترجم لشاه من شاهات الفرس الصفويين . ولسلطان بلاد كيلان . وقد كان المحبي في إحاطته تلك ، حرّ الرأي وموضوعياً ، إذ تجاوز حسن صلات دولته العثمانية الحاكمة مع أولئك الملوك والسلاطين والأئمة ، أو سوءها . فمن المعروف مثلاً أن العلاقات بين « الدولة العثمانية » ، و « الدولة الصفوية » في إيران ، كانت دائمة التوتر ، وأن الحرب ضروس ، وشبه مستمرة ، بين الأئمة الزيديين في اليمن وتلك الدولة ، أثناء جزء كبير من التمرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي .

وإذا كانت تلك هي ألوان « فئة » الملوك والسلاطين ، فإن فئة « الأمراء » كانت أغزر لوناً : فإلى جانب التنوع

المكاني، والزمني (ضمن القرن الحادي عشر الهجري) في
الأمراء — الملاحظ سالفاً في فئة الملوك — فقد قدم أصنافاً
متعددة منهم . فهناك :

أولاً : أمراء تابعون للدولة العثمانية الحاكمة .

وبعضهم ، وإن لم يتخذ لقب الأمير رسمياً ، فإن له عمل
الأمير . ومن هؤلاء وزراء الدولة وصدورها العظمى ،
وولاياتها في الولايات العربية، وبصفة خاصة ، في دمشق ،
وحلب ، ومصر ، واليمن ، وبغداد ، وغزة ، وطرابلس
وغيرها .

ثانياً : أمراء محليون في البلاد العربية ، حكموا مناطقهم
ببعض الاستقلال الذاتي . ومن هؤلاء « أشراف مكة » ،
وبعض أمراء المناطق في بلاد الشام ، من أمثال « الأمير
أحمد بن طرباي الحارثي » أمير اللجون ، و « فخر الدين
المعني » أمير الشوف ، و « علي باشا جنبلات » أمير كلّس ،
فحلب ، وآل « سيفا » في طرابلس ، و « بنو الحرفوش »
في بعلبك ، و « بنو الأعوج » في حماة ، وأمراء من الأعراب
البدو .

ثالثاً : عدد من رجال السياسة ، ممن مارس عملاً إدارياً سياسياً لصالح الدولة أو مضاداً لها ، كـ بعض الأجناد الانكشارية ، من أمثال كيوان في دمشق ، وخذاوردي وغيرهم .

ومثلما توخى « المحببي » في انتقائه لتراجم الملوك والسلاطين ، الموضوعية ، وحرية الفكر ، فإنه فعل ، في اختياره لتراجم الأمراء ، ورجال الادارة والسياسة . فقد تحدث عن الامراء التابعين والموالين للدولة ، وفي الوقت ذاته عن المتمردين على سلطتها ، والثائرين ؛ بروح واقعية ، وعقلانية .

بعض المعلومات المستقاة عن الأحوال السياسية :

وإذا ما سئل « خلاصة الأثر » عن مجموع الأحوال السياسية في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، فإنه لا يعطي في الواقع ، عبر تراجمه ، صورة كاملة ، وجاهزة ، كما يمكن أن يقدمها مؤرخ معاصر لتلك الأحوال : بسياقها الزمني المتسلسل ، وترابطها المنطقي ، وتماسكها السببي . فالأحداث تبدو ، ضمن التراجم المنتشرة على

طول الكتاب ، أحداثاً متناثرة ، ومبعثرة ، ولا رابطة بينها . إن « الترتيب الأبجدي » للتراجم ، حطّم صلة الزمن والتواصل بين الوقائع بالنسبة للقارئ ، ولاسيما العادي منه . إلا أن تلك التراجم ، وبصفة خاصة « السياسية » ، و « السياسية العلمية » (كتراجم المفتين والقضاة مثلاً) ، تتعرض لقضايا سياسية كثيرة ، خطت مجراها في ذلك القرن ، ويمكن للباحث أن يتعرفها ، ويأخذ منها مايبني بعض جوانب التاريخ السياسي لتلك الحقبة ، بناءً متيناً . ولاسيما أن مؤلف « خلاصة الأثر » قد عايش تلك القضايا ، أو عايش أصحابها ، أو استقاها ممن عاصروها . ويبدو أنه كان ملاحظاً دقيقاً بصفته شاهد عيان . وناقداً محصّياً ، وباحثاً محققاً ، بصفته مؤرخاً .

وفي الحقيقة ، من العسير تقديم تلخيص ، يحتوي جميع ما طرحه المحيي من أمور سياسية في تلك التراجم ، لأنها خصيبة جداً بتفاصيلها . وواسعة الامتداد في الزمان والمكان . إلا أنه يمكن فقط تثبيت بعض خطوط هداية ، قد ترسم بعض ملامح الصورة السياسية للعالم الاسلامي ، والوطن العربي آنذاك ، وقد تكون الخطوط المرسومة

أثخن وأبرز بالنسبة للوطن العربي وبلاد الشام . وأهم
هذه الخطوط هي :

أولاً : لقد كان العالم الاسلامي منقسماً من الناحية
السياسية إلى عدة دول : ففي أقصى الشرق تقوم دويلات
هندية اسلامية . كدولة الدكن ، وحيدر آباد ، وبيجافور
وغيرها إلى جانب وجود « ملك أكبر » للهند من المسلمين ،
(ويقصد المحيي سلالة بابر التيموري الذي أقام امبراطورية
إسلامية في الهند) . وعلى رأس تلك الدويلات الهندية .
أمراء مسلمون . يشجعون العلم ، والعلماء العرب المسلمين ،
الوافدين إليهم . وبصفة خاصة من اليمن ، وحضرموت .
وإلى غرب الهند ، تقوم بلاد العجم (أي إيران) ،
وحكامها من الصفويين الشيعة ، وقد تمكنوا في الربع
الأول من القرن السابع عشر ، وفي عهد « الشاه عباس »
من إعادة سيادتهم على بغداد ، بعد أن كان السلطان « سليمان
القانوني » قد انتزعها منهم عام ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م .
إلا أن الدولة العثمانية في عهد سلطانها « مراد الرابع »
(١٠٣٣ - ١٠٥٠ هـ / ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م) استطاعت
أن تسترد المدينة العربية ، وتحتوي مرة أخرى العراق كلها .

وفي غربي بلاد العجم ، وشمالها الغربي ، تمتد
« الدولة العثمانية » ، وقد بسطت سيادتها على البلاد العربية
كلها ، في المشرق والمغرب ، ماعدا المغرب الأقصى ،
الذي احتفظ باستقلاله ، تحت سيادة سلاطينه من « الشرفاء
الحسنين » أولاً ، فالعلويين ، وماعدا بعض الأطراف
الشرقية ، والجنوبية من شبه الجزيرة العربية . كما امتدت
في أوربا حتى هنغاريا ، وفي البحر المتوسط حتى الجزائر ،
كما استولت على كريت .

ويبدو ذلك العالم الاسلامي ، كما قدمه « المحيي » ،
وعلى الرغم من تمزقه السياسي ، يعيش ضمن تواصل
حضاري إسلامي ، وصلات علمية . تجعله يبدو موحداً
حضارياً . بل ويمد « المحيي » ذلك التواصل ، الحضاري .
العربي الإسلامي ، في ذلك القرن ، حتى « جاوه » .
حيث كانت تأتي أسئلة دينية منها إلى المشرق ، وحتى
« تنبكت » جنوبي الصحراء الأفريقية الكبرى .

إن تلك الملامح العامة لصورة « العالم الاسلامي » ،
كما يمكن استنتاجها من « خلاصة الأثر » ، قد تكون
صحيحة في خطوطها الكبرى . إلا أن التفاصيل ، ولاسيما

عن بلاد الهند ، وفارس ، وبلاد المغرب الأقصى ، ناقصة ،
وغير واضحة ، ومع ذلك تبقى مصدراً معاصراً . قابلاً
للتقيد ، والموازنة مع المصادر الأخرى .

ثانياً : إذا كانت المعطيات عن الأوضاع السياسية
في البقاع السالفة الذكر مهتزة . لبعد « المحبي » عن مسرح
الأحداث . وعدم توافر المصادر الكافية لديه . فان تراجمه
المحيطة بحياة الدولة العثمانية . من تراجم للسلطين .
والرزاء ، والولاة ، بل والقضاة وغيرهم من موظفي المؤسسات
الإدارية والدينية ، ترسم مجموعة من الصور الحية والواقعية
عن تلك الدولة . وأحوالها ، ولاسيما أن « المحبي » . قد عاش
لفترة من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ،
في المركز وفي لبها . ومن ثمّ . فإن القارئ . والباحث ،
يخرج منها بتعارف سطحي ، أو عميق مع الأمور الآتية :

آ - النظم السياسية التي كانت تحكم الدولة في

المركز : كوجود سلطان على رأسها ، وإلى جانبه الوزير
الأعظم (الصدر الأعظم . وهو بمثابة رئيس للوزراء) .
وإلى جوارهما : « مؤسسة إدارية » غنية بالاختصاصات
المختلفة ، وبصفة خاصة منها ، المالية . والعسكرية ،

و « مؤسسة دينية » لها نظمها . ومراتبها . واختصاصاتها .

ب - النظم السياسية التي كانت تحكم الامبراطورية :
كتقسيمها إلى ولايات في آسيا ، وأخرى في أوروبا ،
وأفريقيا . والهيئة الحاكمة في كل ولاية من « بكاربكي »
(باشا) (أو أمير الامراء ، أو الكافل ، أو المحافظ ،
كما يعرّب المحبي التسمية) ، وكتخدا (نائب الوالي) ،
والدفتردار (القابض على الشؤون المالية) ، وآغا العسكر
(ويسميه المحبي رئيس الجند ، وضابط الجند) ، وأنواع
العسكر من ينكجيرية مشاة (ويعرّب المحبي التسمية ويطلق
عليهم أحياناً اسم « الجند الجديد » ، وسباهية (فرسان) . . .
هذا إلى اشارات سريعة عن الإقطاع في بعض الولايات
(التيمار ، والزعامة) ، وعن الضرائب المفروضة كالعوارض
السلطانية ، والمكوس ، والعشور وغيرها . وفي الأسطر
المحدودة التالية ، المقتطفة على سبيل المثال فقط ، من
ترجمة وزير من وزراء الدولة العثمانية هو « حسن باشا

الشهير بيمشجي » (١) . يمكن أن يلاحظ بوضوح ،
مايمكن أن تقدمه تراجم المحبي من تعارف مع مؤسسات
الدولة السياسية :

« كان أحد الوزراء (٢) في عهد السلطان محمد بن

(١) ج ٢ . ص ٧٢ .

(٢) لقد كان الوزير هو مساعد السلطان ، على نمط ماكان
عليه الأمر في الخلافة العباسية ، وفي دول اسلامية أخرى . إلا أن الدولة
العثمانية جعلت « الوزارة » رتبة ولقباً ، يغدقها السلطان على معاونيه المقربين
إليه . وقد ارتفع عدد الوزراء في السلطنة العثمانية ، في القرن العاشر الهجري /
السادس عشر الميلادي إلى تسعة وزراء . كان يطلق على المعاون الأول للسلطان
تمييزاً له عن الآخرين ، لقب « الوزير الأعظم » ، أو « الصدر الأعظم » .
وقد أنقص عدد الوزراء في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري /
السابع عشر للميلاد ، إلى أربعة أو خمسة فقط . وكانوا يسمون بحسب
ترتيبهم (الوزير الثاني) ، (الثالث) ، (الرابع) . الخ .

وكان عدد من الولاة « يحمل رتبة وزير » . ويلاحظ أن « المحبي » ،
عند حديثه عن بعض الولاة ، يوضح فيما إذا كان الوالي يحمل تلك الرتبة
أم لا . فيشير إلى بعضهم « بالوزير » بينما لا يفعل ذلك مع آخرين .

مراد . وكان في مبدئه من جماعة السلطان في الداخل (١) ،
ثم خرج ضابطاً للجند الجديد (٢) ، وعزل ، ثم أعيد .

(١) كانت « سراي السلطان » أو مقر إقامته وعمله ، مقسمة إلى
ثلاثة أقسام :

قسم الحريم حيث تقيم نساؤه وجواريه ، ولهذا القسم غلمانه وخدمه .
وقسم الداخل أو الجناح الخاص الذي يصفوفيه السلطان نفسه ، ولأموره .
الخاصة ، بعيداً عن الحريم ، وأعمال الدولة المباشرة . ولهذا القسم أيضاً
خدامه من « الغلمان » البيض ، والسود وكانوا يربون تربية خاصة .
وعلى رأسهم كان « آغا باب السعادة » . والقسم الثالث هو قسم الخارج
وفيه يتم اتصال السلطان بشؤون الدولة ، وله موظفوه والعاملون فيه .
وهم على احتكاك مباشر مع قادة الجند ، وموظفي الدولة المختلفين .
ويطلق على كبار العاملين فيه ، لقب « أغوات الركاب الهمايوني » .
وتقع (قاعة العرش) ، أو قاعة استقبال السلطان بين « قسم الداخل »
و « الخارج » .

(٢) أي « الانكشارية » . وهي فرق المشاة في الجيش العثماني .
وأصل هذه الفرق من عبيد السلطان « قابي قولاري » ، الذين حصل عليهم
إما من الأسر في حربه مع أوربا المسيحية ، أو عن طريق الجمع من فتيان
الرعايا النصراني في ولاياته في البلقان . وكانوا يربون تربية خاصة ،
في مدارس أعدت لهذا الغرض . وقد استطاعت عناصرهم أن تقبض على
معظم مناصب الدولة حتى الصدارة العظمى . وقد فسد نظامهم . الذي كان
يضرِب المثل بادئته وصرامته ، وتفاقم تمردهم على السلطة في العاصمة .

ثم أعطي حكومة شروان (١) ، ثم عزل ، وصار وزيراً رابعاً ، وأعطى التفتيش على السكة الجديدة (٢) والأموال ، في شهر ربيع الأول ، سنة تسع بعد الألف ، فشكرت خدمته ، / فصار قائم مقام (٣) الوزير ، في شهر شعبان من هذه السنة ، ثم أعطي ختم (٤) الوزارة العظمى ، في سادس عشر سنة عشرة وألف .

== في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، وعلى الولاة في الولايات ، وغدوا عنصر شغب ، وفوضى ، وفساد في الدولة ، بعد أن كانوا دعامة قوتها وعنفوانها ، وعاملاً أساسياً في توسعها . وظل أمرهم يزداد سوءاً ، حتى قضى عليهم السلطان « محمود الثاني » في عام ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٦ م .

(١) مقاطعة على الساحل الشمالي الغربي لبحر قزوين . وقد انتزعتها الدولة العثمانية من الدولة الصفوية في إيران .

(٢) أي النقود المسكوكة جديداً .

(٣) القائم مقام بالنسبة للوزير ، هو الذي كان يحل محل الصدر الأعظم اثناء غيابه . ويتمتع في فترة نيابته بكل سلطات الصدر الأعظم ، ساعداً الاشراف على المنطقة التي تجري فيها العمليات العسكرية التي يقودها الصدر الأعظم بنفسه .

(٤) كان السلطان يفوض سلطاته للوزير الأعظم ، بمنحه خاتم توقيعه ، الذي كانت تمهر به جميع الوثائق الهامة . وفي حالة اعفائه من منصبه ، فانه كان يطلب إليه رده .

ج - تفصيلات عن سياسة السلاطين العثمانيين الذين حكموا خلال القسم الأعظم من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وحياتهم، مما يرسم بعض معالم السياسة العثمانية ، الداخلية والخارجية . وقد ترجم « المحببي » لسبعة منهم (١) فقط، أما السلطانان الثامن والتاسع ، اللذان شغلا بقية القرن وهما « محمد الرابع » (١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ / ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م) و « سليمان الثالث » (١٠٩٩ - ١١٠٣ هـ / ١٦٨٧ - ١٦٩١ م) فإنه لم يتطرق لترجمتهما. إلا أنه أشار إلى السلطان الثامن ، وهو « محمد الرابع » - الذي عاصره المحببي - خلال ترجمته لبعض وزرائه كـ « محمد الكوبرلي » ، و « مصطفى باشا المرزيفوني ». وإذا كان سبب عدم ترجمته للسلطان سليمان الثاني واضحاً ، وهو عدم وفاته في القرن الحادي عشر ، فإن سبب انصرافه عن ترجمة « محمد الرابع » يبقى مبهماً . ولعل تأخر وفاته إلى ما بعد تدوين المحببي لكتابه ، عام ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م ، عاملٌ في هذه الثغرة .

(١) السلاطين السبعة بحسب تواليهم على العرش هم « مراد الثالث » ، و « محمد الثالث » ، و « أحمد الأول » ، و « مصطفى الأول » ، و « عثمان الثاني » ، و « مراد الرابع » ، و « إبراهيم الأول » .

د — دقائق كثيرة عن الأحوال الداخلية المتدهورة
للدولة العثمانية : كانحطاط مختلف مؤسساتها الادارية ؛
وانتشار بيع المناصب ، ولغير أهلها ؛ وفساد الجيش ،
بانكشاريته ، وسباهيته (١) ، وثوراته المتوالية في العاصمة ،
حتى غدا السلطان ألعبوبة في يده : فهو الذي يعين من يراه
من السلاطين ، ويعزل ويقتل من ينقم عليه منهم ؛ هذا
إلى بروز نفوذ كبار موظفي السراي ، وبصفة خاصة المشرفين
على قسم الحريم (القزلار آغاسي أو ضابط الحرم كما
يسميه المحبي) ، الذين أخذوا هم الآخرون يتدخلون
في خلع السلاطين وتعيينهم . كما حدث مع السلطان
« مصطفى الأول » .

ولا يكتفي « المحبي » ، أثناء عرضه لتراجمه السياسية ،
بمجرد سرد الأحداث ، بل يعلق هنا وهناك ، مضمناً
تعليقاته أسباب ذلك التدهور تارة ، وتنبؤاته بالمستقبل

(١) هم المحاربون من « الفرسان » . وكانوا يتقاضون مقابل
خدماتهم العسكرية ، اقطاعات أرضية ، تتناسب إيراداتها مع رتبهم ،
على خلاف الانكشارية ، الذين يتقاضون على خدماتهم أجوراً نقدية ،
وعينية .

تارة أخرى . ويلاحظ في تحليله للأمور نظرات سديدة
ولاسيما في الأمور التي عاصرها ، وعابنها بنفسه . فقد
رد اختلال الأوضاع في الدولة إلى « تهاون رؤسائها في
نظم الأمور على نسق يرضي الجمهور » « فكثرت الأغراض ،
وبدلت الجواهر بالأغراض ، وتغيرت الدول ، وذهبت
الناس الأول . وقامت الفتن على ساق ، وانتصب الحلاف ،
وارتفع الوفاق ، وتقوّت ضعاف الدولة ، وأظهروا
العتو والصولة ، فكانوا في آرائهم ناظرين إلى ورائهم .
وبهذا السبب . كان يولى الوزير أياماً ، فلا يرى هدواً
ولا راحة . ولا إن كان مناماً ، ثم يقتل ، أو يعزل ،
أو ينهب . أو يسلب ، إلى أن طغت طائفة من العبيد اللثام ،
داخل حرم السلطان من الخدام » (١) .

ومن تعليقاته المتنبهة بانهيار الدولة ، قوله ، في حرص
السلطان على تزيين عاصمته ، إثر انتصار أحرزه في حرب
مع ملك « المسقو » (الروس) ، وكان « المحبي » موجوداً
آنذاك في « استامبول » : « فشرعوا في التزيين . . . وكنت
الفقير إذ ذاك بقسطنطينية وشاهدتها ، وأنا متحقق من غير

(١) ج ٢ : ص ٣٠٩ - ٣١٠ . ترجمة (محمد باشا الكوبري) .

شك يخامرني ، أنها لم تصدر في زمان ، ولم يبق شيء
من دواعي الطرب إلا صرفت إليه الهمم ، واستغرقت
الناس في اللذة والسرور . . . وفشت المناهي ، وقصر
فيها المحذر الناهي . وعلمت العقلاء أن مثل هذا الأمر
كان غلطاً ، وأن ارتكابه جرم عظيم وخطأ ؛ وما أحسب
ذلك ، إلا نهاية نهضة السلطنة ، وخاتمة كتاب السعادة
والميمنة ، ثم طراً الانحطاط ، وشواهد النقصان ، وتبدل
الربح بعدها بالخسران » (١) .

وكأن « المحبي » أراد أن يدعم نظراته السياسية
التحليلية في انهيار الدولة العثمانية ، بما أكده مفكرون
أتراك عثمانيون معاصرون ، فساق تلخيصه لكتاب
« واقعتنا » التركي الذي دونه « المولى أويس » ، سلطان
الشعراء الأتراك — كما يعرفه « المحبي » — ، والذي
يمثل نقداً للسلطنة العثمانية ، وبياناً بأسباب ضعفها ، وبعض
ومضات في الفكر السياسي لتلك الحقبة . ويروي « المحبي »
ماورد في ذلك الكتاب ، فيقول : « حاصل تأليفه ، أنه
(أي أويس صاحبه) رتب رؤيا ، وأبرزها في هذا القالب ،

(١) ج ٤ . ص ٣٩٨ . ترجمة (مصطفى باشا المزيافوني) .

وذلك في عهد السلطان أحمد، في حدود سنة سبع عشرة وألف . وكان أمر الدولة إذ ذاك في غاية الاضمحلال . قال : لما لاحظت الحوادث في عالم الكون والفساد ، كنت أتمنى لو كلمت السلطان في هذا الشأن بلا واسطة ، حتى طرقي النوم في أثناء هذه الفكرة . فرأيت جماعة ، كل منهم في ناصيته نور السعادة لامع ، وشعاع الاقبال في وجهه ، فنزلوا في بستان ، وكل منهم استقر على كرسي ، وبقيت أنا مع الخدم . فناداني المتأمر منهم ، وأجاسني . فسألت عنه ، فقل لي إنه الاسكندر ذو القرنين ، والذين حولهم هم ملوك آل عثمان الماضين . ثم أقبل موكب حافل ، وأسفر عن السلطان أحمد ، فجاء وجلس على سرير مقابل الاسكندر . وأخذ هو والاسكندر في المكالمة . فكان تارة يتكلم . وذاك ينصت ، وتارة ينصت وذاك يتكلم . حتى ابتدر الاسكندر وقال : إن السلطان قلَّبُ العالم ، فاذا لم يكن القلَّبُ معتدل الأحوال ، انحرف العالم عن حد الاعتدال ؛ والعدل والرشاد مادة السداد ، والرحمة والانصاف سبب جمعية الرعايا ، والجور والاعتساف باعث تفريق البرايا . فتأوه السلطان ثم قال :

أيها السلطان الأعظم ، كلامك حق معلوم ، أما اعتدال القلب فموجود ، وأما الجور فغير مجهود . وذلك لأن السلطنة لم تسلم لنا إلا بعد خراب الدنيا ، فإنه من عهد جدي المرحوم السلطان « مراد الثالث » قد ارتكبت مكروهات لا يحيد عنها ، وذلك بسبب التصميم على قلع شجرة الرفض والإلحاد ، فاقتضى الأمر تعيين العساكر التي لانهاية لها ، ولزم ذلك إعطاء المناصب العلية ، والمراتب السنية ، لغير أهلها . ولزم من ذهاب العساكر وإيائها في كل سنة ، تكاليف الرعايا ، ووقع بينهم وبين العساكر . وربما أدت مخاصمة اللسان إلى محاكمة السيف والسنان ، فوقع بذلك الخراب « (١) » .

هـ — معطيات كثيرة عن السياسة الخارجية للدولة العثمانية وحروبها في أوروبا : مع الانكروس (الهنغار) ، ومع المسقو (الروس) ، ومع النمجة (النمسا) ، ومع كريت . وفي الشرق : مع العجم . ويفصل « المحبي » أثناء حديثه عن تلك الحروب ، ضمن التراجم ، مجريات المعارك ، والفرق المشتركة في القتال ، وأحياناً أنواع

(١) ج ١ . ص ٤٢٦ - ٤٢٧ . ترجمة (المولى أويس) .

الأسلحة ، ولاسيما المستجد منها ، كـ « اللغم » مثلاً ،
الذي أثار المؤلف ، فشرحه شرحاً دقيقاً (١) .

ومن المعلومات السياسية الهامة أيضاً ، التي يمكن استنباطها
من « خلاصة الأثر » بالإضافة إلى السابقة :

ثالثاً : معطيات غزيرة عن الأحوال السياسية ،
في عديد من ولايات الدولة العثمانية ، وبصفة خاصة
« العربية المشرقية » منها . كسياسة بعض الولاة ، والقضاة ،
وموظفي الدولة الآخرين ، والفرق العسكرية فيها ،
وموقف الشعب منها ، وموقفها من الشعب ، وعلاقاتها
فيما بينها . ويسلط « المحيي » أضواء قوية على الأوضاع
في بلاد الشام والحجاز ، واليمن ، ويتمحدث طويلاً ،
مستفيداً من مصادر من سبقه من المؤرخين ، كـ « النجم
الغزي » ، و « البوريني » ، عن فساد « الانكشارية » ،
وتسلطهم على البلاد ، وعن رؤسائهم من « الطغاة »
كـ « كيوان » ، و « خداوردي » وغيرهما ، وعلاقتهم
المؤذية بالأهالي ، والولاة ، والقضاة ، والفتن المتولدة
من تحركاتهم ، وما فعلوه في حلب بصفة خاصة ، وبدمشق

(١) ج ١ . ص ١٥ - ١٦ . ترجمة (السلطان ابراهيم) .

في عدة مناسبات . كما يبرز ظلم الولاة للأهالي في بلاد الشام ، والبحور عليهم بالضرائب ، والمصادرات . ويقدم معلومات وافية عن ثورات الامراء المحليين ، كفخر الدين المعني ، وعلي جنبلاط .

ويتوغل في تلايف صراع الأشراف في الحجاز مع الوالي العثماني ، وصراعاتهم فيما بينهم ، وكذلك في صراع أئمة اليمن مع الدولة العثمانية وولاتها ، واستقلالهم عنها ، إلى غير ذلك من قضايا سياسية داخلية ، شغلت المشرق العربي آنذاك .

ويلاحظ أن كتاب « خلاصة الأثر » قد خُصّ بلاد الشام ، واليمن ، والحجاز ، بالقسط الأوفى من المعطيات السياسية ، بينما اقتضرت معلوماته عن بلاد المغرب التابعة للدولة العثمانية ، على صور صغيرة وسريعة ، وكذلك الأمر بالنسبة لمصر .

رابعاً : القيم السياسية السائدة في مجتمع تلك الحقبة . فمن تلك القيم السياسية المطلوبة من الحاكم مثلاً . السير سيرة الأئمة الهادين : من تفقد الضعفاء ، وتأمين السبل ، والأسفار . والاشتغال بأمور الرعايا ، ومطالعة

كتب العلم والأدب ، وحب العلماء ، والتمسك بالسنة النبوية ، وحسن الاعتقاد ، والجود ، والكرم ، ومعاشرة أرباب الفضائل . وبالنسبة لسلطين بني عثمان معرفة اللغة العربية .

ومن القيم السياسية المذمومة في الوالي مثلاً ، القهر للرعية، والمكر ، والظلم ، وأخذ المال من غير حق ، والتفريق بينها ، وتهاونه في نظم الأمور على نسق يرضي الشعب . . إلى غير ذلك من قيم كثيرة ، تعجب بها التراجم .
خامساً : صور بعض الوثائق السياسية . والموجود منها ، مع ندرته مفيد ، كصورة الفرمان المرسل إلى أحد أشرف مكة بتولية الدولة له (١) . وفحوى رسالة ملك المجر إلى الوزير الأعظم مصطفى باشا (٢) وغيرها .

سادساً : تسقط تراجم « خلاصة الأثر » أضواء كاشفة بصفة خاصة على أعضاء المؤسسة الدينية، وهم الزمرة الثانية من التراجم المقدمة في هذا الجزء من الكتاب . ومنهم القضاة . « فالمحبي » يخصصهم بقسط كبير من تراجمه،

(١) ج ١ . ص ١٣٢ . ترجمة (الشريف أبوطالب) .

(٢) ح ٤ . ص ٤٠٢ . ترجمة (مصطفى باشا المرزيفوني) .

ويعطي فيها معلومات وافية عن مجموع نظام القضاء (١) في الدولة العثمانية ، ومناصبه ، ومراتبه : من نائب قاض ، إلى

(١) ائقء كان « القضاء الاسلامي » في العهد العثماني منظماً تنظيمياً دقيقاً ، وله مراتب يتسلسل ضمنها القضاء . فالرأس الأعلى فيه هو « شيخ الاسلام » أو « المفتي الكبير » ، يليه « قاضيان العسكر » ، أحدهما للأناضول والثاني للرومي (بلاد أوربا العثمانية) . ودون الاثنين عدد من كبار القضاء ، يحملون لقب « ملا » أو « مولى » . وكان منهم في انحاء الامبراطورية العثمانية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد ، (٤٣) ملا ، مصنفين بدورهم إلى مجموعات . وكانت المدينتان المقدستان مكة والمدينة ، وكذلك دمشق والقاهرة وبغداد ، من المدن الكبرى التي من نصيبها « ملا » . وينضوي تحت جناحي قاضي العسكر ، القضاء الكبير (الملا) ، والقضاة العاديون . وكان المسؤول عن قضاة الولايات العثمانية في آسيا ومصر ، قاضي عسكر الأناضول ، بينما المسؤول عن قضاة الولايات العثمانية في أوربا ، وشمال أفريقيا . قاضي عسكر الرومي . وكان جميع القضاء العثمانيين من الأحناف ، لأن « المذهب الحنفي » هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية . وكانوا لا يصلون إلى مناصبهم عادة ، إلا بعد دراسة أصولية في مدارس السلطان « سليمان القانوني » ذات الدرجات الاثنتي عشرة . وقد جرى العرف في الولايات العربية ، حيث هناك عناصر من السكان على المذاهب السنية الثلاثة الأخرى (المالكي ، والشافعي ، والحنبلي) أن يعين (نواب) للقاضي العثماني ، في كل مدينة كبيرة ، على المذاهب السنية الأربعة ، =

قاضٍ ، إلى ملاّ (قاض كبير) ، إلى قاضي عسكر ،
فشيخ الإسلام ؛ وكيفية الوصول إليها ، والحلال الذي
قد يحدث في التعيين لها ، وتنقلات القضاة بين مختلف
مدن الامبراطورية ، ومدى نراحتهم وعملهم ، ومدى
تعرضهم للرشوة ، وممارستهم للجور ، وتهاونهم في عملهم ،
وثورة الرعية عليهم إذا ما فعلوا ؛ ويشير إلى القضايا الكبرى التي
حكموا فيها ؛ ولباسهم ، وبعض من عاداتهم ؛ وعلاقاتهم

= ليقموا القضاء في المحاكم الموزعة في المدينة ، وكان منها في دمشق خمس
محاكم . وكان يؤخذ (نواب القضاة) غير الأروام ، من علماء
البلاد المحليين ، وفقهاءها ، في معظم الأحوال . وإذا ما غاب القاضي
العثماني ، الذي كان بمثابة « قاضي قضاة » لسبب ما ، كذهاب الحج ،
أو مرض ، أو انقطاع عن العمل ، بسبب عزله وعدم استلام آخر القضاء
مكانه ، فإنه كان يحل محله « نائب » له ، ويطلق على عمله « النيابة الكبرى » .
وقد يكون من كبار العلماء المحليين الأحناف ، كما كان شأن والده
جد المحبي . وعندما ضعف شأن الدولة العثمانية ، أصبح « قاضي القضاة »
العثماني نفسه ، يعين نائباً دائماً له ، ولا سيما إذا ما أقعده المرض ،
أو حطت من قواه الشيخوخة ، على أن يتقاسم معه واردات القضاء .
وكانت الدولة تتقاضى ثمناً لمنصب القضاء ، بعد أن عم مبدأ بيع
المناصب ، يختلف باختلاف مستوى المرتبة القضائية . كما كان القاضي
يجمع من المتقاضين لديه مالا ، وينسب محددة ، وهي أشبه بالرسوم .

مع الحكام ، وصلة هؤلاء بهم : احتراماً أو تعالياً ،
إهمالاً أو تهاوناً ؛ ومكانتهم العامة بالنسبة إليهم : كتقدمهم
عليهم ، أو تقدم هؤلاء عليهم . ومدى استماع الحكام
لنصائحهم ، وانكاراتهم عليهم ، أو تخطيتها ؛ وأخيراً
دورهم الهام وسيطاً بين الحكام والرعية ؛ وصلاتهم مع
العلماء ، والمتصوفة ، وبصفة خاصة العلماء المحليين
في البلاد العربية ؛ وأجورهم في العمل ، وما يدفعونه
ثمناً لوظائفهم .

سابعاً : ومثلما تلقي تراجم « خلاصة الأثر » تلك
الأنوار الكاشفة على القضاء وتفرعاته ، فإنها تطرح أنواراً
مماثلة على « الإفتاء » .

فتوضح الدور الديني والسياسي « للمفتي الكبير »
في الدولة (شيخ الاسلام) ، وأحوال المفتين الأحناف
المعنيين من الدولة ، والمفتين المحليين في البلاد العربية ،
من أحناف ، وحنابلة ، وشافعيين ، ومالكيين ، وشيعة
زيديين في اليمن .

وكذلك تعمل مع « نقابة الأشراف » في المدن العربية ،

وبصفة خاصة في بلاد الشام ، « ونقابة الأشراف الكبرى »
في القسطنطينية .

وتعرض هنا وهناك ، إلى عدد من العناصر الأخرى
في المؤسسة الدينية ، كالقراء وأئمة المساجد ، والوعاظ ،
والمؤذنين ، ومتولي الأوقاف ونظارهم ؛ والأوقاف
ونوعيتها ، وتوزيعها على المساجد ، والمدارس ، والزوايا ،
والحرمين الشريفين ، وغيرها .

بعض الأمور الاجتماعية المستفادة من تراجم « خلاصة
الأثر » :

إذا كانت المعطيات السياسية السابقة ، وهي معطيات
وفيرة وهامة ، يمكن استخلاصها من تراجم سيفر « خلاصة
الأثر » ، فإن مايمكن استنباطه من معلومات عن الأحوال
الاجتماعية ، في العالم الاسلامي ، والوطن العربي ،
وبصفة خاصة بلاد الشام ، تعتبر وثائق أكثر أهمية ،
لضالة مانملك من معلومات في هذا المجال ، خلال الحقبة
التي يؤرخ لها « المحبي » ، ولمعاصرة « المحبي » لكثير
منها ، وصادقه ، بل عفويته ، في إيرادها .

إن تراجم « المحبي » ، تبرز عن غير قصد منه ،

أموراً اجتماعية كثيرة ، مبعثرة هنا وهناك . وأولها
الفئات الاجتماعية : يتضح لقارىء مجموع كتاب « المحبي »
أن المجتمع الذي يتحدث عنه هو « المجتمع
الاسلامي » فحسب ، أكان في العالم الاسلامي عموماً
أو في البلاد العربية . وبتعبير آخر ، إنه لا يترجم لأحد
من أهل الذمة ، من نصارى أو يهود . وإن كان هناك
بعض إشارات طفيفة ، وغير مباشرة للنصارى في الشام .
وهذا « المجتمع الاسلامي » كان منقسماً إلى فئتين
متمايزتين : فئة الحكام التي يترجم « المحبي » لرؤوسها
— كما أسلفنا سابقاً القول — ، وفئة المحكومين . ويلاحظ
أن العلاقة بينهما متراوح ، بين وئام وسلام ، إذا ما طبقت مفهومات
القيم الاسلامية السياسية ، والاجتماعية ، من عدل ومساواة ،
وتسامح ، وحرص على مصلحة مجموع الناس ، الاقتصادية ،
والاجتماعية من قبل الحكام ؛ أو حرب وصراع إذا
سعت الطبقة الحاكمة نحو مصلحتها الخاصة ، ولا سيما
المادية ، على حساب مصلحة المجموع . ويشعر القارىء ،
من خلال التراجم الواردة في خلاصة الأثر ، أن تلك
العلاقة في البلاد العربية ، وبصفة خاصة في بلاد الشام ،

كانت علاقة متوترة ، وهناك عدم رضا بل ونقمة من
الفئة المحكومة تجاه الفئة الحاكمة .

والفئة الحاكمة في البلاد العربية ، ولاسيما في البلاد
التي أبرزها « المحبي » ، كبلاد الشام ، والحجاز ،
واليمن ، كانت تنقسم بدورها إلى فئتين : فهناك السلطة
الحاكمة العثمانية ، وسلطة الأمراء المحليين . و « السلطة
الحاكمة العثمانية » كانت هي الأخرى فئتين رئيسيتين :
فهناك الوالي وحاشيته وموظفوه المختلفون ، وهناك الجيش
ممثلاً بصفة خاصة بالحاميات الانكشارية . ويمكن تلخيص
العلاقات بين مجموع الفئات الحاكمة من ناحية ، والرعية
المحكومة من ناحية أخرى ، بأنها علاقات خاضعة ،
بصفة خاصة ، للعلاقات بين الفئات الحاكمة فيما بينها .
فالفئة المحكومة سلبية على العموم ، تراقب وتتلقى نتائج
تلك العلاقات . فقد كانت الصلات بين الفئات الحاكمة ،
في الواقع ، صلات صراع بين مراكز القوى : فهي
تتحالف أو تتقاتل بحسب اختلال التوازن بينها . وفي
مجملها كانت علاقات حرب ، تفرض كل وبها الاقتصادي ،
والاجتماعي ، على الفئة المحكومة ، من زيادة في الضرائب ،

ومصادرات ، واجتياح للأرض الزراعية ، وقتل ، ونهب ، وما يتبعها من هجرة عن المدن أو عن القرى حتى إن بعض الأخيرة اندثر ، وما يلحق ذلك من تشريد وبؤس . وعلى الرغم من بعض تقارب اجتماعي بين عناصر من الفئة الحاكمة العثمانية ، وعناصر من الفئة المحكومة العربية الإسلامية ، عبر الزواج مثلاً ، ولاسيما بين الانكشارية وأهل البلاد ، أو سعي الفئة الحاكمة لتعلم اللغة العربية ، لغة الإسلام وأهل البلاد ، بل وإتقانها ، وإجادتها أحياناً ، وسعي الفئة المثقفة العربية بالتالي ، لتعلم اللغة التركية ، فإن العلاقة بين الطرفين ، كانت تبدو فاترة ورسمية . بل إن مفهوم التمايز القومي بين « العربي » و « الرومي » كان قائماً في نفوس العرب والأتراك على السواء ، بل ونامياً .

وإذا كانت تراجم « خلاصة الأثر » تقدم معطيات غنية عن علاقات الفئتين : الحاكمة والمحكومة ، تدخل في واقعها في الحيزين الاجتماعي والسياسي معاً ، فإنها تستطيع أيضاً أن تعطي ، إذا ما استقرئت ، واستحلبت ، معلومات عن فئات المجتمع العربي المسلم نفسه في بلاد

الشام ، ولكنها تتراوح بين الوفرة والقلّة ، بحسب الفئة :
فالمعلومات عن فئة « العلماء » ، وهي الفئة التي عاش
وسطها المحبي ، وترجم لها عن سعة ، معلومات غزيرة ،
ولذلك فإنه يرسم صورة واضحة وحيّة ، وبكثير من التفاصيل
عنها ، وسنشير إلى ما يمكن الاستفادة منها ، فيما يطرحه
المحبي من معطيات فكرية في كتابه (في الجزء الثاني من
هذا الكتاب) .

أما فئات (الحرفيين) ، و (التجار) ، و (الفلاحين) .
فتبقى المعلومات عنها قليلة ، ولكن « التراجم » لاتعدم
إشارات عابرة ، هنا وهناك ، عن تنظيم الحرفيين في
رابطة تحت إمرة « شيخ المشايخ » . أو « سلطان الحرافيش » (١)

(١) إن لفظة « حرفوش » وجمعها « حرافيش » لفظة عامية ،
أطلقت في العهد المملوكي على مجموعة من « الشحاذين المحترفين » في بعض
المدن الكبرى كالقاهرة ودمشق ، ولبعض الفترات في حمص وحماه
وحلب . ويبدو أنه كان هؤلاء نوع من النقابة ، على رأسها كبيرهم ،
ويحمل لقب « سلطان الحرافيش » . وكانت طبقة « الحرافيش » طبقة
دنيا في المجتمع المملوكي ، إلا أن السلاطين كانوا يخشون بأسها ، لأنها
كانت مستعدة للثورة والنهب ، وكانوا يوزعون أعضائها ، اثناء المجاعات ،
بين كبار الأمراء ، والخاصة ، لا طعامهم واكتفاء شرهم ، كما كانوا =

كما كان يطلق عليه قديماً ، وعن نظرة العلماء المتدنية إلى أصحاب الحرف ، وعن جمع بعض الحرفيين أحياناً

= يستخدمونهم أحياناً لتحقيق أغراضهم. وقد ظهر منصب «سلطان الخرافيش» لأول مرة حوالي نهاية القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي. وبقي قائماً حتى نهاية حكم المماليك . وهو مسؤول لدى الدولة عن جماعته ، وأعمالها ، ومواقفها نجاحها . وفي الواقع لا تعرف العلاقة بين « الخرافيش» والتنظيمات الحرفية ، والفرق الصوفية الشعبية ، ولا كيف أعطي « لشيخ مشايخ» الحرف هذا لقب « سلطان الخرافيش» ، ولكن لا بد أن رابطة ما كانت قائمة . ولعل دخول بعض الحرفيين المفلسين ضمن جماعة « الخرافيش» التي كانت تتألف من فلا حين فقراء ، وشحاذين محترفين ، قد قاد إلى ذلك الترابط . ويبدو أن « جماعة الخرافيش» كانت تشبه جماعة « الاحداث» ، وجماعة « العيارين» قبلهم ، و « الزعر» ، التي تشاهد في مدن حلب ، وبغداد ، ودمشق وغيرها . ولعل كلمة « حرفوش» العامة هي قلب لكلمة « حرشف» ، وتعني الضمقاء في الأصل .

أما « شيخ المشايخ» ، أو « رئيس الحرفيين» ، فعمله كما عرفه « المحبي» : « هو الذي يعقد الشد والعهد لأهل الصنائع .» ويبدو أن تسميته بـ « سلطان الخرافيش» قد زالت منذ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بدليل إشارة الغزي «، قبل «المحبي» ، إلى أن تلك التسمية قديمة . (النجم الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر . ترجمة محمد بن عجلان . رقم الترجمة في مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق . (١٣) ، وورقة (١٧١ ب) . ونقل عنه « المحبي» في ترجمة الشخصية ذاتها . ج ٤ ص ١٤٥) .

بين مهنهم والعلم ، وعن غنى بعض التجار ، وتوفيقهم
بين عملهم والاشتغال بالعلم ، أو الشعر ، وعن الحركة
التجارية في العالم الاسلامي آنذاك بإشارة التراجم
إلى تنقل التجار بين أنحاء مختلفة منه . وتبين تلك التراجم
أيضاً صلات التجار بالعلماء ، وأوقافهم لصالح المساجد
والمدارس .

أما « الفلاحون » ، ففي تراجم « خلاصة الأثر » ،
لمحات عن سوء أحوالهم ، وأثر الانكشارية بالذات في
ذلك السوء ، ولاسيما في قرى حلب ، ودمشق ، حيث
عمل هؤلاء على نهب المحاصيل ، وحرق القرى . يضاف
إلى هذا اضطرابهم للاستدانة بالربا ، واستغلال بعض
المرابين لهذا الأمر . وهناك إشارات أيضاً ، إلى انتشار
التصوف العامي ، وحلقات الذكر بينهم .

وإذا كانت « تراجم خلاصة الأثر » لاتلقي أضواء
على الفئات الدينية كأوضاع « أهل الذمة » مثلاً ، فإن
« المحبي » نخص « الدروز » بترجمة خاصة ، شرح فيها
معتقداتهم ، وعاداتهم ، كما أنه ألمح في أكثر من مناسبة
إلى الشيعة ، وبعض علمائهم ، وآرائهم ، وملاحقة

السلطة العثمانية لهم ، بل إنه أكد في كتابه ، تصنيفه -
العلماء ، بحسب مذاهبهم السنية : المالكي ، والحنفي ،
والشافعي ، والحنبلي .

وإذا ما سئل عن مدى تعرض كتاب « خلاصة الأثر »
لطبقة « العبيد » - وكانت موجودة آنذاك ، لأن الرق
لما يُسْلَغ ، وأسواق النخاسة ما فتئت نشيطة - فإنه يلاحظ
أن الكتاب ، قد أحاط بها فئة قائمة بذاتها ، ولها دورها
السياسي ، عند حديثه عن الأشراف في الحجاز ، وعن
الأمراء في الهند . أما في البقاع الأخرى ، فليس هناك
سوى إشارات سريعة ، إلى وجود فردي لبعض العبيد ،
والاماء ، وتملك الأشخاص لهم أو عتقهم .

وبالإضافة إلى ما ذكر آنفاً ، عن بعض ما يقدمه
كتاب « خلاصة الأثر » من معلومات عن الفئات الاجتماعية ،
في مجموع المجتمع الاسلامي والعربي ، والشامي بصفة
خاصة ، في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، فإن

تراجمه تتعرض ، هنا وهناك ، إلى « الاقطاع العثماني » (١) ،
وتعرف ببعض فئاته ، وبعض المتمتعين به .

ويتطرق « المحبي » في تراجمه . بين آونة وأخرى ،
إلى حياة «الموسرين» ، من بناء للقصور ، وإقامة للحدائق ،
واقثناء البساتين ؛ ولحياة « الفقراء » أيضاً ، وضنك عيشهم .
وإلى « الخاصة » من المتعلمين الموسرين . وإلى « العامة »
أو العوام الجاهلين ، وهم على الأغلب من « طبقة »
« الكسبة » المتوسطي الحال ، أو الفقراء .

ولا يغفل « المحبي » عن نمطي الحياة الرئيسيين السائدين

(١) قسم العثمانيون الاقطاع إلى قسمين رئيسيين :

١ - الاقطاع الخاص ، ويضم ممتلكات التاج ويطلق عليه (الخواص
الهمايوني) ، وما يقطعه السلطان لأفراد الأسرة المالكة حتى النساء منها ،
وما ينحصر لبعض المناصب الادارية كالوزراء ، والولاة ، وبكوات
السناجق (الألوية) . ويتجاوز دخل هذا الاقطاع سنوياً (١٠٠,٠٠٠ أقبجة)
(الأقبجة عملة فضية وكانت تعادل في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي
نصف درهم تقريباً ، إلا أن قيمتها انخفضت في آخره ، وفيما بعد) .

٢ - « الزعامة » ، و « التيمار » . ويعطيان للفرسان السباهيين كل
بحسب رتبته . والزعامة يعطي دخلاً يتراوح بين (٢٠,٠٠٠ - ١٠٠,٠٠٠)
أقبجة ، بينما التيمار (٢,٠٠٠ - ٢٠,٠٠٠) أقبجة .

في المجتمع العربي . وهما : حياة الحضر في المدن والقرى ،
وحياة البدو الرحّل أو « الأعراب » . فترجم لزعماء
بعض الأعراب ، وبيّن تناحرهم فيما بينهم ، وتحركات
قبائلهم في هذه الحقبة ، وبعض عاداتهم ، وتعرضهم
لنهب القوافل . ولاسيما قوافل الحجيج .

ثانياً : ومثلما كانت تراجم « خلاصة الأثر » ،
قادرة إذا ما استحلبت ، على طرح أضواء على بعض فئات
المجتمع ، فإنه يمكن استنتاج بعض حقائق عن الأسرة
العربية المسلمة منها ، في هذه المرحلة من التاريخ . فهناك
« الكنى » التي تجمع الأسرة ، ويسمى « المحبي » إلى تحليل
أسباب إطلاقها على الأسر . كقوله مثلاً : بيت الجوهري
« سموا كذلك لأن جدّهم البعيد عندما وفد إلى دمشق
حمل معه جواهر ومعادن » ، وسمي « آل الكواكبي »
بجلب بهذا الاسم ، لأن جدّهم « كان في مبدأ أمره حداداً
يعمل المسامير الكواكبية » ، ولقب « آل المنلا » بهذا
اللقب ، لأن جدّهم « كان يعرف « بمنلا حاجي » وكان
قاضي قضاة تبريز » ، إلى غير ذلك من أسماء وشروح .
كما هناك لمحات عن التزاوج بين الروم والعرب ؛

وعلاقات أفراد الأسرة ببعضهم ، ولاسيما الآباء بالابناء .
والأبناء بالآباء ، والأخوة ببعضهم بعضاً ، والعوامل التي
كانت تتحكم بتلك العلاقات من قيم وظروف طارئة ،
ويضاف إلى ذلك ما يستنتج من سريان عادة التسري بالإماء ،
وكثرة الولد ، وما يمكن أن يستفاد عن عادات الزواج ،
وموجبات الطلاق .

ومن الأمور المستفادة أيضاً ، حرص كثير من الأسر
الرفيعة المقام اجتماعياً ، على إثبات نسبها لآل الرسول
محمد (ص) ، وانتمائها من ثم إلى طبقة الاشراف ،
وكأنها بذلك تود تأكيد عروبتها ، بالاضافة إلى مايمكن
أن تنتفع منه من امتيازات مادية ومعنوية . كانت تتمتع
بها هذه الطبقة .

ويلمح القارئ في كتاب « خلاصة الأثر » المفهوم
الاجتماعي المتماسك للأسرة العربية ، وبصفة خاصة
في بلاد الشام ، بحيث تبدو وحدة متكاملة ، لها سماتها
التي توارثتها عبر الأجيال ، كالثراء ، أو العلم ، أو
الاثنين معاً . وفي هذا المجال ، يتحدث « المحبي » عن
عديد من تلك الأسر ، التي أطلق عليها اسم « البيت » ،

ويتتبع تاريخها البعيد ، وعوامل شهرتها . كبنى الكواكبي
في حلب ، وبنى سعد الدين في دمشق ، وآل الصمادي
فيها ، وبنى الأهدل في اليمن ، والطبريين في مكة ،
وبنى الحصني . وبنى الأكرم في دمشق ، وغيرهم .
ومع أن « المحبي » . لا يترجم لأية امرأة ، علماً بأن
سلفه « المؤرخ النجم الغزي » قد فعل في كتابه « الكواكب
السائرة » ، وكذلك الحنبلي ، في كتابه « در الحبيب » ،
فإنه لا يغفل الإشارة إلى بعض النساء البرزات في ثنايا
تراجمه للرجال . « كبدية الزمان » قريبتة ، التي يصفها
قائلاً ، بأنها « كانت من العلم ، والمعرفة ، ونظم الشعر
في محل سام ، وأنها اشتغلت على جده القاضي « محب
الدين » ، وأخذت عنه الفقه والعربية ، وقرأ عليها ابنها
وأخوه » كما تحدث عن امرأة من بني سيف ، كانت
تعرف الشعر حق المعرفة ، وأن ابنة الطبيب المصري
« أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ » قد تولت
مشيخة الطب بعد أبيها ، بدار الشفاء المنصوري في مصر .
وأبرز أيضاً دور والددة الأمير « فخر الدين المعني الثاني »
في الدفاع عن ابنها لدى الوالي العثماني « أحمد حافظ

باشا » ، وفي تأديتها المال ، كي تصفح الدولة عنه .
وكذلك فعل ، عندما أوضح موقف زوج الأمير « مدلج »
أحد امراء العرب ، من منافس زوجها على الإمارة .
وأكد دور والده السلطان في السياسة ، وجهود الأميرات
العثمانيات في تشجيع العلم ، وبناء المدارس ، واغداق
العطايا على أفاضل العلماء ، وأثر ملكة الكرج في حرب
الدولة العثمانية ، إلى غير ذلك من أمور تخص المرأة ، والأم .
ثالثاً : تتعرض تراجم « خلاصة الأثر » إلى كثير
من العلاقات الاجتماعية بين الفئات المختلفة في المجتمع ،
كعلاقة العلماء فيما بينهم ، وكذلك الأدباء والشعراء ،
والعلاقة المتبادلة بين فئة العلماء والشعب ، وفئة المتصوفة
والشعب .

وضمن تلك العلاقات الاجتماعية ، يتحدث «المحبي»
في عديد من تراجمه عن علاقة شاذة ، ومقيدة ، كانت
— على ما يبدو — متفشية في مجتمع ذلك الوقت ، وهي
« حب الرجال للغلمان » . ولا يبدو « المحبي » شاجباً
للناحية الجمالية البحتة فيها ، إذ يذكر دون حرج ،
غزل الشعراء بالغلمان ، وقصصهم معهم ، إلا أنه عندما

تتحول إلى علاقة فحش ، فإنه ككل المجتمع آنذاك ،
يبدى استياءه ونفوره منها ، وإدانته لها .

رابعاً : تتضح من خلال التراجم أيضاً بعض أنواع
من ملابس تلك المرحلة التاريخية ، كملابس الأروام
والعرب ، وملابس القضاة الخاصة ، والمادة التي كانت تصنع
منها . كقوله مثلاً : « يلبس ثوباً من الليف البرلسي ،
مع أكمام كتان رفيع — وله تاسومتان » ؛ أو « كان
يلبس الثياب الواسعة ، والعمامة الكبيرة على طريقة
ابناء العرب » ؛ وكذلك بعض ملابس الأشراف ، وبعض
ملابس النساء ، والطبقات الدنيا . فحول ملابس الأشراف
مثلاً قال عن أحدهم بأنه كان « يلبس العمامة الكبيرة
الخضراء ، والثياب المتسعة بالأكمام الطويلة الذيل » ؛
وأشار إلى البرقع والحمار بالنسبة للمرأة ، ووصف لباس
بعض الزهاد ، فذكر مثلاً بأنه كان « يلبس الثياب الخشنة
كالعباءة ، والقميص من الخام . » إلى غير ذلك من أنواع
الملابس .

خامساً : لا تخلو تراجم « خلاصة الأثر » أيضاً ، من
إشارات كثيرة إلى أنواع الأطعمة المعروفة في ذلك العصر .

والمشروبات . كقوله مثلاً عن السلطان العثماني « مصطفى » :
« وأما أكله ، فإنه لم يأكل الزفر مطلقاً ، وإنما كان يأكل
الكعك الناشف ، واللوز ، والبندق ، وأنواع الفواكه . . . »
وكقوله عن طعام الناس خلال حصار الوالي « نصوح
باشا » لمدينة حلب : « وأعظم من في البلدة يجد أكل البصل
والحل من أحسن الأطعمة ، وكان بعضهم يأخذ الشمع
الشحمي ، ويضعه في طعام الارز والبرغل » . وعن طعام
الحيوانات قال : « وكان العساكر لا يجدون التبن بل يأخذون
الحصر وينقعونها في الماء ، ويقطعونها ، ويطعمونها للخيول
بدلاً عن التبن . . . » ، ويشير « المحبي » فوق ذلك ،
إلى تأليف بعض الأدباء رسالة في أنواع الأطعمة وكيفية
طبخها ، مما يمكن أن يفصح — إذا ما وجدت تلك الرسالة —
عن نشاط اجتماعي أسري ، لا يعرف كثير عنه ، وفي
الوقت ذاته ، عن مستوى القيمة الغذائية لطعام ذلك العصر ،
وبعض من اقتصاد المنزل .

ومثلما يتبين القارئ بعض أنواع الأطعمة في ذلك
العصر ، فإنه يتعرف بعدد من المشروبات . فهناك شرب
« قهوة البن » ، وقد دخلت المجتمع منذ القرن العاشر الهجري /

السادس عشر الميلادي، حتى أصبح للقهوة بيوتها. وهناك انتشار
شرب الحمرة، وتغزل الشعراء بها على نطاق واسع على
الرغم من منع الدين الاسلامي لها؛ وسعي الدولة للوقوف
في وجه ذلك الانتشار. وهناك أيضاً تفشي تعاطي
المكيّفات بأنواعها: كالأفيون، والحشيش، والبرش (١).
ويبدو أن انكباب الناس على المادة الأخيرة كان كبيراً
بدرجة قول الشاعر المؤرخ «الحسن البيروني»: :

عمّ البلاءُ بأكلِ البرشِ فانتفعتُ
مخايلُ الناسِ في خلقٍ واخلقِ
ولو تصور هذا الدهرُ في رجلٍ
لأبصرته الورى في زي درياقِ
وكقول بعض الشعراء فيه أيضاً :

تبدل عن البرش المبلد بالطلا
فعالمُ أهلِ البرشِ غمرٌ وجاهلُ
فما البرش ان فتشت عن كنهه سوى
دويبيةٍ تصفرُّ منها الأناملُ

(١) تركيب مخدر كالأفيون وقد أفاد «جعفر الحسني»
عندما سئل عنه، بأن الصيادين كانوا يمزجونه مع الطعام، ويقدمونه
لطيور لتخديرها وصيدها.

ويذكر « المحبي » آثاره الصحية السيئة ، كإصابة صاحبه بالسوداء ، واختلاط العقل ، والاستغراق في النعاس ، والسرد ، وغير ذلك .

ويشير « محمد الأمين » ضمن تراجمه أيضاً ، إلى انتشار « تدخين التبغ » ، وقد بدأ ظهوره في البلاد العربية ، خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي . وبين موقف علماء ذلك القرن منه ، من محمل له ومحرم ، كما حدث . عند ظهور القهوة قبله . وفي ذلك يقول في اثناء حديثه عن إحدى الشخصيات اليمنية : « وكان شديد الانكار على من يشرب التبغ ، واعتنى بازالته من تلك الديار ، فتم له ، ونودي في الأسواق . وصنف له الشيخ « محمد . علان المكي » في حرمة مصنفين ، وتبعه بعض الحنفية . في تحريمه . والذي أفتى به الشيخ عبد العزيز الزمزمي ، والشيخ عبدالله بن سعيد باقشير من شافعية الحجاز ، عدم الحرمة إلا لمن حصل له به ضرر . قلت : وظهور التنبك المسمى بالتبغ ، وبالتن ، بجهة الغرب ، والحجاز ، واليمن ، وحضرموت ، كان في اثني عشرة ألف ، كما وجدته بخط بعض المكيين ، وتاريخه (بغى) .

وأما ظهوره في بلادنا الشامية ، فلا أتيقنه . لكنه قريب
من هذا التاريخ » .

ويشير كذلك إلى تحمس الشعراء له ، ووصفهم له
بشعر جميل ، كقول « أبي المواهب البكري » فيه مثلاً :

هاتِ اسقني التبغَ ان تبغي الصفا سَحَرَا
حتى أُخدِّرَ منه وهوَ إغشاءُ
واستحلَّ انوارَ شمعٍ من يدي رشاً
قد زانه قامةٌ بالحسن هيفاءُ
بدرٌ غدا كو كبُ الإسعاد في يدهِ
طوعاً له ، فهو ماضي الامر نهاءُ
ساقٍ لنا قلبه قاسٍ وكيف دنا
من لين عطفيه والاضدادُ اعداءُ
لعلَّ نارَ أسيَّ بالبعد قد وقدتُ
يوماً يكونُ لها بالقربِ اطفاءُ
فاملاً كؤوسٍ رحيقٍ كالحرقيقِ فقد
أغنتك إذ وصفت باللفظِ صهباءُ
ودعْ ملامَ طيبٍ عابها سفهاً
وداوني بالتي كانت هي الداءُ

وفي الواقع ، يبدو من تراجم « المحيي » في « خلاصة
الأثر » ، أن « التبغ » وتدخينه غدا غرضاً من أغراض
الوصف الشعري ، وللشعراء فيه مطارحات لطيفة ،
منها على سبيل المثال ، ما قاله « الشهاب الخفاجي » ،
وما رد به عليه « محمد نقيب الأشراف » في دار السلطنة .
فقد قال الخفاجي له :

إذا شربَ الدخانُ فلا تَلَمُّنا

وجد بالعنوياروض الأمانى

تريدُ مهذباً من غير ذنبٍ

وهل عودٌ يفوحُ بلا دُخانٍ

وأجابه « نقيب الأشراف » :

إذا شربَ الدخانُ فلا تلمني

على لومي لابناء الزمانِ

أريد مهذباً من غير ذنبٍ

كريح المسك فاح بلا دخانٍ

ويظهر أن السلطات العثمانية أقلقها انتشار هذا المشروب
الجديد فأصدرت أمراً بمنعه ، إلا أن الناس لم ينفكوا عنه .

سادساً : ومن الأمور الاجتماعية التي يتعرض لها كتاب « خلاصة الأثر » أيضاً ، النكبات التي كانت تصيب البلاد بين آونة وأخرى ، نتيجة ظروف طبيعية قاسية : كهطول ثلوج شديدة ، وأمطار غزيرة ، وما ينجم عنها من سيول مدمرة . كإشارته مثلاً إلى عام ثمان وتسعين وتسعمائة ، وما وقع فيه في دمشق من « ثلوج عظيمة دامت نحو أربعين يوماً ، وسقط منها بيوت كثيرة على أقوام هلكوا تحت الردم » . وإلى البرد والسيول التي حدثت في المدينة المنورة ، والطائف ، ومكة في عام ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٦ م ؛ وإلى ما كان يصيب البلاد ، من جفاف . وقحط ، ومجاعة وطاعون وأوبئة ، وما يرافق ذلك من غلاء الأسعار . ومن آثار مختلفة في حياة الناس ، اقتصادية واجتماعية . ومن بعض الأمثلة على ذلك ، ما ذكره عن القحط في بلاد اليمن عام ١٠٢٩ هـ / ١٦١٩ م ، وعن غلاء الأسعار في مكة ، وبلاد الشام ، وتكرره عبر السنين . ومن جملة ما قاله . - وهذا يعطي صورة حية من صور الوضع الاقتصادي والاجتماعي - : « وفي هذا القرن ، يضرب المثل بالغلاء الواقع بمكة في سنة تسع بعد الألف . ونهاية ما وصل فيه

الاردب المصري إلى ثمانية عشرة ديناراً . على ماسمعناه
من الثقات الشاهدين المذك . قلت : فتكون الغرارة
الشامية على هذا باثنين وسبعين ديناراً ؛ فإن الاردب المصري
ربع الغرارة الشامية . ولم يستمر الغلاء إلا نحو ثلاثة أشهر .
وفيه أكل الناس من لحوم الكلاب والبسس . . . والفقراء
كانوا يأخذون دم الشاة ، ويجعلونه في اناء على النار ثم
يستعملونه . ثم وقع بعد عام تسع غلاء متعدد ، منه الغلاء
الذي ذكرناه . ثم في سنة سبع وثلاثين ، وقع غلاء عظيم ،
واستمر متزايداً إلى سنة ثمان ، فبيعت الكيلة الدخن في
هذا العام بأحد عشر محلقاً ، ثم وقع في عام تأليف هذا الكتاب
(أي ١٠٩٥ هـ - ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٣ م) غلاء أضرم في
الافئدة نيران الاشتعال ، وأعمى بصائر الناس من التفرغ
للاشتغال . واستمر أشهراً عديدة . وفي الغالب ، إنما
يكون في أنواع الحبوب ، وقد يقع في السمن وغيره
من أنواع المأكولات .

ومن النكبات الاجتماعية التي يحيط بها كتاب
« خلاصة الأثر » أيضاً ، الحرائق . كحريق في حلب ،
ودمشق ، واستامبول ؛ وما يحيط على البلاد من بلاء

الجراد ، وييسن كيف كان يسعى الأهالي لمكافحته ،
بطرقهم التي ألفوها ، كاستحضارهم ما كان يسمى
بطير السمرمر ، ويضاف إلى ذلك ما كان يصيب الأهالي
بين آونة وأخرى من أوبئة كاسحة كالطاعون .

ويدخل ضمن تلك الزمرة من المصائب الاجتماعية
العامّة ، الأمراض المنتشرة آنذاك . ويلاحظ أن التراجع
تحتوي إشارات كثيرة ، إلى أمراض أصابت أصحابها ،
أو أمراض توفوا بها ، ومن تلك الأمراض ، على سبيل
المثال : الاسهال ، والاستسقاء ، والصداع ، والمراقيا ،
واليرقان الأسود ، وغيرها .

سابعاً : وبالإضافة إلى كل ما أشير سالفاً من أمور
اجتماعية ، فإنه يمكن تتبع كثير من العادات الاجتماعية
المختلفة : كالعادات الجارية عند الوفاة ، أو الاحتفالات
عند ميلاد الطفل ، وختانه ، وعند الزواج وفي بعض
الأعياد .

كما يمكن تعرف بعض الألعاب التي كانوا يمارسونها
للتسلية ، كلعب الشطرنج مثلاً . أو للكسب غير المشروع

كألعاب القمار . ويبدو أن القمار كان يمارس علناً في دمشق بمحلة تحت القلعة .

بل استطاع عبر تراجم « خلاصة الأثر » ، تعرف بعض أنواع العقوبات الجسدية وغيرها، المطبقة من قبل الدولة . كحبس الدم، والحازوق، والحرق بالنار، والقتل بالسلاح، والصلب ، وقطع الأيدي ، ودمغ الوجه بالنار ، والتشهير بإركاب المذنب حماراً ، والتطواف به في شوارع المدينة إلى غير ذلك من أمور .

ثامناً : ومثلما هي تراجم « المحيي » غنية بالقيم السياسية للعصر ، فإنها ثرية بالقيم الاجتماعية والأخلاقية . فكل ترجمة تتضمن في صلبها الكثير منها ، مما ينسجم مع كل شخصية ونوعية عملها . فكتاب « خلاصة الأثر » ، على الرغم من تأكيد صاحبه في مقدمته ، إلى أنه كان يبحث عن « أخبار الكمل الأخبار » ، فإنه كتاب يحوي كثيراً من النقد الاجتماعي لرجال عصره ، وفي الوقت ذاته ، يتضمن مادة دسمة لدراسة القيم الاجتماعية السائدة . فمن الصفات الاجتماعية والحلقية الممدوحة ، التي يصف بها إحدى الشخصيات ، على سبيل المثال فقط .

قوله : « كان ملازماً للعبادة والاستفادة ، مترفعاً عن الدنيا وأهلها ، لا يتردد إلى أحد إلا في خير . . . سمح النفس ، حسن الصفات ، شريف الطباع . . . كان مع ما اجتمع فيه من المهابة شديد البسط ، كثير الدعابة والتغزل ، وطرح التسمت . . . مليح الحديث لا يمل وإن طال » . أو قوله عن شخصية أخرى : « كان متصلباً في أمر الدين ، قوالاً بالحق ، لاتأخذه في الله لومة لائم » ؛ وعن الثالثة : « يحنو على الأيتام ، وحضن كثيراً منهم ، ممن لا ولي له ، ونمى أموالهم » . ومن الصفات المموجة على سبيل المثال فقط - وهي بالطبع كل تلك التي لاتنسجم مع الأخلاق والأعراف العربية الاسلامية - ما ذكره عن أحد الرجال بقوله : « بذيء اللسان ، قليل التدبير ، ليس عنده شيء ممتنع » ، وعن آخر « يشرب الخمر ، ويلبس لبوس النصارى » . ومن الأوصاف الاجتماعية النقدية الساخرة التي تبناها « المحبي » ، نقلاً عن النجم الغزي ، قوله في أحد الرجال : « وكان يلبس عمامة كبيرة مكورة ، وله عرج وقصر ، وهو مع ذلك يتبختر ، ويتخذ غلاماً أمرد من أبناء الناس يمشي خلفه ،

وربما يلتفت ويخاطبه في الطريق ، وكل منهما يرفل في
زيئته . وكان يعرف التركية ، إذا تكلم بها تبجح
لإزراء بابناء العرب وهو ليس إلا منهم . وكانت فضيلته
جزئية ، إلا أن جرائته كالية » .

ولعل كتابي « النجم الغزي » اللذين يشير اليهما
« المحبي » - ويتضمن « خلاصة الأثر » بعض مقتطفات
صغيرة منهما - يعكسان القيم الاجتماعية المثالية المطلوبة
من الفرد في المجتمع آنذاك . والكتابان هما « عقد النظام
لعقد الكلام » ، و « التنبيه في التشبيه » . ومما أورده
« المحبي » من تلك القيم ، أو الآداب الاجتماعية ،
وكان معجباً على ما يبدو بها ، « آداب عيادة المريض » ،
حيث يقول شعراً :

إن تعدّ يوماً مريضاً فليكنْ

في زمانٍ لاق فيه أن تعود

واطرق الباب برفق ثم باس

ملك صرح ، ما صديق كالحسود

واغضض الطرف ولا تكثر إذاً

من سؤال ثم خفف في القعود

لا تكلم في الذي يضره
أوله فيه ارتياب في الوجود
ضعْ عليه يدك اليمنى وعن
حاله سله على وجهٍ يجود
أظهر الرقة وسع مدة
وَعِدْنَهُ بالعوافي أن تعود
وأشر بالصبر حذر جزعاً
وادع بالاخلاص مولاك الودود
تلك آدابك ان عدت ومن
يحفظ الآداب يرجى أن يسود

وخلاصة القول يمكن لسفر « خلاصة الأثر » أن
يقدم مادة ثرة جداً للعديد من البحوث الشائقة في الحياة
الاجتماعية للمجتمع العربي بصفة عامة ، والمجتمع الشامي
بصفة خاصة .

بعض لقطات من «الحياة الاقتصادية» في «خلاصة الأثر» :
إذا كانت تراجم « المحبي » في « خلاصة الأثر » ،
تزخر بذلك الفيض من لقطات « الحياة الاجتماعية » ،
فإنها على الرغم من عدم غناها الكبير بالمعلومات عن « الناحية

الاقتصادية» ، فإنها لاتعدم وجود نثرات عنها ، هنا وهناك ،
يمكن أن تركب ، إذا ما جمعت بدقة وصبر ، بعض ملامح
عن الفعاليات الاقتصادية في المجتمع العربي والاسلامي
في ذلك القرن . ففي بعض التراجم إشارات عابرة إلى
الزراعة ، وأنواع الزروع ، وطرق استثمار الأراضي
ولاسيما في بلاد الشام ، ومنها الإيجار ؛ وأراضي الوقف
والمنازعات حولها ؛ وآبار الماء ، والاهتمام بتوزيع المياه
على الأطنان ، وأصناف الأشجار ، وسعي بعض المهتمين
بالزراعة ، باستجلاب أنواع من أشجار الفواكه من
أماكن بعيدة ، لما لم تتوافر في المنطقة التي يريدون
الزراعة فيها. هذا إلى تأكيدات كثيرة عن ارتباط الزراعة
بالأمطار ، والقحط بالجفاف ، وتأثر الزراعة بالجراد .
ويبدو أن البلاد العربية لم تكن لتخلو في ذلك الوقت من
« أدب زراعي » بدليل إشارة « المحبي » في بعض تراجمه
إلى كتاب بعنوان : « كيفية غرس الأشجار » .

ومثل النثرات عن الزراعة ، شذرات عن بعض الصناعات
والحرف التي كانت تمارس في مجتمع ذلك الوقت كذكره
عصر السمس : وصناعة السروج ، وحدادة المسامير ،

والحياكة ، والنجارة ، وصنع القماش ، والحبازة ،
والحلاقة ، وصناعة الصابون المطيب ، وصباغة الورق ،
والصباغة وغيرها . هذا بالإضافة إلى لمحات عن بعض
المصنوعات النسيجية الرائجة من الحرير ، والصوف ،
والقطن ، ومصنوعات أخرى .

ويثبت « المحبي » في بعض تراجمه بعض المعطيات
عن التجار ، ويسر أحوالهم ، ويبين عرضاً . وجود
تجارة محلية محدودة ، يقوم أصحابها ببيع الحبر ، والحرير ،
والصابون ، والقماش ، والعطارة ، وغيرها ، وإلى تجارة
خارجية تبدو واسعة ، يسعى فيها أصحابها بين اليمن
وبلاد الهند ، والحجاز واليمن ، وبين بلاد الشام ومصر ،
والشام والحجاز ، والشام والعراق ، وبلاد الروم .

ويستفاد من « خلاصة الأثر » كذلك ، في الميدان الاقتصادي ،
بعض معطيات عن المكايل ، والأوزان المختلفة ، المستخدمة
في بعض مناطق الوطن العربي والعالم الاسلامي : كالمكوك ،
والجرة ، والرطل ، والاردب المصري ، والغرارة الشامية ،
وحمل الحمل وغيرها . ويضاف إليها بعض مقاييس
الأطوال ، كالذراع مثلاً .

كما أنه ينبغي أيضاً ، عن أنواع النقد المتداولة :
كالدينار الذهبي ، والعثماني ، والأقجة ، والقرش ،
والريال ، والشريفي ، والمحلّق ، والقبّرصي وغيرها .
هذا بالإضافة إلى أسعار بعض السلع في فترات معينة
من القرن .

ولا تخلو التراجم من بعض معلومات عن أزمات
الغلاء ، وعن الابتكارات الاقتصادية التي كان يقوم
بها رجال الدولة أنفسهم . فقد ورد في ترجمة أحد ولاة
« أدنة » مثلاً انه « حرجّ على البضائع كلها ، فلا يبيعها
جلاًبها إلا لمن عينه من جماعته ، ثم تباع للسوقة بعد ذلك » .
وكذلك اتهم قاضي حلب ، باحتكار القمح مع بعض أعوانه
من أهاليها المتنفذين .

وهناك نصوص بيّنة تؤكد وجود الربا ، على الرغم
من تحريم الدين الإسلامي له ، واضطرار الفلاحين بالذات ،
للاستدانة من العاملين به كما أسلفنا القول ، وهؤلاء
المرابون كانوا من أصحاب السلطة والنفوذ .

ومن الأمور ذات الصلة الاقتصادية ، بعض لمحات
عابرة عن اجراءات كانت تتخذها الدولة لمداواة القحط

والمجاعة في إقليم على حساب اقليم آخر ، كسعيها مثلاً
لاستيراد الحبوب من مصر عندما كان يقع القحط في
بلاد الشام ؛ ناهيك عن لقطات هنا وهناك عن بعض المساعدات
المالية التي كانت تقدمها فئة الحكام ، أو الاثرياء من أهل
البلاد ، للفقراء ، وما تقدمه السلطنة ، والبلاد الاسلامية
من منح ، وأوقاف للحجاز مثلاً ، وبصفة خاصة ما كان
يسمى « بالصبر » وهو وقف ، يوضح « المحبي » بالأرقام
جزئياته .

ومجمل القول ، إن كتاب « خلاصة الأثر » سفر
تاريخي ثمين من تراثنا العربي ، يمثل فكراً عربياً
اسلامياً ، عميق النظرة ، وشامل الرؤية ، قوي التحليل
دقيقه ، ومتين التركيب ، مستقصياً للحقيقة ومتحريراً لها ،
ومثبتاً أن الفكر العربي مافتى متحركاً ، ومبدعاً ،
ومعطاءً حتى في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر
الميلادي المتهم خطأً وتجنياً بالحمود أو بالانحطاط .

* * *

المختارات من كتاب « خلاصة الأثر »

- ١ - مقدمة الكتاب (الجزء الأول ص ٢ - ٥) .
- ٢ - مجموعة من تراجم فثي « الملوك والسلاطين ،
والأمراء » .
- ٣ - مجموعة من تراجم رجال الدين والإدارة .

٣ - مسرد التراجم المختارة من فئة « الملوك والسلاطين والأمراء »

الاسم	المعمل	تاريخ الوفاة أو الخلع	موضع ترجمته في كتاب خلاصة الآثار	الجزء الأول	العدد
١ - السلطان إبراهيم بن أحمد	السلطان العثماني	خلع	١٠٥٨ هـ	١٣	١
٢ - إبراهيم باشا	الدقيري بالشام	قتل	١٠٤٣ هـ	٢٩	٢
٣ - الشريف أبو طالب	شريف مكة	توفي	١٠١٢ هـ	١٣١	٣
٤ - الأمير أحمد بن رضوان	أمير غزة	توفي	١٠١٥ هـ	١٨٧	٤
٥ - الأمير أحمد بن طرباي	أمير اللجون	»	١٠٥٧ هـ	٢٢١	٥
٦ - مولاي أحمد بن عبد الله الحسي	ملك مراکش وفاس	»	١٠١٢ هـ	٢٢٢	٦
٧ - السلطان أحمد بن محمد	السلطان العثماني	»	١٠٢٦ هـ	٢٨٤	٧
٨ - أحمد باشا الكوبري	وزير و صدر أعظم	»	١٠٨٧ هـ	٢٥٣	٨
٩ - أحمد باشا الكوجك	وزير و وال للمشرق	»	١٠٤٦ هـ	٣٥٨	٩
١٠ - السيد حسن بن الامام القاسم من ائمة اليمن الزيديين	»	»	١٠٤٨ هـ	٣٩ الثاني	١٠
١١ - الأمير حسن ابن الأعوج	أمير حماة	»	١٠١٩ هـ	٤٥	١١
١٢ - حسين باشا ابن جانبولاذ أمير كلس وحلب	قتل	١٠١٤ هـ	»	٨٤	١٢

تتمة المسرد :

١٣٤	»	»	هـ ١٠٩٤	توفي	والي دمشق	١٣ - حسين باشا (صاري حسين)
١٣٣	»	»	هـ ١٠٩٢	»	أمير الخليج الشامي	١٤ - خليل باشا
١٦٤	»	»	هـ ١٠٦٦	»	أمير الخليج المصري	١٥ - الأمير رضوان بن عبدالله
٢١٤	»	»	هـ ١٠٠٤	»	الصدر الأعظم	١٦ - سنان باشا
٢٢٢	»	»	هـ ١٠١٨	قتل	حاكم العرب البدو من آل جبار	١٧ - الأمير شديد بن أحمد
٢٦٧	»	»	هـ ١٠٣٨	توفي	شاه ايران	١٨ - الشاه عباس بن محمد
١٣٥	الثالث	»	هـ ١٠٢٠	قتل	أمير لواء الأكراد بجلب	١٩ - الأمير علي بن جانبولا ذ
١٤٠	»	»	هـ ١٠٣٠	توفي	والي تونس وحاكم البحر	٢٠ - علي باشا كوزجة
٢٠٩	»	»	هـ ١٠٤٥	»	سلطان حضرموت	٢١ - السلطان عمر بن بدر
٢٣٠	»	»	هـ ١٠٣٥	»	وزير الهند	٢٢ - الملك عنبر شنبو
٢٦٦	»	»	هـ ١٠٤٣	قتل	أمير الشوف	٢٣ - الأمير فخر الدين بن معن
٢٩٣	»	»	هـ ١٠١٦	توفي	إمام اليمن	٢٤ - الامام القاسم المنصور
٢٩٩	»	»	هـ ١٠٣٣	قتل	كبير جند الشام	٢٥ - كيوان

تتممة المسرد :

٢٦ - محمد باشا	والي حلب ودمشق	توفي	١٠٣٣ هـ	»	الرابع ٢٩٤
٢٧ - محمد باشا الكوبري	الوزير الأعظم	»	١٠٧٢ هـ	»	٣٠٩
٢٨ - السلطان محمود	ملك الهند	»	١٠٦٧ هـ	»	٣١٦
٢٩ - الأمير منصور بن فريخ	أمير البقاع	»	١٠٥٢ هـ	»	٤٢٦
٣٠ - الأمير منصور بن الشهاب	أمير وادي النتم	»	١٠٧٣ هـ	»	٤٢٩
٣١ - الأمير موسى بن علي حروفش	أمير بعلبك	»	١٠١٦ هـ	»	٤٣٢
٣٢ - نصح باشا	والي حلب	قتل	١٠٢٣ هـ	»	٤٤٨
٣٣ - الأمير يوسف بن سيفا	أمير طرابلس الشام	توفي	١٠٣٥ هـ	»	٥٠٣

النصوص المختارة

مقدمة خلاصة الاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

يامن أحصى بلطفه الخلائق عدداً . وجعلهم بمشيئته
طرائق قددا . كلٌ يعمل على شاكلته . في عاجلته لآجلته .
صل على صفوتك من أنبيائك . الواقف على سرّ حقيقة
أنبيائك . سيدنا محمد خاتم رسالة الرسالة . المنتخب من
أكرم عنصر وأطيب سلالة . وعلى آله الجامعين لمكارم
الاخلاق . وصحبه الحائزين من الفضل مرتبة الاستحقاق .
مازينت الطروس بسطور مدائح ذوي المفاخر . وتعطرت
حدائق الاوراق بنشر أزاهر المآثر .

وبعد . فاني من منذ عرفت اليمين من الشمال .
وميزت بين الرشد والضلال . لم أزل ولوعاً
بمطالعة كتب الاخبار ، مغرى بالبحث عن

أحوال الكُـمـل الاخيـار . وكنت شديد الحرص على خبر
أسمعه. أو على شعر تفرّق شمله فأجمعه . خصوصاً للتأخري
أهل الزمن . المالكين لأزمة الفصاحة واللسن. من كل ملك
تتلى سورة فخره بفهم كل زمان . وأمير لم تبرح صورة
ذكره تجلى على ناظر كل مكان . وإمام لم تنجب أم الليالي
بمثاله . وأديب تهتز معاطف البلاغة عند سماع فضله
وكماله . حتى اجتمع عندي ما طاب وراق . وزين بمحاسن
لطائفه الاقلام والاوراق . فاقتصرت منه على أخبار أهل
المائة التي أنا فيها . وطرحت ما يخالفها من أخبار من تقدّمها
وينافئها . حرصاً على جمع ما لم يجمع . وتقييد شيء ما قيل
إلا ليسمع . ووقع اختياري على اضافة كل أثر إلى ترجمة
من أسند اليه . حسبما يعول من له مساس في باب التاريخ
عليه . فصار تاريخ رجال وأيّ رجال . يضيق عند سرد
مآثرهم من الدفاتر المجال . وقد وجد عندي مما أحتاج
إليه من المعونة ، والآثار المتعلقة بهذه المؤنة . ذيل النجم
الغزي وطبقات الصوفية للمناوي وتاريخ الحسن البوريني
وذيله لوالدي المرحوم وخبايا الزوايا والريحانة للخفاجي
وذكرى حبيب للبديعي ومنتزه العيون والالباب لعبد البرّ

الفيومي هذا ماعدا المجاميع والتلقيات من الافواه والمكاتبات
وكان بقي عليّ بعض أخبار اليمن والبحرين والحجاز .
وقد تعمس عليّ في طريق تطلب حقيقتها المجاز . فلما منّ
الله عليّ وله المنّة . والمنحة التي لا يشوبها كدر المحنة .
بالمجاورة في بيته المعظم . والالتقاط من بحار أهليه الدر
المنظم . تلقيت من الافواه تراجم لanas يسيرة . كانت
في التحصيل عليّ عسيرة . وهم ، وان كانوا قليلين
في العدد ، فانهم كثيرون بسبب انهم ذريعة للمدد في كل
المدد . وقد يقال إن أعداد الكبار الشم الأنوف ربما
عدلت عشراتها بالمتين ومئوها بالالوف . ثم وقفت في
أثناء السنة على ذيل الجمالي محمد الشبلي المكي الذي
ذيل به على (النور السافر في أخبار القرن العاشر) . للشيخ
عبد القادر ابن الشيخ العيدروس و (المشرع الروي في
في أخبار آل باعلوي) . له أيضاً وعلى تراجم منقولة من
تاريخ ألفه الصفي بن أبي الرجال اليمني في أهل اليمن
فأجلت فكري في مجالها . وألحقها بحسب ترتيبها في محالها .
وكان وصلني خبر الكتاب الذي أنشأه السيد علي بن معصوم
ذيلاً على الريحانة . ووسمه بسلافة العصر في شعراء

أهل العصر . فلم أزل حتى حصّلته . وقطعت به أمر
الطلب ووصلته . وأتحفني بعض الافاضل بذيل الشقائق
الذي ألفه ابن نوعي بالتركية . وضمنه معظم أهل الدولة
العثمانية . ووصاني بعض الاخوان بقطعة من تاريخ أنشأه
الشيخ مدين القوصوني المصري ذكر فيه تراجم كبراء
العلماء من أهل القاهرة . وزين طروس سطوره بمآثرهم
الباهرة . فكانتا عندي فاكهتين باكورتين . وتحفتين بلسان
البراعة مشكورتين . فجمعت الجميع على نية الترتيب .
مستعيناً في خصوصه بالفياض المجيب . وأضفت إلى تلك
الاخبار المواليذ والوفيات . حسبما حررته من التعاليق
التي هي بهذا الغرض وافيات . وما أقدمني على هذا الشأن
إلا تخلف أبناء الزمان . عن احراز خصل الفضل في هذا
الميدان . شعر :

لَعَمْرُؤُ أَبْيَكَ مَانَسِبِ الْمَعْلَى
إِلَى كَرَمِ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمِ
وَلَكِنْ الْبِلَادُ إِذَا اقْشَعَرَتْ
وَصَوْرَحَ نَبْتُهَا رَعِيْهِ الْهَشِيمِ

فأنا ذلك الهشيم . الذي سدّ سدّ الكريم . كيف
وقد نجم نجم الجهل . وصوّح نبت بيت الفضل . وصدئت
القلوب . وضعف الطالب والمطلوب . وربما يظن أن
ما تخالج في صدري وهجس . لرعونة أوجبها الفراغ
والهوس . كلا بل ذلك لأمر يستحسنه اللبيب . ويحسن
موقعه لدى كل أريب . لما فيه من بقاء ذكر أناس شنت
مآثرهم الأسماع . وجمع أشتات فضائل حكم الدهر عليها
بالضياع . وليس غرضي إلا أداء حقهم المفترض .
وأبرأ إلى الله من تهمة الغرض . وإني وإن قصرت فما
قصرت . وإن طوّلت فما تطوّلت . وغاية البليغ في هذا
المضمار الخطير . أن يعترف بالقصور ويلتزم بالتقصير .
فإن المرء ولو بلغ جهده . فلاحاطة في هذا الشأن لله وحده .
وقصدي أن أسمه (بخلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي
عشر) . وإلى الله أتضرع في سدّ خللي . وستر زلي .
ودفن عيبي . ورتق فتق جيبي . انه الجواد الكريم .
ومنه الهداية إلى الصراط المستقيم . واعلم أن مصطلحي في
هذا الكتاب أني رتبته على حروف المعجم ، ليسهل لمطالعه
ماغم عليه واستعجم . وأقدم أولاً الاسم الذي أوّله همزة

محدودة ثم ما كان أوله ألف، وأقدم من ذلك ما شاركه أبوه في اسمه ، فاذا تعدّد ذلك قدّمت الاسبق وفاة ثم أرجع فأذكر من بعد حرف الهمزة الحروف المعجمة من أولها إلى آخرها، وأذكر في كل حرف ما فيه من الاسماء مقدماً ما كان فيه ثاني الاسم من الحروف المقدّمة، وهمكذا أفعل في أسماء الآباء. فاذا انتهى من وصلني اسم أبيه ذكرت من لم أعرف اسم أبيه مراعيّاً سبق الوفاة. وأكتفي بذكر الكنية أو اللقب إذا اشتهر صاحب الترجمة بأحدهما ولم يرو له اسم، وأذكر ذلك في ضمن الاسماء وأبتدىء منها بالاسم، ثم باللقب، ان اتفق ثم بالكنية وأذكر بعد ذلك النسبة إلى البلد، ثم الاصل ثم المذهب غالباً، ولاأورد من أحوال الرجل إلا ما تلقّيته من هذه التواريخ، أو سمعته من ثقة أو ضبطته عن عيان ومشاهدة، ولا أثبت من الكرامات إلا ما تحقّقته. ولا أعتقد أني وفيت بالمقصود . ولو أوتيت علم ذلك النجم المرصود . بل كل ما أمل من هذا المراد نيل سعادة ثواب في المبدأ والمعاد . فقد ذكر الحافظ عبد العزيز ابن عمر بن فهد المكي الهاشمي في تذكّراته التي سماها (نزهة الابصار لما تألف من الافكار). مانصه مما نقله

الوالد من مجاميع الميورقي: «سمعت ممن أثق بدينه وعلمه
يقول: إن الاشتغال بنشر اخبار فضلاء العصر ولو بتواريحهم،
من علامات سعادة الدنيا والآخرة، اذ هم شهود الله تعالى
في أرضه». وهذا أوان الشروع فيما أردته . والله مسدد
فيما أوردته .

* * *

[تراجم أعلام السياسة والادارة]

(السلطان ابراهيم) بن أحمد ، بن محمد ، بن مراد ،
ابن سليم ، بن سليمان ، بن سليم ، بن بايزيد ، بن محمد ،
ابن مراد ، بن محمد ، بن يلدرم بايزيد ، بن مراد ، بن
أورخان ، بن عثمان ، بن أرطغرل ، ابن سليمان شاه ،
السلطان الأعظم ، أحد ملوك آل عثمان ، المطوق بعقد
مفاخرهم جيد الزمان . قد تقرر أن أصل بيتهم من التركمان
النزلة الرحالة من طائفة التاتار . وينتهي نسبهم إلى يافث
ابن نوح ، وهو الجدد السادس والأربعون للسلطان إبراهيم .
ولما كانت أسماؤهم أعجمية ، أضربت عن ذكرها لطولها
واستعجامها ، وربما يقع فيها التصحيف والتحريف إن لم
يضبط شيء منها ، ولا حاجة إلى الإحاطة فيها بلا فائدة ،
فإنها مذكورة في التواريخ التركية . وأما ذكر مبدأ
ظهورهم فهو شائع مشهور ، وقد تكفل به غير واحد من

المؤرخين ، فلا نطيل بذكره . ونرجع إلى ماهو الغرض من ترجمة السلطان إبراهيم ، فنقول: تولى السلطنة بعد موت أخيه السلطان مراد ، في تاسع شوال سنة تسع وأربعين وألف . وقيل في تاريخه على لسانه (استعنت بالله) (١) .

(١) لقد استخدم « حساب الجمل » في التأريخ في العهد العثماني . وهذا يعني أنه في تأريخ سلطان أووال أو غيرهما ، أو في تأريخ ميلاد أو وفاة ، أو تأريخ انشاء أو تعمير ، كانت تركب جملة قصيرة مفيدة ، أو ينظم بيت شعر ، يكون مجموع حروفها ، أو مجموع حروفه ، أو حروف شطر منه ، إذا ما حلل إلى أعداد هي التأريخ المطلوب : وهذا يستند بالطبع إلى أن كل حرف في العربية يقابله عدد . ونسوق أدناه الأبجدية وما يقابلها من الحروف :

(أ = ١) ، (ب = ٢) ، (ج = ٣) ، (د = ٤) ، هـ (= ٥) ،
(و = ٦) ، (ز = ٧) ، (ح = ٨) ، (ط = ٩) ، (ي = ١٠) ،
(ك = ٢٠) ، (ل = ٣٠) ، (م = ٤٠) ، (ن = ٥٠) ، (س = ٦٠) ،
(ع = ٧٠) ، (ف = ٨٠) ، (ص = ٩٠) ، (ق = ١٠٠) ،
(ر = ٢٠٠) ، (ش = ٣٠٠) ، (ت = ٤٠٠) ، (ث = ٥٠٠) ،
(خ = ٦٠٠) ، (ذ = ٧٠٠) ، (ض = ٨٠٠) ، (ظ = ٩٠٠) ،
(غ = ١٠٠٠) .

استعنت = ١ + ٦٠ + ٤٠٠ + ٧٠ + ٥٠ + ٤٠٠ = ٩٨١

بالله = ٢ + ١ + ٣٠ + ٣٠ + ٥ = ٦٨

$$\begin{array}{r} 68 \\ + 981 \\ \hline 1049 \end{array}$$

وكان ملكاً معظماً ، حسن المنظر ، سمح الكف ، وكان
زمانه أنضر الأزمان ، وعصره أحسن العصور ، وأطاعته
جميع الممالك ، وسكنت بيمن دولته الفتن ، واعتدل به
الزمن ، وفيه يقول الأمير « منجك بن محمد المنجكي
الدمشقي » قصيدته التي مدحه بها وهي من غرر القصائد ،
ومطلعها :

لو كنت أطمع بالمنام توهماً
لسألت طيفك أن يزور تكرماً
حاشا صدودك أن تدم فانها
تخلو لديّ وإن أسيغت علقماً
فاهجر فهجرك لي التفات مودّة
ألقاه منك تحنناً وترحماً
عذب فؤادي بالذي تختاره
لو كنت منسياً تركت وانما
لولم تكن بغبار طرفك أكهلت
عين الغزاة صدّها وجه الدما

ومن جملة لها وهو محل الشاهد :

ملكٌ من الايمان جرّد صارما
بالحق حتى الكفر أصبح مسلما

لو شاهدنا لمطرود سطوة بأسه
في صاب آدم للسجود تقدّما

العدل أخرس كان قبل زمانه
أذنت له الايام أن يتكلما

لم تخطُ آساد الفلا في عهده
بين الشقائق خيفة أن تتهما

عقد المثار على العداة سحائبها
لولا الحيا لسقى العدا منها دما

ودعت نلباه الطير حتى انه
قد كاد يسقط فرخه نسرُ السما

وكان صاحب طالع سعيد ، ماجهز جيشاً إلى ناحية
إلا انتصر ، ولا قصد فتح بلدة إلا ظفر . ومن الفتوحات

التي وقعت في عهده : فتح قلعة ازاق (١) . وكان أهل دائرتها من الكفار ، أظهروا الشقاق ، فجهز اليهم جيشاً فافتتحوها في سنة اثنتين وخمسين وألف . ومنهافتح خانية احد البلاد المشهورة بجزيرة اقريطاش (بفتح الالف . وسكون القاف وكسر الراء المهملة وسكون المثناة من تحت وكسر الطاء المهملة وفي آخرها شين معجمة) وتعرف الآن بجزيرة كريت ، وكانت لملوك الفرنج المعروفين بالبندقية . وهذه الجزيرة من أعظم الجزائر وأكبرها . تشمل على بلاد ورساتيق (٢) كثيرة . وذكر بعض من دخلها أن بها من القرى ، أربعاً وعشرين ألف قرية . وأن دورها ثلاثمئة وخمسون ميلاً . وذكر في كتاب الفرس ، أن دورها مسيرة خمسة عشر يوماً ، وهي ذات رياض نضرة ، وبها أنواع الفواكه والثمار ، وخيراتها وافرة . وبالحملة فانها من أحسن الجزائر .

(١) المقصود مدينة (ازوف) شمالي البحر الأسود ، وقد تمكن « القوزاق » من الاستيلاء عليها من يد العثمانيين ، ثم نجح الشمانيون في استردادها .

(٢) رساتيق : كلمة فارسية الأصل ، وهي (رسدق) وتعني مجموعة من البيوت .

وكان السلطان ابراهيم أرسل إليها عساكره بالسفن الكثيرة ،
وقدم عليهم حاكم البحر يوسف باشا الوزير ، فدخل
الجزيرة وحاصر قلعة خانية وافتتحها ، وكان ذلك في
عشري جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وألف . ثم
بعدها قدم إلى القسطنطينية ، قتله السلطان ، لأمرٍ نقمه عليه ،
وأمر مكانه الوزير الكبير حسين باشا المعروف بدالي حسين
وجهاز معه عدة من وزرائه ، وأمرائه ، إلى فتح الجزيرة
بتمامها ، فوصل إليها ، ونازل قلعة رتمو . واستعان
عليها باللغم ، حتى أهلك خلقاً كثيراً من الفرنج ، بسبب
ذلك . وفتحها واستولى على جميع قرى الجزيرة ، ولم يبق
منها مما خرج عن ملك آل عثمان في تلك الجزيرة الا قلعة
قندية ، وطال أمرها مدةً مديدة ، حتى فتحت في زمن
سلطان زماننا السلطان محمد ، كما سنذكر تفصيل فتحها
في ترجمة الوزير أحمد باشا الفاضل . وبالجملة فان السلطان
ابراهيم المذكور كان ميمون النقيبة ، منصور الكتبية ،
وكانت ولادته في سنة أربع وعشرين وألف ، ونُحِّلَع
عن الملك في نهار الخميس سادس عشر رجب سنة ثمان
 وخمسين وألف . وكانت مدة سلطنته ثمان سنين ، وتسعة
أشهر . وذكر سبب خلعه يحتاج إلى تفصيل ممل ، أعرضنا

عنه لشهرته . ومحصله ، أنه كان ارتكب بعض امور تتعلق
بهوى النفس ، وأطال في تعاطيها ، حتى ملته اركان
دولته ، ثم اجتمعوا وخلعوه من السلطنة ، وسلطوا مكانه
ولده السلطان محمد . وفي ثالث يوم من خلعه قتلوه ،
ودفن في مدفن عمه الصالح السلطان مصطفى ، إلى جانبه
بجامع ايا صوفيا . ومما اتفق له ، ولم يتفق لغيره من السلاطين
فيما أعلم ، انه رأى سلطنة أبيه ، وعمه ، وأخويه ،
وولده . ووجدت في بعض المجاميع القديمة فائدة غريبة
يناسب ايرادها هنا ، محصلها ، انه استقرى من وُلِّي السلطنة ،
وكان اسمه ابراهيم ، فوجدوا لم يتم لاحدهم أمرها إلا قتل .
وقال الراغب ، في محاضراته : قال أبو علي النطاح ،
كان المهدي يحب ابنه ابراهيم ، فقالت له شكلة أم ابراهيم :
ألا تراه يلي الخلافة ، فقال : لا ولا يليها من اسمه ابراهيم .
ان ابراهيم الخليل أول نبي عذب بالنار ، وان ابراهيم
ابن النبي عليه السلام لم يعيش ، وبويع ابراهيم بن المهدي
فلم يتم له الامر ، وأحكم ابراهيم الامام أمر الملك فقتل
وتم لغيره ، وطلب الخلافة ابراهيم بن عبد الله بن الحسين ،
فما تمت له على جلالته ، وكثرة جيشه . وقد بايع المتوكل
لابنه ابراهيم المؤيد فلم يتم له وقتل . وما ذكره من

اللغم هو شيء غريب ، ينبغي التعرّض للكلام عليه .
فانه مستحدث ، وهو في الاصل من عمل الفرنج ،
اصطنعوه في محاصرة بعض الحصون في أوائل القرن
التاسع ، على عهد السلطان سليم الاكبر (١) ، واشتهر
عند ملوك الروم حتى فاقوا فيه على الفرنج . وكيفية عمله ،
على ماتلقيته من الافواه ، ثم وجدته في بعض المجاميع
بخط بعض الادباء ، انه إذا حوصرت قلعة أو حصن وتعسر
تملكه لصعوبته ، يسوقون أمامه تلاً عظيماً من التراب ،
ثم يحفرون من تحت ذلك التراب سرداباً عظيماً إلى أن
يصلوا إلى الاساس ، ثم يجوفون قعر الاساس مقدار
ما يريدون ، بحيث إنهم لم يخرجوا من تحت الجدار أبداً ،
فان خرجوا بطل جميع العمل . وينقلون التراب من السرداب
إلى خارج خفية ، ليخلو ماتحته ثم يملؤونه بالنفط والبارود ،
طولاً وعرضاً ، ويضعون فتيلة ثخينة من القطن مقدار
شبرين ، فيحرقون أطرافها بالنار في الخارج ، ويضعون

(١) ان السلطان سليم الاكبر هو السلطان سليم الذي ضم
بلاد الشام ومصر الى الدولة العثمانية . وقد ظهر خلال
الربع الاول من القرن العاشر ، لا القرن التاسع كما
جاء في النص .

فخيلة أخرى على قدرها ، ثم يأخذون بالساعة مقدار زمان
احتراقها ، ليعلموا في أي وقت تصل نار الفخيلة إلى البارود
تحت الأرض . ثم ان العسكر يأخذون الاهبة للهجوم ،
ويسدّون اللغم سداً محكمًا خوفاً من رجوع البارود إلى
خلف . وعند احتراق البارود ينقلب ما فوقه من جدار
أو سور أو غير ذلك ، فيهجم العسكر دفعة واحدة ويملكون
القلعة بهذه الحيلة . وهذا ما انتهى إليّ من خبره على هذا
التفصيل والله أعلم .

* * *

(ابراهيم باشا) بن عبد المنان المعروف بالدفتردار (١)
نزىل دمشق وأحد كبرائها ، صاحب شأن رفيع . كان
وقوراً متواضعاً ، ساكناً ، كثير العبادة ، ملازماً على
أداء الصلوات في أوقاتها مع الجماعة في الجامع الأموي ،
ويحضر مجالس الاوراد والاذكار ، ويحب العلماء والصلحاء ،
وينادي في العلوم ، وجمع كتباً ، وكان له اطلاع على
كثير من الاحاديث النبوية . وروى الحديث والتفسير

(١) الدفتردار : هو الذي يعني بسجلات الواردات والمصروفات
المالية في الدولة العثمانية .

والمسلسل بالاولية (١) ، عن الشيخ الامام فتح الله بن محمود البيلوني الحلبي. وقفت على اجازته له بخطه ، وتاريخ الاجازة في السادس من رجب سنة تسع وثلاثين وألف بالقدس ، والبيلوني المذكور يومئذ مفتي الشافعية بها . وذكره والذي رحمه الله تعالى في تاريخه وقال في ترجمته هو برسوي (٢) المولد، قدم إلى دمشق أولاً في حدود سنة اثني عشرة بعد الالف وحج ثم عاد اليها ثانياً في سنة احدى وعشرين كتخدا الدفتر (٣) بالشام ، وهذه الخدمة تتعلق بأرباب الزعامات والتمار ، ثم عزل ، ثم وودها ثالثاً دفترياً بها ، في سنة خمس وعشرين ، وتوطنها وانهقدت عليه رياستها ، وصار أمير الركب الشامي (٤) في سنة احدى وأربعين ،

(١) نوع من الحديث النبوي لا سنده طريقة خاصة . كأن يرويه مثلاً مكّي عن آخر من أوله إلى آخره . وكل راو يقول عن قبله : « هو أول حديث سمعته عنه » .

(٢) من مدينة « بروصة » أو « بورصة » ، وتقع في الشمال الغربي من آسيا الصغرى .

(٣) كتخدا الدفتر : معاون (الدفترأميني) ، وهو المشرف على شؤون الاقطاعات . وكان عمله الاشراف على اقطاع (الزعامة) فحسب ، إلا أنه ضم إليه فيما بعد (التيمار) أيضاً .

(٤) قافلة الحج الشامي .

ثم عزل بعد ان حج بالركب في تلك السنة . وأقام دفترياً .
وبنى في داره قصرأ مطلاً على الجامع الأموي ، ولزم
انه نقب جدار الجامع القبلي لاجل الباب ، فقال الاديب
عمر بن الصغير في تاريخه (بنى نقب القبلة ابراهيم) .
وهدم القصر المذكور عقب قتله . وبنى حماماً بالقرب
من تربة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولصيق
داره التي كان يسكنها ، ووقفه وجعله من املاكه ،
على تدريس فقه وأجزاء رتبها في التربة المذكورة . فقال
شيخ الادب أبو بكر العمري رحمه الله تعالى في تاريخه :

بنى وأوقف ابراهيم دام له

منجزاً لصلاح الدين حماما

وقلت : وهذا من التواريخ البديعة فانه بيّن فيه المراد
من غير حشو . قال : ولما قدم الوزير أحمد باشا المعروف
بالكوجك حاكماً بدمشق ، صدر بينه وبين صاحب
الترجمة منافسة ، أدّت إلى أنه عرض فيه إلى الابواب
السلطانية ، فجاءه الامر بالتفتيش عليه ، فجمع أعيان
دمشق وأحضره ، وأمر مراد باشا ابن الشريطي الآتي ذكره

بمحاسنہ ، وكان ابن الشريطي يبغض ابراهيم باشا ، فأطلع في ذمته أموالاً كثيرة بسبب غرضه ، وكتب بذلك حجة وحبسه في قلعة دمشق مدّة ، وقبض على جميع ما يملكه فباعه ، ثم أمر بقتله سرّاً فغمي بالماء وقيل عصرت مذاكيره . وقيل وضع على رأسه الوسادة حتى مات . وحكى بعض من شاهد قتله انه كان يقول في تلك الحالة : اذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وفي ثاني يوم قتله أشيع انه مات فجأة ، وكتب بذلك حجة وكان قتله يوم الاحد خامس عشر صفر سنة ثلاث وأربعين وألف ودفن بتربة صلاح الدين بوصية منه رحمه الله تعالى .

* * *

(الشريف أبوطالب) بن حسن ، بن أبي نمي محمد ، ابن بركات ، بن محمد ، بن بركات ، بن حسن ، بن عجلان ، ابن رُمَيْثَة ، بن أبي نمي محمد ، بن أبي سعيد الحسن ، بن علي ، بن قتادة ، بن ادريس ، بن مطاعن ، بن عبد الكريم ، ابن عيسى ، بن حسين ، بن سليمان ، ابن علي ، بن عبد الله ، بن محمد ، بن موسى ، بن عبد الله المحصن ، ابن الحسن المثنى ، ابن الحسن السبط ، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم . صاحب

مكة والحجاز . كان من أمره أنه لما كبر أبوه ، فوض
أولاً نيابة الإمارة لابنه الشريف حسين ، فلم يطل أمره
فيها فدمات . فولاها شقيقه الشريف مسعود . وكان موصوفاً
بالشجاعة والقوة ، لكن لم يسلك فيها مسلكاً مرضياً ،
وتوفي وهو شاب . فالت إلى أبي طالب صاحب الترجمة .
وكان ذا فكر صائب ، وشجاعة عظيمة ، وفضيلة
باهرة ، وفاق سائر اخوته . وبعد ما حكم بالنيابة عن أبيه
مدّة ، أمر أبوه أمراء الحجاز أن يلبسوه الخلعة الكبرى ،
وألبسوا ولده عبد المطلب الخلعة الثانية ، فلبسهما .
ثم جهز من اتباعه ، الأمير بهرام ، بهدية سنّية إلى الابواب
السلطانية في هذا الخصوص ، والتمس من السلطان محمد
خان بن السلطان مراد ، تقريراً بذلك ، فأجيب إلى ملتمسه ،
ورجع بهرام بالتقارير . وصورة منشوره المذكورة
في ريحانة الخفاجي ، وهو من انشائه ، لكنه مطوّل أعرضت
عن كتابته لطوله ، ويعجبني منه محل ، وهو قوله في
مخاطبة الشريف حسن : « وقد ورد من جنابه رسول تلقاه
من سدّتنا نسيم القبول ، اذ جاب الفيافي من حزنّها
وسهلها ، وأدّى الامانات إلى أهلها ، وكان كالليل ،

سلك بين الجفون فأجاد ، ومتع العيون بأحمد الصلاح
والسداد ، ومعه منشور أرق من نسيم السحر ، معرب
عن العين بالآثر ، فأخبر أن مرسله أراد الفراغ ، وما على
الرسول إلا البلاغ ، وتضمن منشوره المذكور ، انه
أراد الاستراحة من نصب المناصب ، والتقاعد عما بها
من المراتب ، رغبة عن زخرف الحياة ، إلى خدمة سيده
ومولاه ، وأن نجله النجيب ، الجليل الحبيب ، الناشئ
في حجر الشرف الباهر ، المستخرج من أطيب العناصر ،
ليث غابة ، بيض الصفاح ، وسمر العسالة الرماح ،
عليه أمانة الامارة ، ومخايل النجاة والصدارة .

بلغ السيادة في ابتداء شبابه

إن الشباب مطية للسودد

وسأل أن نقلده صارم امانة تلك الديار ، وما يتبعها
من البلدان والاقطار ، على ماجرت به عادة سلفه الذي
سلف ، وقانون من خلفه من الخلف . فأجبناه إلى مراده ،
وأمددناه بأسعافه وإسعاده . لانه انما نزع صارمه من يده
إلى يده الأخرى ، وجعله من بعد يمن اليمنى في يسار اليسرى ،

فسارت الامارة من حرم إلى حرم ، ولم تخرج من جيران نجد وذي سآسم . واخلعنا عليه حلالاً تأنق ، واشيها ، ورقت حواشيها ، ونظرنا اليه بنظرنا ، الذي هو اكسير ، أن يحسن في العمل والتدبير ، وينظر إلى الرعايا بعين الرعاية ، ويصونهم عن أهل الضلالة والغواية ، ويؤمن تلك المناسك ، ويحرس تلك المسالك . ويختار من قومه من يحرسها من الاعداء ، ويحميها من كل قاصر في فعله تعدى . ويبطل ما فيها من المكوس والمظالم ، ويقيم الحدود على مستحقيها من كل باغ وظالم ، ليخلد في صحائف تلك البلاد الحسنات ، ويمحو ما فيها من آثار السيئات . ويتصرف في بندر جدّة ، على العهد القديم . ومن جاور ذلك المقام فليسعفه بالنعيم المقيم . ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نُنذِرُهُ من عذاب أليم . ويحرس الوافدين إلى ذلك البلد الامين ، باقامة شعائر شرائع الدين ، ويحمي بحمايته من ورد أو صدر ، ويحرس مواردهم الصافية من الكدر . ويلاحظ ما للخليل صلى الله عليه وسلم من صالح الدعوات ، في قوله : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات ﴾ . ثم ليعلم كل من كحل

بصره بإئتميد منشورنا الكريم، وشنف مسامعه بالآلىء لفظه
العظيم ، ممن في دارة تلك الديار ، وهالة تلك الاقطار .
وانتظم في سلك سكان القرى والامصار ، من السادات
الكرام ، والقضاة ، والحكام ، وولاة الامور من الاعيان ،
والوافدين على تلك الديار ، والسكان . أن إمارة تلك
المعاهد وما فيها من العساكر ، وما أحاطت به من الاصاغر ،
والاكابر ، وسائر الوظائف ، والمناصب ، والجهات ،
والمراتب ، مفوضة إلى السيد السند أبي طالب ، ناظراً بعين
الانصاف ، متجنباً سبيل الاعتساف ، ويصرف المستحقين
بحسن التصريف ، ويصرف من لا يستحق برأيه الشريف .
أقمناه مقام نفسنا في ذلك المقام ، وفوضنا إليه النقض
والابرار . ، والعلامة السلطانية حجة لما فيه مرقوم .
محققة لما فيه من منطوق ومفهوم . فليتحقق من وقف على
هذا الخطاب ، ومن عنده علم الكتاب ، من أهل مكة
ومن في جوارها ، وطَيِّبَةَ العليبة وسائر أقطارها ، وبقية
الثغور الباسمة لدولتنا بمباسم السرور من حاضرها وباديها ،
أنا أعطينا القوس باريها ، فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح
إلا لها . سدد الله سهام رأيه في أغراض الصواب ، وفتح

له بمفاتيح السمر كل مغلق من الابواب ، ماسقطت من
كف الثريا الخواتم ، ورقت على منابر الاغصان خطباء
الحمائم والسلام » .

واستمر أبو طالب تحت مراعاة والده إلى أن
مات أبوه في سنة عشرة بعد الالف ، ولحقه أخوه
عبد المطلب . فاستقل بالملك من غير شريك فيه ، وهنأه الله
تعالى بما صار إليه ، وأصلح الله تعالى به أمور البلاد والعباد .
وقام بأعباء الملك ، وأظهر السطوة ، وقهر الاكابر والاعيان
على الانقياد لاوامره ، والانزجار لزواجره . فهابته النفوس ،
وأنصف في أحكامه ، وسار السيرة المرضية . وكان حسن
الهيئة ، شديد الهيبة ، فاذا حضر الناس مجلسه سكتوا لمهابته .
وكانت تخافه البوادي ، وأهل النوادي . وكان سخياً
ندي الكف . ومما يحكى من كرمه ، أنه زار النبي
صلى الله عليه وسلم قبل أن يلي أمر مكة . فلما أمسى نزل
في واد هناك ، هو ومن معه ، فأضافه رجل من أهل الوادي
يقال له السوداني ، فذبح الذبائح ، ومدّ الموائد ، وقدّمها .
ثم بلغه أن الشريف أبا طالب لم يأكل من ذلك الطعام ،
ولم يحضره لشغل عرض له ، فعمد السوداني إلى أربع أو خمس
دجاجات فذبجهن ، وطبخهن وقدّمهن ، على كيلتين

من العيش ، في زبدية كبيرة من الصيني ، وجاء بها إليه هـ
وقال له : ياسيدي هذا عشاء عبدك ، اجبر خاطره جبر الله
خاطرك . فغسل الشريف يده ، وأكل من تلك الزبدية
لقيمات ، ودعا له . فلما استقل بالولاية وفد عليه
السوداني بعد سنة ، فقال له الشريف : الزبدية التي تعشينا
فيها عندك ، فقال : نعم ، فقال اثني بها . فملأها له
ذهباً . وله كثير من هذا القبيل . ولاهل عصره فيه مدائح
كثيرة فمنها قول الامام عبد القادر الطبري مهنتاً في
بعض غزواته :

بِسْمِ الْقَنَا وَيُضِ الصَّوَارِمْ
تَنَالِ الْعُلَى وَتَنَالِ الْمَكَارِمِ
وَبِالْمُرْسَلَاتِ بَلُوغِ الْمُنَى
وَبِالْعَادِيَاتِ نَوَالِ الْغَنَائِمِ
وَلَوْ لَمْ يَحُلْ لَيْلُ ذَا الْعِجَاجِ
لَمَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
وَلِي سَيِّدٌ مَالَهُ فِي الْوُغَى
شَبِيهِ سَوَى جَدِّهِ ذِي الْعِزِّائِمِ

يُجِيلُ الحروب ويَجْلُو الكروب
وينفي اللّغوبَ ويُزري بحاتم
لقد أذُكرتُنا فتوحاته
مغازي الأئمةِ من آل هاشم
له النصرُ بالرعب من أشهر
ومن شأنه قسم مال الغنائم
إذا ما بدا للعدا جفضل
ولم يكُ فيه فكلُّ مقاوم
وان قيل فيه أبوطالب
فمن ذا يلاقيه إلا مسالم
تراه يخوض بحور النحور
بجرْدٍ تجاذبُ جذب الطرايم
هي البرق في السبق لو لم تكن
لها غزوات بتلك الحماحم
يحقُّ لها الزهوُ بابنِ النبيِّ
سليل الصفيِّ عليِّ المعالم

من اتخذ الدرع تعويذة
وطول النجاد تمام التمايم
سناء النبوة في وجهه
كفى شرفاً عن طراز العمائم
وأوصافه الغرّ بين الأنام
بها غنية عن طوال التراجم
فما حاول الخطب إلا وكان
له الفتح والنصر عبداً وخادم
فيا سيّداً سُدّت كلّ الملوك
من اُتُخِّلَص العُربِ ثم الاعاجم
فهل ملكٌ أنت في الأرض أم
مليك فعُدلك أنسى المظالم

وبالجملة فهو من سراة الاشراف ومشاهير ولاية الحجاز .
قال الشُّلِّي: وكانت ولادته في سنة خمس وستين وتسعمائة ،
وتوفي ليلة الاثنين لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة
اثنى عشرة بعد الالف ، بمحل يقال له العشة من جهة
اليمن ، وحُمِل إلى مكة ودفن بالمعلاة وبُني عليه قبة
كبيرة يزار بها .

* * *

(الأمير أحمد) بن رضوان ، بن مصطفى . الامير الكبير ، نائب غزة ، وأمير الحاج ، كان أبوه الامير رضوان . من كبار الامراء في زمن السلطان سليم بن مراد (١) . وأما جدّه مصطفى ، فانه كان في رتبة الوزراء في عهد السلطان سليمان ، وأرسل إلى فتح بلاد اليمن ، وكان يعرف في بلاد الشام بأبي شاهين ، قيل لكثرة حمائه الشاهين الطائر المعروف على يده عند الصيد . ونشأ ولده الامير أحمد هذا ، في دولة باهرة ، وكان شجاعاً بطلاً ، وعقله في غاية الرزانة . وله مطالعة في كتب التاريخ وبعض الفنون ، وقصده الشعراء ومدحوه ، وخللوا مدحه في مجاميعهم . فمنهم أبو المعالي الطالوي فانه مدحه بقصيدة ميمية ، عجيبة في بابها ، عند عوده من القاهرة ، ومروره بغزة ، ومطلعها قوله :

ولما أَرَتْنَا العيسُ غَزَّةَ هَاشِمٍ
 عياناً أَنَّنْخُنَاها بِتلكَ المعالِمِ
 رواجعُ من مصر نوازعُ للحمى
 حمى الشام تهدي بالبروق البواسمِ

(١) كذا الاصل ، وليس هناك سلطان عثماني اسمه « سليم بن مراد » والصواب : أنه « سليم بن سليمان » .

وقد ذكر فيها ما شتمل عليه الطريق من المراحل. فلأجل
هذه الفائدة ذكرت منها محل ذلك بتمامه وذلك قوله :

أضياء لها البرق الشامي مرة
فأثر في أخفافها والمناسم

الضميران للعيس المقدم ذكرها وبعده قوله :

حننت وحننت اذ أضياء وانما
حنيني لوتدري لبرق المباسم
وأعدى حصاني قطعها البید فانثني
يجوب الفلا جوب النياق الرواسم

فودّع ربع العادلية سائراً
ولم يُشْنِه عن سيره لوم لائم
ووافي ربوع الخانقاه عشية
ومرّ على بلبیس مرّ النسائم

وأصبح خطاراً بخطارة المنى
وجاز بها كالبرق لاح لشائم
وجاوز ورد الصالحية كالقطا
لقطية ليلي قبل ورد الحوائم

ترفع عن بشر الدويدارِ قدره
وخلفها مطروقة للسوائم
وأهوى لبشر العبد كالنجم غائراً
لأمّ الحسا والليل وحف القوادم
وقابله رمل العريش فعاقه
عن السير إذ خانته إحدى القوائم
ونغيبه عن حسه هول صعقة
تخرّ لها كوم المطيّ الروازم
فودّعته طرفاً أغر محجلاً
كريم السجايا من عتاق كرائم
وقلت له هلا حملت على وجا
فتى سيره للشام ضربة لازم
فقال مقالاً كنت أجهل قدره
وعيناه فاضت بالدموع السواجم
أتشكو الجوى اذ جئت غزوة ماشم
وفيهما أمير أريحي المكارم
سمي نبي الله أحمد من غدا
حديث نداه ناسخاً ذكر حاتم

كثير رماد القيدِ دانٍ نواله
طويل نجاد السيف ماضي العزائم
سليل الملوكة الصيد من خضعت له
قبائل من تيمٍ وقيسٍ ودارم
وذو النسب الوضاح والجوهر الذي
أقام فرنداً في متون الصوارم
أمير تردّي المجد درعاً وشاحه
طوال العوالي في طوال المهازم
وقد ألف البيض الصوارم والقنا
وقتل العدا من قبل عقد التمايم
أخو الحرب يغشى الليث والليث مشبل
وتخشاها في الهيجاء أسد الضراغم
ترى بابسه للوافدين محطة
فمن راحل مشن وآخر قادم
وردت حماه مستفيضاً نواله
فرحاني عنه بأسنى الغنائم
فلا زالت الأقدار تخدم سعيه
بغزة في عز مدى الدهر دائم

وكان يحب مذاكرة العلوم . ويسأل العلماء عن الأحكام ، ويعظمهم ويكرمهم . ويصل علماء بلده وغيرهم ، وانتشأ في أيام حكومته بغزة علماء وفضلاء سيأتي ذكرهم . ورزق من السعادة حظاً عظيماً واستولى على مملكة غزة ما يقرب من ثلاثين سنة من غير عزل يقتضي رحيله عنها . وسكنها وتولى إمارة الحاج الشامي سنين عديدة ، بعد الأمير قانصوه أمير عجلون وما والاها من بلاد الكرك . وكان يحضر إلى دمشق في بعض الاعوام ، وعمّر بها بالقرب من باب البريد ، بيتاً محكم البناء حسن الوضع وأنفق عليه مالاً كثيراً ، وكان له أولاد كلهم من بنت المرحوم درويش باشا صاحب الجامع المعروف بالدرويشية خارج دمشق ، ونحاهم لأمتهم حسن باشا ، الوزير ابن الوزير . وتفرغ في آخر عمره لبعض أولاده عن إمارة غزة ، وأرسل إلى طرف السلطنة قاصداً بتحف وهدايا كثيرة ، وطلب أن يصير أمير الأمراء ببعض المدن الكبيرة ، على طريق التقاعد المعروف الآن في الاصطلاح ، فأجيب إلى ما طلبه . وكان ذلك في سنة تسع بعد الالف وأقام إلى أن

مات . وكانت وفاته في سنة خمس عشرة بعد الالف .
رحمه الله تعالى .

* * *

(الامير احمد) بن طرباي ، بن علي الحارثي ، أمير
اللاجون ، من قبيلة حارثة ، ينتهي نسبهم إلى سنبس ،
بكسر السين وسكون النون وكسر الباء الموحدة وبعدها سين
مهملة ، من طي . وهؤلاء القوم لهم قدم في الامارة ،
مازالوا في جينين ، وما والاها من البلاد . لهم العزة
والحرمة . وأحمد هذا نبغ من بيتهم ، وحيداً في المفاخر
والشجاعة ، وكان له الرأي الصائب والطالع المسعود والعهد الوفي .
ولي في مبدأ أمره حكومة صفد ، ثم تولى حكومة اللاجون ،
بعد موت أبيه طرباي في سنة عشر بعد الالف . ووقع
بينه وبين فخر الدين بن معن حروب كثيرة . وكان ابن
معن توجه إلى بلادهم ثلاث مرات للمحاربة . ورحل بن طرباي
إلى الرملة . وكان في كل مرة يكسر عسكر ابن معن ،
ويدحضه . وأشهر وقعاته معه وقعة يافا ، وكان هو ،
وحسن باشا حاكم غزة ، والامير محمد بن فروخ أمير
نابلس ، فقتل من جماعة ابن معن مقتلة عظيمة . وغنم
غنيمة وافرة جداً . ومما شاع له في صدق العهد ، ماوقع

له مع ابن جانبولاذ مع ابن سيفا : وكان ابن سيفا هرب إلى محل حكومة ابن طرباي ، فأكرمه وأظهر له مايليق بأمثاله ، وكان ابن سيفا خرج إليه ومعه سبعة رجال من جماعته . وكان معه من الاموال والذخائر ما لا يدخل تحت الاحصاء . فأرسل ابن جانبولاذ إلى ابن طرباي برسالة ، وذكر له أنه يجتهد في قتل ابن سيفا ، وله جميع مامعه من المال ، وان لم يفعل جوزي بالعقاب الشديد . فكان جوابه إن هذه كلمة لا تقال ، ومن وقع في مثل هذا فعثرته لا تقال . ثم بادر إلى اكرام ابن سيفا أزيد مما كان عليه ، وأهداه خيولاً وغير ذلك ، وكان من خطابه له ، لو كان لي مال لقدمته اليك ، ولكن عندي خيول ، وفيها جواد لم يسْعَلْ ظهره أحد بعد أبي ، فهو لك مني هدية . وأقام ابن سيفا عنده أياماً ، إلى أن راسل عسكر الشام بأن يقدموا عليه حتى يأتي معهم إلى دمشق . ولما وردوا تجهز معهم ، وأتى من طريق حوران إلى دمشق . وتمام قصته نذكرها ان شاء الله تعالى في ترجمته في حرف الياء . (١) وكانت وفاة الاسير أحمد سنة سبع وخمسين وألف ، وقد قارب الثمانين . وقد ولي الحكومة بعده ابنه زين ، وكان شجاعاً عاقلاً

(١) أي في ترجمة « يوسف بن سيفا » .

حليماً ، ثم ولي بعده أخوه محمد ، وكان جواداً سمح الكف
ممدحاً ، توفي ليلة السبت سابع عشري جمادى الثانية
سنة اثنتين وثمانين وألف ودفن بجينين . وقام من بعده
ابن أخيه زين المذكور ، وصالح ، ثم يوسف بن علي ،
ابن عمتهم إلى سنة ثمان وثمانين وألف ، فخرجت الحكومة
عنهم ووليها أحمد باشا التريزي ، وتصرفت فيها السلطنة
إلى يومنا هذا . واللجون موضعان : الأول مدينة بالاردن
قديمة وهي قرية يسكنها بعض أناس قلائل حكى ان ابراهيم
الخليل عليه السلام سكن هذه المدينة ، ومعه غنم له .
وكانت المدينة قليلة الماء فسألوه أن يرتحل عنهم لقلة الماء ،
فضرب بعصاه على صخرة هناك فخرج منها ماء كثير ،
حتى عم أهل البلد ببركته ، والصخرة باقية إلى وقتنا هذا .
والثاني منزل في طريق المدينة قرب البلقا والله أعلم .

* * *

(مولاي أحمد) بن عبد الله ، بن محمد الشيخ ،
أبو العباس المنصور ، بن الخليفة المهدي ، ابن أبي عبد الله
القائم بأمر الله ، الشريف الحسيني ، ملك مراکش وفاس ،
السلطان ، العالم ، الأديب . كان من أمر جلده الشيخ .
انه كان في بداية أمره من أهل العلم ، وكان مجتهداً في

تحصيل الكمالات ، فاطلع على شيء من الجفر (١) ورأى
ان طالعه يوافق الملك ، فصار قاضياً في نواحي السوس
من ديار الغرب ، ثم وثب على بني حفص المنتسبين إلى
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلم يزل يقاتلهم حتى
ملك ديارهم ، وعفا من السلطنة آثارهم . وقتل كثيراً
من العلماء ، ومن جملة من قتل الشيخ الزقاق . وكان يقول
من قتل سوسياً كان كمن قتل مجوسياً . فلما مسكه قال
له أنت زق الضلال . فقال له ، لا والله ، بل أنا زق العلم
والهداية ، فيجعل عليه هذا الكلام حجة وبه قتله . واستمر
يؤسس قواعد ملكه إلى أن مات في سنة أربع وستين وتسعمائة .
وقام بالأمر بعده ولده عبد الله ، وتوفي . فتولى الملك بعده
ولده محمد ، أخو مولاي أحمد صاحب الترجمة ، وكان أكبر
أخوته . ولما جلس على سرير السلطنة أظهر مولاي أحمد
المنصور انه غير طالب للملك ، وانه لا ينفق رأس مال عمره
في غير ما للعلم من كنوز ومطالب . فلما مات أخوه ،
قام ولده في محله ، واستولى عليه الغرور وأشار عليه

(١) علم الجفر : علم يدعي أصحابه أنهم يعرفون به المستقبل
إلى انقراض العالم .

بعض خدمته بقتل من بقي من أعمامه . فلما علم بذلك مولاي أحمد ، وجف بجيش من الروم ، ومعه أخوه ، وجيش من عنده ، وقاتله فتحت على ابن أخيه الهزيمة . وذهب إلى ملك الفرنج فأمدّه ، ورجع إلى الحرب ثانياً فتقاتلا . ولما تمت عليه الكسرة ثانياً ، أسرع إلى البحر وأغرق نفسه . فتبرجت لمولاي أحمد عروس تلك الممالك ، وثبتت قواعده ، وارتفعت معاهده . وكان موادعاً لسلاطين آل عثمان ، فيرسل اليهم بالهدايا في كل سنة ، وكانوا هم يرسلون اليه المكاتيب ، والخلع السنوية ، حتى ان السلطان مراد بن سليم خان كتب اليه في اثناء مكاتيبه : لك علي العهد أن لأمدّ يدي اليك إلا للمصافحة ، وان خاطري لاينوي لك إلا الخير والمسامحة . ورسله دائماً تأتي إلى قسطنطينية من جانب البحر ، ويمكثون زمناً طويلاً ، ويتعهدون الوزراء ، ويكاتبون من له قرب إلى الدولة . ولم يحصل لأحد من أولاد محمد الشيخ ما حصل لهذا المنصور ، فانه قد طالت في الملك مدته ، واتسعت مملكته ، وقويت شوكته . وكان ابتداء ملكه من حدود افريقية ، إلى حافة البحر المحيط ، وملك حصّة من بلاد السودان .

وكان ابتداء تملكه في آخر سنة خمس وثمانين وتسعمائة ،
واستمر سلطاناً ثمانية وعشرين سنة . وكان له أولاد قد
فرقهم في البلاد ، فجعل الأكبر وهو مولاي محمد الشيخ
في فاس ، وجعل زيدان في مكناس ، وكان هو بنفسه
يقوم في مراکش . وكان سلطاناً عادلاً عظيم القدر ،
حسن التدبير ، أديباً . له شعر نضير ، عليه رونق السلطنة .
أنشد له الحفاجي في كتابه قوله :

حرام على طرف يراه منام
وأنسى لجسم قد شفاه سقام
وكيف بقلب في هواه مقلب
وأين له بين الضلوع مقام
فيأشادناً يرعى الحشأنت الحشا
أما لمحل أنت فيه ذمام
والبيت الأخير مما تداولت بمعناه الشعراء وأجود ما قيل
فيه قول الأرجاني :

يرمي فؤادي وهو في سودائه
أتراه لا يخشى على حوبائه

ومن البلية وهو يرمي نفسه
أن تطمع العشاق في إبقائه

وقول مهيار :

أودع فؤادي حرقاً أودع
ذاتك تؤذي أنت في اضلعي

أمسك سهام اللحظ أوفارمها
انت بما ترمي مصصاب معي
موقعها القلب وانت الذي
مسكنه في ذلك الموضع

ومن المشهور من شعر مولاي أحمد :

لا ولحظٍ علّم السيف فقد
وقسوام كقنا الخط ميمد
ووميض لاح لما ابتسمت
من ثنايا مثل درٍ أو بسر
ماهلل الافق الا حاسد

لعلاما وبهاها والسعيد

ولذا صار عليلا ناحلا

كيف لا يفتني نحولا من حسد

وهذا منوال لطيف وأسلوب ظريف تنوعت في
قوالبه الشعراء ومثله في حسن موقع القسم قول ابن
المعتز في قصيدة :

لا ورمضان النهود
فوق أغصان القدود
وعناقيد من الصد
غ وورد من خدود
وبدور من وجوه
طالعات بالسعود
ورسول جاء بالمسيح
سعاد من غير وعيد
ونعيم من وصال
وشقا طول الصدود
مارأت عيني كغيد
زرني في يوم عيد

وهذا القسم وأمثاله عد من المحسنات البديعية .
واليد أشار صاحب الكشف أيضاً . ولم يفهمه كثير من

الادباء . لظنهم انه من معاني الكلام الوضعية ، ولا وجه
لجعلها محسنة . ووجه حسنه انه لما بولغ في عظم الشيء ،
أقسم بغير الله تعالى إعلاماً بشرف المقسم به ، ففيه نكتة
زائدة على مجرد القسم ؛ ألا ترى انهم لم يعدوا والله ، وتالله
وبالله من القسم الاصطلاحي انتهى . ومن املاء حافظ
المغرب أحمد المقرئ . لمولاي أحمد قوله :

إن يوماً لناظري قد تبدى
فتملى من حسنه تكحياً
قال جنفي لصنوه لا تلاقي
إن بيني وبين لقياك ميلاً
ومن أدبه الباهر أن بعضهم أنشده قول الأبيوردى :
ولو أني جعلت أمير جيش
لما حاربت إلا بالسؤال
لأن الناس ينهزمون منه
وان ثبتوا لأطراف العوالي
فقال لو كان البيت لي لقلت :
ولو أني جعلت أمير جيش
لما حاربت إلا بالنوال

قال الخفاجي . وأين كلام سائل مل السؤال ، من
كلام ملك يملك القلوب بالنوال انتهى. وقيل عليه رأي
مولاي أحمد رأي الملوكة ، فان ذلك شأنهم. ومن هذا ما قيل
في شواهد المطول :

والجراحات عنده نغمات
سبقت قبل سيبه بنوال
وهذا أبلغ من قول ابن النبيه :
وتهزه في السلم نغمة طالب
طرباً ويوم الحرب صرخة ضارب
وقد أشار إلى ماجنح اليه مولاي أحمد ، ابن الرومي
في قصيدة طويلة مشهورة بقوله :
وحارب من نعمائه ريب دهره
من البر والمعروف جند مجند
ومنها قوله :

له صورة مكتنة في سكة
كما اكنن في الغمام الجراز المهند
بجهل كجهل السيف والسيف منتضى
وحلم كحلم السيف والسيف مغمم

قال الحفاجي : انتقدت عليه انه كرّر السيف أربع
مرات ، وثلاث منها محل الاضمار ، ومثله يخل بالفصاحة .
ثم قال : وردّ بأنها كدعائم الحباء ، لورفعت واحدة انهدم .
ووجهه أن تغاير الصفات ، منزل منزلة تضاد الموصوفات ،
وكذا تغاير أوقاتها ، وكرّرت هنا لتدل بطريق الكناية
الايمانية على ذلك ، حتى كأنه السيف . ودلالة اللفظ عليه
في كل حال بمنزلة دلالة المشترك على معانيه . وهذا نقله
الشيخ في دلائل الاعجاز عن صاحب . انتهى ملخصاً .
وكانت محظية من حظايا مولاي أحمد غضبي ، فجاءه
رجل من بستان بودرة في أوّل ظهور الورد ، فأرسلها
لها مع هذه الابيات استعطافاً لها :

وافى بها البستان صنوك وردة
يقضي بها لما مطلّت عهوداً
أهدى البهار محاجراً وأتى بها
في وقته كيما تكون خدوداً
فبعثتها مرتادة بنسيمها
تثني من الروض النضير قدوداً

وبالجملة فأشعار المنصور كلها جارية على نهج الرقة
والعذوبة ، وفيما أوردناه له كفاية . وأما جلالة شأنه
وعظم قدره فمما تكفلت بهما شهرته وأخباره ، وحاشية
من العلماء والادباء ، كالمقري ، والثعالبي ، وأضرابهما .
وتوفي في سنة اثني عشرة بعد الالف .

* * *

(السلطان أحمد) بن محمد ، بن مراد ، السلطان
الاعظم ، والحاقان الافخم ، أعظم ملوك آل عثمان ،
وأحلمهم ، وأكرمهم . كان سلطاناً ، عظيم القدر ،
جميل الذكر ، محباً للعلماء ، وآل البيت ، متمسكاً بالسنة
النبوية ، حسن الاعتقاد ، معاشراً لارباب الفضائل ،
سمح الكف ، جواداً ، لاتزال احساناته للفقراء واصلة ،
وعطاياه لارباب الاستحقاق مترادفة . وكان مائلاً إلى الأدب
والمحاضرات ، وله شعر بالتركية ، ومخلصه على قاعدة
شعراء الروم ، بنحوي . ومما يروى له من الشعر العربي
قوله ، وأجاد :

ظبي يصول ولا اتصال إليه
جرح الفؤاد بصارمي لحظيه

ماقام معتدلاً وهز قوامه
الا تهتكت الستور عليه
يسقي المدامة من سلافة ريقه
ويخصنا بالغنج من جفنيه
عيناه نرجسنا وآس عذاره
ريحاننا والورد من خديسه
ياشعرني بصري ولا في خده
اني أغار من النسيم عليه
عجبي لسلطان يعز بعدله
ويجور سلطان الغرام عليه
لولا أخاف الله ثم جحيمه
لعبدته وسجدت بين يديه
قلت: والبيتان الاخيران من جملة قصيدة لابن رزيك
الشيخي ، ومطلع قصيدته قوله :
ومهفهف ثمل القوام سرت إلى
أعطافه النشوات من عينيه
ولما توفي والده ، كان الوزير له اذ ذاك قاسم باشا .

فأخفى الوزير موت السلطان ، ودخل إلى داخل بيت السلطنة ، وذكر للسلطان أحمد المذكور كلاماً ، يقتضي أن يلبس السواد ، ويحضر في الجمع ، ويجلس على الكرسي . وإذا حضر أعيان العلماء ، وأصحاب المناصب ، وأركان الدولة من أكابر الوزراء والأمراء ، وقبلوا يده وبايعوه على السلطنة على قانونهم ، فيقول لهم كل واحد منكم يحشي على طريقه ، ويصله كمال الشفقة ، ونهاية المرحمة . فلما صدر ذلك خرج الوزير ، وأرسل وراء الأعيان والوزراء فحضروا ، وأخذ كل واحد منهم مجلسه . فبعد هنيئة رأوا شاباً حسن الوجه ، رقيق الجسم ، تعلوه هيبة عظيمة ، ووقار جسيم ، فجاء حتى جلس على كرسي السلطنة ، وعليه ثياب سود ، ومثزر من الصوف على رأسه ، على عادة آل عثمان فيما يلبسون عند موت واحد منهم . فلما جلس علموا أنه ، السلطان ، وتحققوا موت والده . فقاموا وقبلوا يده وحدثهم بما عهد اليه به الوزير ، وانقضى المجلس على ذلك . وشرعوا بعد ذلك في تجهيز السلطان محمد ودفنه . وكان ذلك نهار الأحد سابع عشر شهر رجب سنة اثنى عشرة وألف ، وكان عمر السلطان أحمد يومئذ

أربعة عشر سنة ووافق تاريخ جلوسه مخلصه بنحني . وقيل
في تاريخه أيضاً ، هو خير السلاطين . ووقفت وأنا بالروم
على مجموع بخط بعض الافاضل لا يحضرني اسمه ، أنشأ
فيه تواريخ آل عثمان شعراً ويستخرج التاريخ بطريق
التعمية . ولم يعلق في خاطري الا تاريخ جلوس السلطان
أحمد صاحب الترجمة وهو :

سلطاننا أحمد عزّت ولايته^١

تاريخها في اسمه للناس إن حسبوا

أعداد مضر وبه اضرب في الأصول وفي

ثانيه رابعه يحصل لك الارب^٢

ولما التحم أمره ، ابتداءً بارسال وزيره علي باشا
الوزير الاعظم ، إلى جهة المجر بالعساكر ، فمات وهو
متوجه . فعين مكانه محمد باشا ، الذي كان سرداراً (١)
في روم ايلي (٢) . ثم بعد ذلك سعى في الصلح مراد باشا ،

(١) السردار : هو قائد الحملة العسكرية .

(٢) المقصود من كلمة « روملي » عموماً ، أراضي الدولة العثمانية
في أوربا . إلا أنه كان هناك ولاية بهذا الاسم أيضاً ، وتحتوي المنطقة
جنوبي بلغاريا .

بين السلطان والمجر ، على مدة عشرين سنة . ودخل إلى
الديار الرومية برسل الكفار ، ومعهم الهدايا والتحف ،
فقبل السلطان أحمد ذلك . ثم سعى في قطع دابر البغاة
الخارجين على السلطنة في أيام والده . وقد كان جرى
على أيامه منهم ما لم يجر على أحد من أهل بيته ، ممن تقدمه
ولا تأخره ، حتى إنهم ملكوا غالب النواحي والبلدان ،
وقويت شوكتهم ، وكبر شأنهم . منهم حسين باشا الذي
كان حاكماً في بلاد الحبشة . ونخروجه أسباب يطول الكتاب
بذكرها ، فأفسد ، وجبى الاموال من البلاد ، وأحرق بعض
النواحي من بلاد قرمان (١) ، ونواحي أناتولي (٢) .
وقتل وسبى وأسر بعض القضاة ، واستمر في غلوائه ،
حتى وصل إلى مدينة الرُّها ، وبها العاصي الذي أسس بناء
السكبانية ، وهو عبد الحلیم اليازجي . فلما وصل المدينة

(١) ولاية من الولايات العثمانية في آسيا الصغرى ، وتمتد غربي
وشمال غربي كيلىكيا .

(٢) الأناضول . وهي بمعناها العام ، أرض آسيا الصغرى
(تركيا الآسيوية الحالية) . إلا أنها بمعناها الخاص ، ولاية من ولايات
الدولة ، وتمتد غرب آسيا الصغرى وحتى وسطها .

المذكورة التقى صلان صائلان ، واجتمع ثعبانان متشعبان .
وأبرز كل منهما للآخر حكماً ، يشهد بأن آل عثمان
قد أمروه بقتل الآخر . وقد اتفقا على المخالفة لآل عثمان
دفعة واحدة ، ونزلا في قلعة الرُّها ، وتحالفا أن لا يتخالفا .
فلما شاع توافقهما عين السلطان لقتلهما الوزير محمد باشا
ابن سنان باشا ، وضم اليه عساكر الروم ، والشام ،
وحلب ، وغيرهما . فرجع الأمر لتسليم عبد الحليم لحسين
باشا ، وأرسل يطلب رهناً من العسكر السلطاني ، على
أن يدفع لهم حسين باشا ، ويتركوه هو في القلعة حاكماً .
فأرسلوا له من عسكر دمشق كنعان الجركسي ، وهو من
أعيان عسكر دمشق وبكر دواتدار (١) وحاكم دمشق
نخسرو باشا الخادم وجماعة فأذعن لإعطاء حسين باشا
وسلمه . ولما أخذت العساكر السلطانية حسين باشا ، مالت
إلى ترك اليازجي في قلعة الرها لأن العهد هكذا صدر منه .
فغضب لذلك السردار محمد باشا ، وعرض ذلك للسلطان أحمد
وكاد أن يقتل بسببه حاكم دمشق نخسرو باشا المذكور ،

(١) دواتدار (أو دويدار) : حامل دواة الخبر . وهو من هيئة
الكتاب .

لولا أن تداركته المعونة . واستمر عبد الحليم عاصياً حتى قدم عليه الوزير حسن باشا ، ابن الوزير محمد باشا مع العساكر السلطانية بأسرها ، فالتقوا بجمع البغاة وكبيرهم عبد الحليم ، وأخوه حسن ، في مكان يقال له ألبستان من نواحي مرعش (١) ، فاقتتلوا هناك وكسر عسكر البغاة وقتل منهم ما يزيد على أربعة آلاف رجل . ثم ان عبد الحليم مات في قصبة سامسون (٢) . واجتمع البغاة على أخيه حسن ، وكان أشجع من أخيه . فوصل إلى الوزير المذكور . وطلبه للمقابلة فخرج إليه بمن معه من العساكر ، فدما ثبتوا قدام البغاة لحظة ، حتى كسروا وهرب حسن باشا إلى قلعة توقات (٣) ، وما رفعوه إلا بالحبال . وهجم العدو على المدينة بأسرها . وصارت عساكر السلطان في أسر البغاة ، ماعدا حسن باشا مع بعض الخواص فانه اعتقل في القلعة . وأغلقت أبواب القلعة والعدو يحفها ، إلى ان وقع

(١) مدينة في تركيا ، قريبة من الحدود السورية التركية .

(٢) مدينة في تركيا ، على الساحل الجنوبي البحر الأسود ، غربي طرابزون .

(٣) مدينة شمالي تركيا ، وخطوبي سامسون .

موت حسن باشا على يد بعض خدمه كما سنذكره في ترجمته . فرحل حسن الخارجي عن توقات ، وتقرب من جانب قرا حصار (١) . ثم إن جماعة قربوه إلى خاطر السلطان وقالوا له ان يقنع بمنصب في بلاد الروم ، فأعطوه مدينة طمشوار (٢) ، وهي في أقصى مدن الاسلام ومنها بداية ولاية الكفر . فدام فيها مدة طويلة ، وحسن حاله ، وقلت أحقاداه ، وخدم خدمة حسنة ، إلى ان قدر الله عليه المخالفة بينه وبين أهل ولايته ، فأخرجوه منها . فذهب إلى مدينة بلغراد ، فوضعه حاكمها في القلعة ، مكرماً في الظاهر محبوساً في الباطن . وعرض أمره إلى السلطان ، فأرسل أمراً إلى حاكم بلغراد بقتله ، فقطع رأسه . وخرج بعد ذلك على السلطنة ابن جانبولاذ حاكم كلّس ، وعزاز ، ووصل إلى أن جرد العساكر ، وقاتل عسكر السلطان على حماة . وكان رئيس العساكر الامير

(١) مدينة في الوسط الغربي من تركيا ، وإلى الشمال الغربي من قونية .

(٢) مدينة في أقصى غربي رومانيا ، وقرية من حدودها مع يوغوسلافيا .

يوسف بن سيف التركماني حاكم بلاد طرابلس الشام .
وانكسر عسكر ابن سيف ومن معه ، وآل أمر ابن جانبولاذ
إلى الطغيان الزائد ، وجاء إلى دمشق ونهبها ، وسيأتي
تفصيل ما وقع وفعل بدمشق في ترجمته . ثم رحل إلى حلب ،
ومكث بها . وكانت جماعته تزيد يوماً فيوماً ، واشتهر
أمره ، وقوي جأشه إلى أن ورد الوزير الاعظم مراد باشا
إلى قسطنطينية ، من محاربة كفار المجر . وتشاور الوزراء
معه في شأن ابن جانبولاذ ، فكان شورا أن يذهب إليه
وهو بحلب ، وأن يسعى في إزالته وقهره ففعل ذلك .
وورد إلى حلب ، وانتزعها من أعوان ابن جانبولاذ إلى
أن آل الأمر إلى دخوله إلى قسطنطينية . واجتمع مع
السلطان ، وحكى له قصته ، فقبل عذره ، وأعطاه حكومة
طمشوار . ولم يزل على حكومتها إلى أن عرض له أمر
أوجب قتاله لرعايا تلك البلاد . وانحصر في بعض القلاع ،
فعرض أمره إلى السلطان ، فبرز الأمر بقتله فقتل . وأرسل
رأسه إلى باب السلطان . وكان كلما قتل واحداً من البغاة ،
وضع رأسه في مكان تقبل فيه الوزراء ليعتبروا به . وكان
أجل من قتله السلطان منهم نصوح باشا الوزير

الاعظم . وكان سبب قتله أن جماعة جاؤوا إلى السلطان
بمكاتيب ادعوا أنه كتبها لجهة العجم ، فيها التحريض
على عدم الصلح ، والتلويح بمساعدتهم . فحين قرأ السلطان
المكاتيب أرسل خلف بعض الوزراء ، وأمره بفعل وليمة
لجماعة نصوح باشا بأسرهم . وكان نصوح باشا اذ ذاك
متمرضاً ، فجاء أتباعه بأجمعهم إلى الولاية . فحين خلا محله
من أتباعه ، أرسل السلطان جماعة لقتله ، فاستأذنوا في
الدخول عليه ، فقال لهم بعض جماعته : لا يمكن الاجتماع به .
فقالوا : لا بد من ذلك ، فدخلوا عليه ، وليس عنده أحد ،
وأظهروا الأمر السلطاني بقتله . فقال لهم : أمهلوني لأصلي
ركعتين ، فأمهلوه . فقام وتوضأ وصلى ركعتين ، ثم لما فرغ
خنقوه على سجادة الصلاة ، ثم ذهبوا إلى السلطان وأنخروه .
فقال : ائتوني به فجاءوا به فأمر بعوده ودفنه . وكان السبب
في قتله المفتي الاعظم المولى محمد بن سعد الدين . ثم ولى
مكانه محمد باشا زوج ابنة السلطان ، وجهزه بالعساكر
إلى بلاد العجم . ووقع المصاف بينه وبين عساكر العجم ،
وكانت الهزيمة على العجم . ولما رأت الاعاجم ذلك .
أرسلوا استمالوا أتباعه . فحصل التواني ، ووقع الاختلال ،

وقتل من عسكر السلطان جانب كبير ، وعاد بلافائدة .
فغضب السلطان وأراد قتله كما فعل بمن قبله ، ثم عفا عنه
بواسطة أم الوزير بشرط جلوسه في اسكدار (١) .
وكان السلطان أحمد مدة حياته لا يمتز عن عمارة المساجد ،
وفعل الخيرات . ومن جملة آثاره الجميلة انه كسا البيت
الشريف ، وكذلك فعل بالحجرة النبوية ، وكسا أضرحه
جميع سكان البقيع (٢) . وسكان المعلاة (٣) . وكان
أراد أن يجعل حجارة الكعبة الشريفة ملبسة واحداً بالذهب
وواحداً بالفضة فمنعه المولى محمد بن سعد الدين المقي ،
وقال : هذا يزيل حرمة البيت ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى
لجعله قطعة من الياقوت ، فكف عن ذلك . وجعل ثلاث
مناطق من الفضة المحلاة بالذهب أيضاً ، داخل الكعبة
الشريفة ، صوناً لها من الهدم . وأول من حلاها في الجاهلية
عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم .
وفي الاسلام الوليد بن عبد الملك ، وقيل أبوه ، وقيل
ابن الزبير . وحلاهما من العباسيين الامين ، والمتوكل ،

(١) هي الجزء الاسيوي من القسطنطينية (استامبول) .

(٢) مقبرة أهل المدينة .

(٣) المنطقة التي تعملو عن المسجد الحرام في مكة ، وفيها قبور
أهل المدينة .

والمعتضد . وحلَّتْهَا أم المقتدر العباسي ، والملك المجاهد
صاحب اليمن ، ومن ملوك آل عثمان صاحب الترجمة .
ومن آثاره أيضاً تجديد مولد السيدة فاطمة ، وتبويضه . ومنها
عمارة مسجد البيعة ، وهو بالقرب من عقبة منى ، على يسار
الصاعد بينه وبين عقبة منى . مقدار غلوة سهم ، ووهم من
قال انه من منى . ومنها عمارة العين . وأصلح مآثر كثيرة
بمكة . وأنشأ وقفاً من قرى مصر على خدام الحرمين ، لاجل أن
يصرف عاوفة الخدم السنة تماماً . لان في التقديم ما كان يصرف
لهم إلا على حكم النصف . وفي سنة أربع وعشرين وألف
أرسل للحضرة الشريفة فضّين من اللباس قيمتهما ثمانون
ألف دينار ، فوضعها فوق الكوكب الدرّي . وهذا
الكوكب تجاه الوجه الشريف في الجدار ، وهو مسمار
من الفضة ممّوه بالذهب في رخامة حمراء ، من استقبله
كان مستقبلاً الوجه الشريف . كذا قال ابن حجر في الجواهر
المنظم وأنشد بعضهم :

الكوكب الدرّي من شأنه
ينحفي مع الوجه السراج المنير

فكثروا الجوهر أو قلائوا

فالجوهر الفرد عديم النظير

وبعث أيضاً للحجرة بشبايك من الفضة ، المحلاة بالذهب . وأمر أن يرسل اليه بالشبايك القديمة ليجعلها في مدفنه ، الذي أنشأه بقسطنطينية لاجل التبرك فمنعه المفتي ، واعترضه في نقل الشبايك . فقال : نحن نرسلها من البحر ، فان كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها فهي تصل سالمة من غير غرق ، والا فتغرق في الطريق . فأرسلها من البحر إلى الاسكندرية فوصلت سالمة ، ثم أرسلها من مصر إلى المدينة المنورة فوصلت سالمة أيضاً . وكذلك أمر أن يفعل بالشبايك القديمة حين ترسل اليه . فوصلت إلى قسطنطينية من غير أدنى مشقة ، فجعلها في مدفنه كما أراد . وجدّد عمارة العلمين اللذين هما حدّ الحرم من جهة عرفة في سنة ثلاث وعشرين وألف ، على يد الباشا حسن المعمار . وأوّل من وضع أنصاب الحرم خوف اندراسه ، الخليل ابراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام ، بدلالة جبريل عليه السلام . وهي في جميع جوانبه خلا جهة

جُدَّة ، وجهة الجعثرانة ، فانه ليس فيهما أنصاب . ثم
نصبها إسماعيل بن إبراهيم عايهما السلام ، ثم قُصَيَّ بن
كلاب . وقيل ابن عدنان بن أد أول من وضع أنصاب
الحرم حين خاف ان يندرس ، ونصبته قريش بعد أن
نزعوها ، والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة قبل هجرته .
وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح تميم بن أسد فجددها .
ثم ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث أربعة نفر
لتجديدها ، وهم مخزوم بن نوفل ، وسعيد بن يربوع ،
وحويطب بن عبد العزى ، وأزهر بن عبد عوف . ثم
عثمان ، ثم معاوية ، ثم عبد الملك بن مروان ، ثم المهدي
العباسي . ثم أمر الراضي العباسي بعمارة العلمين الكبيرين
اللذين هما حدّ الحرم من جهة التنعيم في سنة خمس وعشرين
وثلاثمئة . ثم أمر المظفر صاحب إربل بعمارة العلمين .
اللذين هما حدّ الحرم من جهة عَرَفة في سنة ثلاث وثمانين
وتسعمائة ، ثم صاحب الترجمة كما ذكرنا . وبعث إلى
بيت المقدس من فضة مطالية بالذهب لتوضع على القدم
الشريف بالصخرة وهي إلى الآن موجودة . وفي شوال
سنة ست وعشرين وألف أرسل لآحمد باشا محافظ مصر ،
يرسل مقداراً من الخزينة لاجل عمارة الحرم النبوي على

حكم الحرم المكي ، فامثل وأرسل . ومات السلطان أحمد قبل الشروع في ذلك . وقال محمد بن عبد المعطي ابن أبي الفتح بن أحمد الاسحاقي ، في كتابه «لطائف الاخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» ، عند ذكر السلطان أحمد : ومن جملة محاسنه انه حصل في بناء الكعبة الشريفة مِيلَان في بعض أحجارها ، فأرسل عمداً من فولاذ مطلية بالذهب ، ومموّه بالذهب ، فطوّقت بها الكعبة الشريفة من الجهات الاربع . وحفظت الاحجار من السقوط . وأرسل ميزاباً من الفضة ، مموّهاً بالذهب ، ووضع موضع الميزاب العتيق . وتسلم أمير الحاج الميزاب العتيق وأرسله إلى السلطان ، ووضع في الخزانة العامرة تبرّكاً . وعمل سُحَابَة (١) بطريق الحاج المصري ، يحمل الماء للفقراء والمساكين ، ووقف عليها أوقافاً ، وهي مستمرة إلى الآن ، وبها النفع العام . ورتب من ريع وقفه لفقراء الحرمين ، وأرباب وظائفهما زيادة في معلومهم ، في كل سنة اثني عشر كيساً تحمل اليهم صحبة الحاج المصري .

(١) فضلة ماء في الغدير .

ثم قال: والذي ضبطه جامع هذه الأرقام بطريق التقريب ورقمه ، حسب ما وصل إليه علمه من أفواه المباشرين والكتاب ، أن الذي يجهز في كل عام إلى فقراء الحرمين ومجاوريهما من صدقات آل عثمان وخدمتهم ، ومن سيأتي ذكره في الديار المصرية ، ماهو من المال النقد المسمى بالصرة ، مائة كيس وأربعة وستون كيساً . بيان ذلك : ماهو من أوقاف الدشيشة (١) الكبرى أربعة وستون كيساً ، وماهو من وقف السلطان مراد سبعة عشر كيساً ، وماهو من وقف السلطان محمد اثنا عشر كيساً ، وماهو من وقف السلطان أحمد اثنا عشر كيساً ، وماهو من وقف الخاصكية (٢) عشرة أكياس ، وماهو من وقف الحرمين عشرة أكياس ، وماهو من وقف الاشراف اثنا عشر ألف نصف ، وماهو من وقف الخدم ثمانون ألف نصف ، وماهو من وقف رستم باشا اثنا عشر ألف نصف ، وماهو من وقف اسكندر باشا عشرة آلاف نصف ، وماهو من وقف سنان باشا عشرون

(١) طعام من القمح ، اعتيد أن يطبخ ويوزع على الفقراء وكانت تخصص له أوقاف .

(٢) المقربون إلى السلطان ، وفريق من حرسه الخاص .

ألف نصف ، وما هو من وقف علي باشا اثنان وثلاثون ألف نصف . وما هو من الحب في كل عام ، ثمانية وأربعون ألف إردب وثمانمائة إردب ، وذلك خارج عن صدقات البلاد الرومية ، والشامية ، والحلبية ، وغالب الممالك الاسلامية . قلت : وذلك شيء لا يحصره ضبط ، ولا يحيط به وصف . وبالحملة فان محاسن هذه الدولة العثمانية كثيرة ، وخيراتهم غزيرة . ومن آثاره التي يقسطنطينية ، الجامع الذي لم يعمل مثله في انشائه ، وإحكام بنائه ، ودقة صنائعه إلى غير ذلك . وله ست منارات حسنة الوضع إلى الغاية ، وداخله مزين بأنواع القناديل من البلور والقاشاني والسدف وغير ذلك . وفيه كل أعجوبة لانظير لها . ولما تم وضعه ، هادته ملوك الاقاليم بالتحف من قناديل الذهب وغيرها ، ائتملق فيه . وبلغت مصارف نفقته نحو نفقة عمارة جامع بني أمية بدمشق . فانه يقال ان الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموي أنفق عليه أربعمائة صندوق من الذهب ، في كل صندوق أحد عشر ألف «ثقال من الذهب . وفي خارجه المكان المعروف بآت ميداني ،

وهو ميدان واسع وبه رصد من نحاس على شكل أفعى .
قيل انه كان رسداً للحيات لكن الآن بطل عمله . فان
السلطان مراد ولد صاحب الترجمة كان كسر منه قطعة ،
فبطل عمله لذلك . ويروى انه بعد تمام بنائه واستحكامه
كان بقي في أحد جوانبه اعوجاج بسبب بيت صغير كان
لعجوز ، وقد أرغبت بالمال الكثير لتبعية فأبت . فاتفق
انها ماتت عن غير وارث ، وآل البيت إلى بيت المال ،
فأضيف إلى الجامع ، وتناسب بذلك وضعه . ومما قيل فيه
من التواريخ تاريخ المولى محمد بن عبد الغني قاضي
العسكر وهو قوله :

ذا جامع مؤسس
على تقى الرب المتين
بناه سلطان السورى
بمعدله الجزل السريز
سمي أحمد الهدى
ظلل إله العالمين
حاولت تاريخاً له
من نص قرآن مبین

فجاء فيه قوله
لَنِعْمَ دارُ المتقين

وبالجملة فان هذا السلطان أعظم سلاطين آل عثمان
قدراً . وكانت ولادته في سابع عشر شهر رجب سنة تسع
وتسعين وتسعمائة ، وقيل في تاريخه : (حفظه الله) . وابتدأه
المرض في شوال سنة ست وعشرين وألف بقرحة في ظهره .
وأخبر عنه مصطفى آغا ضابط الحرم (١) ، انه قبل موته
بيوم ، وكان قبل العصر . صار يقول « وعليكم السلام » إلى
أن قال ذلك أربع مرّات . قال مصطفى آغا : تسلمون على
من ؟ فقال : حضري في هذا الوقت سيدنا أبوبكر الصديق .
وسيدنا عمر ، وسيدنا عثمان ، وسيدنا علي رضوان الله
عليهم أجمعين ، وقالوا لي انك تجتمع بسلطان الدنيا والآخرة
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في غد مثل هذا الوقت ،
فكان كما قال . فمات في ثاني يوم وهو يوم الاربعاء
ثالث عشر ذي القعدة سنة ست وعشرين وألف ، وقد بلغ

(١) أو الكزلا ر آغاسي : الضابط المشرف على غلمان قسم الحرم
في السراي السلطانية . وقد ازداد نفوذه على السلطنة العثمانية في القرن
الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي .

من العمر ثمانى وعشرين سنة، ودفن بجامعة المذكور رحمه
الله تعالى . وخلف من الاولاد أربعة وهم السلطان عثمان ،
والسلطان محمد ، توفي شهيداً في سنة ثلاثين وألف ،
والسلطان مراد ، والسلطان ابراهيم ، وثلاثتهم ولوا الخليفة ،
وقد ذكرتهم في محالهم . وأما وزراؤه فسبعة وهم ياوز
علي باشا ، ومحمد باشا البوسنوي ، ودرويش باشا ، ومراد
باشا ، ونصوح باشا ، ومحمد باشا ، و خليل باشا ، رحمه
الله تعالى .

* * *

(أحمد باشا) بن محمد باشا . الوزير الاعظم ،
المعروف بالفاضل أحمد باشا ، الكوبري الاصل ،
القسطنطيني المولد ، احد وزراء الدولة العثمانية ، بل أوحدهم ،
الذي عزت به السلطنة وافتخرت الدولة . وكان في وقته
من مفاخره السامية ، وأفراده المتعالية ، وبه ظهر رونق
الزمن ، وعلا قدر الفضل . وكان عصره إلى أواسط مدته
أحسن العصور ، وقته أنضر الاوقات . ولم يكن في الوزراء
من يحفظ أمر الدين ، وقانون الشريعة مثله ، صعباً شديداً
في أمور الشرع ، سهلاً في أمور الدنيا . وكان حاذقاً ،
مدبراً للممالك ، قائماً بضبطه . وملك من نفائس الكتب ،

وعجائب الذخائر ، ما لا يدخل تحت الحصر ، ولا يضبط
بالاحصاء . ولد بقسطنطينية ، ونشأ بها ، واعتنى أبوه
بتهاديبه ، وأقرأه العلوم حتى مهر ، وسمت همته نحو معالي
الأمور . وسلك في بداية أمره طريق المدرسين ، ثم عدل
إلى طريق والده ، فتولى ، وأبوه في الصدارة العظمى ،
ولاية أرض روم ايلى ، فظهرت كفايته ، وحمدت طريقته .
ثم انتقل منها إلى حكومة الشام . وأعطىها برتبة الوزارة ،
وذلك في سنة احدى وسبعين وألف . وقدمها وكانت
أمورها مختلفة النظام فأصلحها . وتقيد في أمور الاوقاف ،
وأزال ما بها من محذئات الوظائف ، وغيرها . وركب على
أولاد معن ، وبني شهاب ، وأقام بالبقاع العزيزي
أياماً حتى أزالهم عن بلادهم . وقمع أهل الفتن . وكان قبل
وطأة قدمه دمشق ، ولغت بها أيدي القحط حتى عمّتها .
وبلغت غرارة الخنطة في الثمن إلى ثمانين قرشاً . فنفع الناس
في جلب الحبوب من مصر . وأمر وهو بالبقاع ، بعمارة
قاعة معظمة داخل الامارة بدمشق ، فبنيت على أسلوب
عجيب ، ووضع غريب . ثم طاب من البقاع إلى الروم ،
فسار بالسرعة وعزل عن حكومة دمشق . وجاءه أمر

حكومة حاب وهو ذاهب في الطريق ، ولم يلدخها . وبعد وصوله إلى قسطنطينية ، صار قائماً مقام أبيه فيها . وكان السلطان اذ ذاك بأدرنة ، وأقام أياماً قليلة ، ثم طلب إلى أدرنة . وكان والده قد ابتدأه المرض ، فلما وصلها صار قائماً مقامه في حياته . وبعد أيام قليلة توفي والده ، فتولى مكانه ، وذلك في سنة اثنتين وسبعين وألف . وأرخ بعضهم توليته بقوله : «دولته نعمة الاله» . وسلك طريقاً في وزارته لم يسبقه إليها أحد ، وبلغ من الاحكام ونفوذ القول مبلغاً ليس فيه مستزاد ، ولم يبق للناس سوى التمسك بعنايته ، ومراعاة حاشيته . وكان صائب الرأي ، كامل الفراسة . ومما ينسب اليه من الفطنة ، انه جاء يوماً شخصاً بتوقيع فتفرس فيه أنه مصنوع ، فناوله لأحد جماعته وأمره بحفظه . ومضى على ذلك ست سنوات . فجاءه يوماً شخص آخر برقعة ، فلما رآها طالب التوقيع فجيء به . فقابله على الرقعة ثم سأل صاحبها عن كاتبها فأخبره به ، فأرسل اليه . فلما مثل بين يديه ، أراه التوقيع ، وقال : أليس هذا بخطك ؟ فاعترف بأنه هو الذي كتبه . فأمر بقطع يمينه ، وعيّن له من بيت المال ما يكفيه في كل يوم . وقصده

الشعراء من البلاد ، ومدحه جماعة . منهم والذي المرحوم ،
فانه مدحه بثلاث قصيد ، احداها التي أولها :

طيفٌ يمثله الغرام بفكره
أرجأ يحارُ بطيئه وينشره

وهي قصيدة فائقة في بابها . وكتب اليه رسائل عجيبة
الانشاء ، وترجمه ترجمة استوعب المدح بجميع أفانيه
فيها . وكتب اليه الامير المنجكي في صلر رسالة :

ياسيد الوزراء دعوة مقعد
محت الحوادث رسمه فمسي عسى
فانظر اليه برأفة بل رحمة
يكفيك من جرح الأسى ياما احتسى
قد كان سحبان الزمان فضيلة
قطعت علوفته فأصبح أخرسا

ومن الغزوات التي وقعت أيام وزارته وعين اليها ،
غزوة إيوار (١) عينه السلطان محمد إلى فتحها ، فسار
بجميع العساكر اليها وحاصرها ، ووقع بينه وبين كفار

(١) هي سري فار : قلعة جنوبي غرب المجر .

المجر وقعة عظيمة . ومكروا بعسكره مرات وخلصهم الله تعالى بيد تديره . ثم افتتحها في حادي عشري صفر سنة أربع وسبعين وألف ، وهدم مما يليها قلعة تسمى بالقلعة الجديدة كانت الكفار بنوها ليتحصنوا بها . وبعد ما قدم إلى مقر الدولة واستقر مدة ، وقد قويت شوكته وعظمت سهايته ، أمره مخدومه بالسفر إلى جزيرة كريد لفتح بلدة قندية ، التي كانت بقيت في هذه الجزيرة من بلادها لم تفتح . كما شرحنا ذلك في ترجمة السلطان ابراهيم . فوصلها في خامس ذي القعدة سنة سبع وسبعين وألف وبني بالقرب منها مكاناً كان متهدماً ، لتهيئة مهمات السصار . ثم نزلها بمن معه من العساكر . وكان أهلها حصنوها بأشياء لا يمكن حصرها ، وأضافوا لسورها سوراً آخر عمروه من داخل السور القديم ، وطال الحرب بين الفريقين مدة ثم افتتحها صلحاً في غرة جمادى الاولى سنة ثمانين وألف . ووردت البشائر إلى الاطراف بالزينة وكثرت تبشير الناس بفتحها . وبالجملة فان أمرها كان قد بلغ الغاية ، وطال حتى مل الناس من خبرها ، وأكثر الشعراء من التواخيخ لما افتتح ، وعمدات القصيد العجيبة ، حتى

رأيت بعض الفضلاء أفرد الأشعار التي نظمت في ذلك .
وفي مدح الوزير صاحب الترجمة ، فبلغت شيئاً كثيراً . ومن
نواصرها التاريخ اللغوي المعنوي لصاحبنا الشيخ الفاضل
أحمد الصفدي ، وهو قوله في عام ألف وثمانين عام .
ومن التهنئات قصيدة العلامة الأديب المشهور مصطفى
ابن عثمان البابي الحلبي ، قاضي المدينة المنورة الآتي ذكره
وهي من جيد شعره ومطلعها :

لك الله من ندبٍ اذا همَّ صمما
وطلاع أنجاد إذا أمَّ تمسما
نقاب بأعقاب الأمور محدث
كأن له منها عليها مترجما
اذا عرضت في جانب الملك زيفة
أراها قذى الأجفان أوتتقوما
وقام بأعباء الوزارة ناصحاً
ووطأ فاستقمي وشاد فأحكما
من النضر الغرّ الألى تركت لهم
عزائمهم في غرة الدهر مبسما

إذا ظمئت بيض الظبا في أكفهم
تحاشوا لها ورداً سوى مصدر الظما
لقد قرنوا بالنجدة العلم والتقى
فقد نظموا طعمين شهياً وعلقما
ففي الجذب يستسقى بفضلهم الحيا
وفي الروح يستسقى ببيضهم الدنيا
فيا أسد الله الذي ان يحرم السـ
فريسة أقراهم من الاسد مطعما
ليهنك فتح بشرته سعوده
باقبال عز يملأ الارض والسما
رأيت به الاسلام يلتام شعبه
وقد كربت أركانه أن تهدما
فعلت بجيش الكفر ما أنت فاعل
وجرّعته كأساً من الذل علقما
فأنحرت حتى لم يجد متأخراً
وأقدمت حتى لم يجد متقدماً
وما اختار موج البحر إلا لأنه
رأى موج من موج سيفك أسلما

فطوقتها طوق الحمامة نعمة
وانا لندرجو فوقها لك أنعمنا
إلى أن تعود الأرض بالأمن كعبة
حراماً وكل الدمر شهراً محرماً

وبعد ما مهله أمورها ، وبني ما كان تهدم أيام المحاربة
من مساكنها ، رجع إلى مقر حكومته ، وكان السلطان
اذ ذاك بأدرنة . فأقام مدة ، ثم عينه السلطان إلى محاربة
القوم المعروفين باللية (١) من النصارى ، فسار في جمع
عظيم لم يشهد مثله ، وافتتح قلعة قمنيجة (٢) في سنة أربع
وثمانين . وعاد إلى أدرنة ، وأخذ في نقض الأمور وإبرامها
على الوجه الحميد والرأي السديد . ثم تغيرت أطواره وحببت
إليه العزلة عن الديوان ، وتعاطي المصالح ، واشتغل باتخاذ
الندماء ، وكان مجلسه كله فوائد ولم ينسب إليه ما يشينه
سوى بعض التشاغل عن أمور الرعية . والافقد يقال ان
جميع مزايا الحسن جمعت فيه ، فحاز من كل وصف
كمالاً وغايته . ثم رحل السلطان من أدرنة إلى قسطنطينية

(١) البولونيون .

(٢) مدينة في بودوليا ، في جنوبي بولونيا .

وذلك في أواسط المحرم سنة سبع وثمانين رَأُف فرحل
هو معه . فعند وصوله ابتدأه المرض ، وكان ابتداء مرضه
اليرقان الاسود . وعولج مقدار ستة أشهر فلم يقد العلاج .
واشتد به إلى أن سافر السلطان إلى أدنة ، في شعبان من
هذه السنة ، وخرج هو على أثره من البحر في مركب إلى
بلد سلورية (١) ووصل من البر إلى نواحي جورلي (٢) ،
فأدركه أجله في قرية بالقرب منها . وغُسِّل بها وأتوا بجنازته
إلى قسطنطينية فدفن مما يلي والده ، بترته التي كان أنشأها
بدرج الديوان . وصلي عليه مكان دفنه وذلك نهار الاربعاء
سابع عشري شعبان سنة سبع وثمانين وألف . وكانت ولادته في
سنة خمس وأربعين وألف . وكان قبل وفاته وقف كتبه ،
ووضعها في خزانة بالتربة المذكورة ، ورتب لها أربعة
حفاظ . وفيها من نفائس الكتب ما لا يوجد في مكان ،
وأخبرني بعض من أثق به أنها خمنت بأربعين ألف قرش .
رحمه الله تعالى .

* * *

(أحمد باشا) الوزير الكبير ، المعروف بكوجك أحمد

(١) مدينة شمالي بحر مرمرة ، قرب استامبول .

(٢) مدينة صغيرة ، غرب استامبول .

الارنودي . أحد الوزراء المشهورين بالشجاعة ، وشدة
البأس ، وحسن التدبير . وكان عارفاً بأحوال الحروب ،
وله طالع سعيد ، ورأي سديد . وكان في مبدأ امره خامل
الذكر ، ثم نهض به الحظ حتى صار بكلمربكيا (١) وتولى
حكومة سيواس (٢) . ثم ورد دمشق حاكماً بها ، أولاً
في سنة تسع وثلاثين وألف . وبعد ما عزل عنها ولي حكومة
كوتاهية (٣) . فنجم في بلاد الروم الياس باشا ، وأظهر
العقوق للدولة العثمانية ، فعين السلطان مراد صاحب الترجمة
لمحاربته مع جملة من العساكر . فسار اليه وقابله وفتك
به فتكة بالغة ، وأسره وغنم منه غنائم كثيرة ، وعاد به
إلى الابواب العالية . فأكرمه السلطان لذلك وفوض اليه
ثانياً كفالة دمشق ، وكان ذلك في سنة اثنتين وأربعين
وألف ، ونخلع عليه خلعة الوزارة . وعيَّنه لمقاتلة الامر
فخر الدين بن معن ، وقد كان خرج عن طاعة السلطنة،

(١) بكلمربكيا : تعبير تركي ، يعني (أمير الامراء) ،
ويقصد به (الوالي) .

(٢) ولاية شمال شرقي آسيا الصغرى .

(٣) مدينة إلى الشمال الغربي من تركيا ، وجنوب غربي أنقرة .

وجاوز الحد في الطغيان ، وأخذ كثيراً من القلاع من ضواحي دمشق ، وتصرف في ثلاثين حصناً ، وجمع من طائفة السكبان جمعاً عظيماً . وبالحملة فقد بلغ مبالغاً لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة . وكان في ابتداء أمره تعين لمقاتلته الحافظ المارّ ذكره ، فلم يقابله وهرب إلى بلاد الفرنج كما سلف الایماء اليه . ولما عاد أفرط فيما كان يرتكبه إلى أن تعين له صاحب الترجمة . وأمر كافل حلب نوالي باشا ، وجميع أمراء أطراف الشام ، كطرابلس ، وغزة ، والقدس ، ونابلس ، واللجون ، وعجلون ، وحمص ، وحماة ، أن يكونوا تبعاً له ، وهو رئيسهم . فبعد قدومه إلى دمشق جمع أعيان العلماء ، وكبراء العسكر ، وقرأ عليهم الاوامر السلطانية ، فقابلوها بالطاعة ، وبادروا إلى مهمات تدارك السفر . واخذت أمراء الاطراف يردون ، واحداً بعد واحد ، إلى أن قدم نائب حلب ، فبرز بمن معه من العسكر في ثاني عشر صفر سنة ثلاث وأربعين . وقد كان جدد المحمل الشريف ، فأطلعه أمامه ، وأقام بالقرب من قرية الكسوة بأول الجسور أياماً قليلة ، إلى أن تكامل جمع الجموع . ورحل إلى قره خان ، ثم عيّن شردمة

من العسكر لمنازلة بني الشهاب ، الذين يسكنون وادي
تيم الله بن ثعلبة ، وهم منبع الشقاوة . فسار كتحداه (١)
ومعه بعض الامراء إلى جانب حاصبيا وريشيا ، فاتفق من
الطاف الله ، ان الامير علي بن فخر الدين بن معن أمير صفد
كان متوجهاً لناحية والده لمساعدته ، فالتقى العسكران
عند صلاة الصبح ، فانقضت فرقة العسكر السلطاني انقضا
النسور على أضعف الطيور ، فمزقوهم بدداً ، وفرشوا
الفضا بجثث القتلى . ولم يعلم أحد أن الامير علي بينهم ،
ولو علموا لما ثبت أحد لكبر صيته . وكان من الاتفاق
العجيب ، ان بعض الشجعان صادفه فطعنه برمح رماه عن
جواده وماعرفه . فأثاه رجل من الجند ، وكان خدام الامير
علي في مبدئه فنزل اليه ليحز رأسه ، فعرفه الامير علي ،
فقال له : خلصني : ولك علي من المال ما تريد . فقال له : ان بقاءك
يعد هذه الجراح محال ، ثم قطع رأسه . وأتى إلى مخيم
الوزير فدخل عليه وهو نائم ، فنبهه خدومه الموكلون به ،
ولما أفاق قبل يديه ووضع الرأس قدّامه ، وقال له هذا
رأس رئيس القوم . فلم يصدقه حتى جاء من عرفه ،

(١) نائبه .

وحقق له الامر . فضربت البشائر وكان العسكر الذين تلاقوا مع عسكر الامير علي انتصروا ، وغنموا غنيمة عظيمة ، وقتلوا وأسروا ولم ينج من أيديهم الا شرذمة قليلة . وأرسل أحمد باشا رأس الامير علي إلى دمشق ، في جملة من الرؤوس وأدخلوهم مشرعين على رؤوس الرماح . وجهزوهم بعد أيام إلى الابواب السلطانية . ثم ان أحمد باشا سار إلى البقاع العزيزي ، وافتتح قلعة قبر الياس . وتوجه إلى جانب صيدا وأقام بها مدة شهر ، والأخبار عن الامير فخرالدين مختلفة ، فمنهم من يقول انه في قلعة نيعا ، ومنهم من يقول انه في قلعة جزين . وكان الوزير الاعظم محمد باشا في حلب ، فاستدعى أحمد باشا فزار بخواص اتباعه ، وأبقى جميع العسكر بمدينة صيدا . واجتمع به في حلب ، وعاد بالسرعة . وكان تحقق أن فخرالدين في قلعة جزين ، فأخذ يحاصرها . ولما رأى فخرالدين أنه مأخوذ ، خرج من القلعة ، وأتى طائعا إلى أحمد باشا ، فقبض عليه . وأتى به إلى دمشق . ودخل بموكب حافل ، وفخر الدين خلفه مقيد على فرس ، وكثر دعاء الناس له ، ومدحه شعراء دمشق بالقصائد الطنانة ، وأكثروا من التواخيخ .

ومن جملة من مدحه الامير المنجى فانه مدحه بهذه
الابيات وهي :

إن الوزير أدام الله دولته
أخباره سير في الناس تنتقل
وجاءنا بابن معن بعدما قطعت
صم الصخور عليه وهو معتزل
لم تغن عنه الحصون البيض إذ طلعت
سوء الرزايا عليه اليوم والقليل
ولا الدلاص ولا ذاك الرصاص ولا
تلك الجياد ولا العسالة الذليل
ولا من العرب من كانت جرائره
تأتي عليهم ولا الكتاب والرسل
أطفاله لهم من حوله زجل
كأنهم قتلوا من غير ماقتلوا
كم بات يحسب في التقويم مفتكراً
في نجمه فرآه أنه زحل

.. من راح يطلبه التقدير ليس له
بحرٌ يقيه ولا بر ولا جبل

هذي عواقب من يطغى وحرفته

في قومه وبنيه المكر والحيل

ثم أرسله أحمد باشا مع من وكاه به إلى مقر السلطنة ..
فبعده وصوله أمر السلطان بتمتله ، وسيأتي خبره مفصلاً
في ترجمته في حرف الفاء . ولما تم الامر على هذا المنوال
رجع صاحب الترجمة إلى بلاد فخر الدين ، لضبط ما له
من الاموال والامتعة . فنزل قلعة نيحة وتسلمها . واستدعى
قاضي القضاة بالشام ، وعلماءها ، وأعيانها فتوجهوا اليه
وحضروا الضبط . ولم يظهر من النقود إلا شيء يسير ،
وأما الاملاك والمقارات والامتعة ، وحلى النساء ، وأواني
الذهب والفضة ، وآلات الحرب ، فقد ظهر منها شيء
وافر . وكتب بذلك حجة . وعاد صاحب الترجمة إلى
دمشق وأقام بها مدة . وكان عمره بدمشق تكية خارج باب
الله بالقرب من قرية القدم ، ووقف عليها قرى من ضواحي
صيدا وبعلبك ، وكان أملاً كافمخر الدين . وألحق بذلك
ستين جزءاً بالجامع الأموي ، وتعيينات لاهالي الحرمين ،

وبنى سبيلاً بالفرب من عمارته عظيم النفع ، وقيل في
تاريخه :

أنشا الوزير للوفود منها
لوجه مولاه إذا وافى غدا
وأنشد الوارد في تاريخه
هذا السيل الاحمدي قد بدا

ثم طلبه السلطان مراد إلى محاربة العجم في قلعة روان .
وعزل عن حكومة دمشق ، ثم أعيد إليها قريباً . وأمر بمحافظه
الموصل ، وعين معه عسكر الشام فحافظوا مدة ومرض
في أثناء المحافظة ، وأراد المقاومة لشاه العجم عباس شاه ،
فما ساعده القدر . فقتل ، وأسر غالب من معه من العساكر ،
وأرسل رأسه إلى دمشق ، فدفن في تكية المذكورة .
وكان قتله في ربيع الثاني سنة ست وأربعين وألف . رحمه الله .

* * *

(السيد حسن) ابن الامام القاسم ، بن محمد ، بن علي .
من ملوك اليمن الذين تسنموا من الفخر عالي الذرى ،
ووسع جودهم عامة الورى . أمّا العلم فهو من أفاضل جيله ،
وأمّا الحلم فهو الناهج لسبيله ، وأما الحماسة فما اشتقاق

الحمس إلا من حماسته ، ولا السماحة الا من فائض سماحته .
وهو الذي فتح اليمن ، وأخذه لآخويه محمد ، واسماعيل ،
من الاتراك ، وأخرجهم منه . وكان مع شجاعته ذا سياسة ،
وتدبير عظيم . ومرجع الدولة في عصره اليه ، والكل من
بني القاسم لا يصعدون إلا عن رأيه ، ويعولون في جميع
الامور عليه . وكان مع اشتغاله بالحروب ، وقيامه بأمر
الملك على ضروب ، يهتز للشعر هز النشوان ، ولا يشغله
شاغل عن المذاكرة في كل أوان . فلو رآه ابن الرومي
لما قال (شعر) :

ذهب الذين تهزهم مُدّآحهم
هَزَّ الكُماةِ عواليَ المِسرّانِ

وكان يبين بجودة ذهنه الوقاد ، الجواد والمقصر في ميدان
الانشاد . وكان عظيم العطاء كثير المعروف ، محباً لفعل
الخير . وكان يحل أولاد الاولياء ، والعلماء ، ويعرف
لهم حقهم ، ولذلك تم له الدست . وكان سعيداً في حروبه ،
وما اتفق أنه ركب في جيش الا وعاد منصوراً وبالحملة ،
فكان حسنة في بني القاسم على وجه الزمان ، ولا يدانيه في
شجاعته منهم مُدّانٍ . وأما ما قيل فيه من المدايح فيطول

ذكره وهو الذي اختط الجبل المسمى بضوران بضاد معجمة
مضمومة ، فبنى به حصناً مشيداً ، واختط به مدينة ،
عظيمة ، وأحيا به أرضاً دائرة ، وغرس بها فواكه ،
فصارت مدينة عظيمة بأسواقها ، وحماماتها ، ومساجدها ،
وأمر كل أمير من أمرائه ان يبني بها بيتاً ، فاتبعوا أمره .
وعمرّ ماحول المدينة من القرى . وكانت وفاته يوم السبت
ثاني شوال سنة ثمان وأربعين وألف بمرض ذات الجنب .
وحصل بموته التعب الشديد ، لعموم نفعه ، ورياسته ،
وشجاعته ، وحسن أخلاقه ؛ حتى إنه لما انتصر على الأروام
في زبيد ، كان يغريه المجالسون بالايقاع بهم ، لما صدر
منهم من حربه . فلم يؤثر فيه العذل ، بل عفا عنهم ،
وكساهم وأحسن اليهم . وكانت مدة إمارته بعد خروجه
من صنعاء ، نحو خمسة عشر عاماً . ودفن بضوران ،
وبنى عليه قبة عظيمة ، إلى جانب مسجده ، الذي أسسه ،
وتممه ولده محمد ، وأجرى المياه هنالك إليه . وجاء تاريخ
وفاته (حسن المخلد في الجنان) . رحمه الله تعالى .

* * *

(الأمير حسن) بن محمد . الأمير الجليل ، أبو الفوارس
المعروف بابن الأعوج ، أمير حماة . أوجد أمراء الدهر ،

وعين باصرة الادب ، وشمس فلك المجد . قد جمع الله
له بين أدوات المحاسن ، ورقاه إلى أعلى ذروة المفاخر ،
مع أدب بارع ، وحسب تارع (١) ، وطيب أرومة ،
وزكاء جرثومة (٢) . وكان في الكرم غاية لا تدرك .
ومما قال فيه بعض الشعراء :

حوى قصبات السبق في حومة العلا
نَعَمْ هو للسباق ما زال يسبق
متى تُبرز الأيامُ مثل وجوده
جواداً بما في كفه يتصدق
لقد زين الدنيا جمالاً كماله

فمنه على وجه البسيطة رونق
ولد بحماة ونشأ بها . وهو من بيت أصيل الرياسة ،
عريق النسب من الجهتين . أمّا من جهة أبيه ، فهو أمير
ابن أمير ، ورث السيادة كابراً عن كابر . وأمّا من جهة
والدته فهي ابنة شيخ الاسلام ، محمد بن سلطان العارفين
الشيخ علوان الحموي ، صاحب الكشف والكرامات .

(١) ممثلي وزاخر .

(٢) زكاء جرثومة : صلاح الأصل وطهارته .

ونشأ هو في صدر العز بنعم جزيلة، فمال طبعه نحو الكمال .
فقرأ على علماء بلده علوم العربية . والفنون الادبية ،
وعاشر الادباء ، وجالس الشعراء . ولما شاع خبره ، شدَّ
الرحال اليه الادباء من الاقطار ، واجتمع عنده منهم ما لم
يجتمع عند أحد من امراء عصره . وسافر إلى الروم في أيام
السلطان مراد بن سليم شاه ، واجتمع بمعلمه المولى سعد الدين
ابن حسن جان ، ومدحه بعدة قصائد فأكرمه . ومدحه للسلطان .
وجمعه به ، فولاه ولاية حماة . ورجع اليها ، فأقبل عاياه
الشعراء من كل مكان . وأقام حاكماً بها ثلاث سنين ،
ثم عزل . وأقام بمنزله ، ثم بعد مدة ولي امارة معرّة النعمان ،
وتوجه اليها بعشائره . وتكرّر له الغزل عنها ، وعن حماة ،
والتولية لهما . وعانده الدهر في بعض الاحيان ، وكان
صبوراً على نوائبه . وكان في جميع حالاته مشتغلاً بالادب .
وكان ينظم الشعر ، فيأتي فيه بكل معنى رائع . ولفظ
شائق ، مما يليق أن يعلق تميمة في جيد الزمان ، وينظم فريدة
في عقد الحسن والاحسان ، فمن ذلك قوله في الغزل :

آه من لي بظبية فتّانه

وهي تلهو ومهيجتي ولهانه

ذات ثغر كأنه اللؤلؤ الرط
 سبُ حكي كفَّها وحاكتُ بنانه
 هي في القدَّ غصنُ بانٍ ولكن
 من رأى القدَّ قال ذي رمَّانه
 ياعجيباً منها تظنَّ سلواً
 من فؤادي وتشتكي مملّوانه
 ياعجيباً إني أريد رضاها
 وهي في حالة الرضى غضبانه
 لست أخشى في حبها من عدول
 فدعوه فينا يُطيل لسانه
 حاصل الامر أن يقال فلان
 طار صيتاً بحبه لفلانه
 أنا صبُّ حبها مستهام
 مملك الحب سرّه وعيانه
 لست أنسى لما مضى ورقبسي
 عينه من يد الكرى مملّانه
 وقضينا الوصال رشفاً وضماً
 بقلوب هيمانه حيرانه

وأراد الجُموحَ طرفُ التصابي
فلوينا عما أراد عنانه
وملكنا نفوسنا برضاها
وزجرنا بعفة شيطانه
فدع العاذلين يتقلن عني
آه من لي بظبية فتانه
ومن شعره قوله من جدلة قصيدة يتشكى فيها من الزمان
وما لاقى من الألم في وطنه :

حادي العيس سرٌ بغير ارتياب
ففؤادي قد حنّ للاغتراب
لا أريد الاوطان والذلُّ فيها
واضعٌ طوقه بأعلى الرقاب
ولو اني قضيت فيها سرورا
في شبابي لم اكتب لمصابي
بل تولت نضارة العزِّ مـني
بين عيشِ ضنكٍ وفرط اكتئاب
فالفرار القرار من دار هون
تركنتني أشكو زمان الشباب

وإذا الضيم ما أقام فأحسب
بجياذ تمرُّ مرَّ السحاب
لو يكن في مقام ذي اللبّ فضلٌ
قطع السيف وهو ضمن القراب
أدرك المسكُ بالتنقل شأنًا
وهو في أرضه دوين التراب
فالفتى الشهمُ من إذا شام ضيمًا
لا يبالي بفرقة الاحباب
كيف مكّي ما بين أظهر قومٍ
عهدهم في ثباته كسراب
جارهم ان غدا عزيزاً عليهم
كان كالشاة في مقل الذئاب
هم اذا صادروا أسود شراة
وإذا حاربوا فدون الكلاب
كم أناسٍ من دارهم أخرجوهم
ليَسْومُوهمُ بسوء العذاب
إن فرعونَ ثم نمرودَ كانا
دونهم في اختراع شؤم العقاب

ومساويهم التي مثل هذا
عدد الرمل والحصي والتراب
ربّ يا آمن* أباد عاداً وأودى
بشمود ذوي النفوس الصعاب
لا تذرْ على الارض شخصاً
أنهم جاحدون نصّ الكتاب
وانتقم مسرعاً وعجلّ عليهم
ليس فينا صبر ليوم الحساب

ورأيت بخط الاديب ابراهيم رامي ، كثيراً من أشعار
صاحب الترجمة . وذكر في بعض أوراقه : ومن محاسن
مااتفق له في الشعر ، وذلك ان الامير موسى بن الحرفوش
أمير بعلبك ، عزم على الحرب مع الامير علي بن سيف في ناحية
غزير ، وقتل ابن سيف جماعة الامير موسى . فكتب للامير
في ابتداء القتال هذين البيتين ، مع كتاب أرسله اليه يستحثه
على القتال فقال :

غزير طورٌ ونار الحرب موقدةٌ
وأنت موسى وهذا اليوم ميقات

أَلْقِ الْعَصَا تَتَلَقَّفُ كُلَّ مَا صَنَعُوا
وَلَا تَخَفُ مَا حَبَالُ الْقَوْمِ حَيَّاتٌ
قلت: وقد رأيت البيتين في تاريخ الصلاح الصفدي
في ترجمة الاشرف منسوبين للكمال ابن النبيه ، ونظمهما
عندما نازل موسى الاشرف ، دمياط ، وصدرهما كذا:
دمياط طور.... إلى آخر البيتين. وللأمير حسن، وكتب بهذه
الابيات إلى جدّي القاضي محب الدين، في صدر كتاب ،
وكان سمع بوفاة المولى سعد الدين بن حسن جان المذكور آنفاً:

فجئت بنعي لو أبشُّك بعضه
لأيقنت أن الدهر قد عدم الرشدا
وليس يقر المرء عند سماعه
ولو كان قلب السامع الحجر الصلدا
ولو أنه قد مرَّ يوماً ببذبل
ورضوى لهذا الرزء دكهما هدّا
أظنك ذقت الحزن مما سمعته
فاني لم آلوك في كشفه جهدا
على انني أرجو بقاء محمد
وأسعد أن غال الزمان لنا سعدا

وقوله في حلاق سييء الحلقة :
ألا رُبَّ حلاقٍ بُليت بشرّه
فأثر في رأسي الجراحة والبوسا
أنامله كالطور من فوق جبهي
ورأسي كلّيم "كلّما حرك الموسا
واستأذن عليه بعض ندمائه الادباء بهذين البيتين :

على الباب المعظم عبدُ رِقٍ
بأنواع اللقا منكم يفوزُ
يجوز الباب عن إذن كريم
والا فهو شيء لا يجوز
فأنفذ اليه الجواب بهدية سنّية :

نحيط بعلمكم أنا نشاوى
وقد جُليت لنا بِكرٍّ عجوزُ
فان جَوَزْتُمْ مانحن فيه
والا فهو شيء لا يجوزُ

ومن غريب ما اتفق له . انه كان من أقربائه شاب يسمى

الامير يحيى . وكان بارع الجمال بعيد المنال . وكان الامير حسن يحبه محبة شديدة بمنزلة ولده . وكان من المنسوبين اليه رجل من طلبة العلم . كردي الاصل يسمى يحيى أيضاً . وكان عيَّنه معلماً للامير يحيى المذكور ، يقرئه العلم ، ويعلمه الادب . فواظب على اقراءه دهرأ طويلاً ، وكان الامير يحيى ساكناً في دار مستقلة قبالة دار الامير حسن ، وكان يتيماً. فاتفق ان الامير حسن بنى داراً عظيمة . وصرف عليها مالاً جزيلاً . ولما تمت عمارتها . وفرش مساكنها ، صنع وليمة عظيمة ، ودعا أعيان بلده . وكانت الوليمة ليلة الجمعة ، فاجتمع أكابر البلدة . وكان الامير يحيى من جملة القوم ، فسهروا قريباً من ثلث الليل الاخير ، وباركوا للامير بالدار ، وتفرقوا . فتوجه الامير يحيى إلى منزله ، ونام ، واستغرق من تعب السهر . فاما أصبح الصباح جاء الشيخ يحيى الكردي ، ودق الباب عليه فخرجت الجارية ، فقال لها: نادي لي الامير لأقرئه اللرس ، لان لي حاجة مهمة أريد المسير اليها . فتعجبت الجارية من مجيئه في ذلك الوقت . وقالت له: ان الامير أطال السهر في هذه الليلة . وهو نائم

«وانّ اليوم يوم الجمعة ، ومن عادتكم ترك القراءة في الجمع .
يقال لها: لي حاجة مهمة أخاف من التعويق بسببها عن درس غد.
مخرجت الجارية إلى الدار ونبهت الامير يحيى فخرج مسرعاً
إلى الشيخ ، وتلقاه وسلم عليه ، وتوجه هو إلى قضاء
الحاجة. فلما دخل بيت الراحة تبعه الشيخ . وأشهر سكيناً ومسكه
بجذع ، وطرحه على الارض وذبجه ، وخرج من الدار هارباً
يريد الخلاص . ولم يكن في الدار إلا الجارية ، ففطنت للامير
مخرجت خلفه إلى الطريق ، ونادت بأعلى صوتها يا قوم الشيخ
اذبح الامير يحيى. فأدركوه من جميع الجهات وأحاطوا به ،
فقاتل مع الناس قتلاً شديداً ، وقتل ثلاثة رجال . ثم ضربه
رجل من العوام بحجر كبير على ظهره ، فسقط مغشياً عليه ،
فمسكوه . ثم أحضروه بين يدي الامير حسن ، فسأله عن سبب
ذلك . فلم ينطق بحرف ، فأمر باحراقه . فجمعوا حطباً وأوقدوه ،
ثم ألغوه في النار ، فاحترق ، وعجل بروحه إلى النار . والذي
يظهر أن قتله له انما كان عن وادع وهيام ، ورأى انه اذا قتله
يقتل به فيخلص مما كان فيه من المشقة والالم . ونظم الامير
حسن هذه الواقعة في قصيدة يرثي بها الامير يحيى . وأثبتها

برمتها لغرابتها في بابها وتضمنها مثل هذه الواقعة العجيبة.
وهي قوله :

عجبت لمن أمسى يؤمل أن يحيى
بصفو وربع الانس قد هدّه يحيى
هلال قبيل التّمّ وافى مُحاقه
وسار إلى الاخرى فاظلمت الدنيا
وغصن ذوى من قبل أن يشمر المني
كأنّ الاماني قاطعات على الدنيا
وأصبح روض العيش أغبر يابساً
وعوّض قبراً بعد دوحته العليا
أتاه الردى ممن تربى بفضله
فقد لج في كفران نعمته بغيا
أقيم عليه حارساً راعياً له
وقالوا له رعيّاً فقال لهم نعيّاً
ومن وضع الاحسان في غير أهله
فمن كفه في عنقه وضع المدّيا
ومن يجعل السرحان للطبي راعياً
فلا يلم السرحان ان قتل الطيبيا.

. وما هذه الامثال إلا وسيلة
 أسلّي بها قلباً سلاه الجوى سليا
 . والا القضاء الحتم ان حل بالورى
 فأبصرهم أعمى وأخذقهم أعيا
 . وما لم يكن من جانب الله حافظ
 فلا ترج بالاشياء ان تحفظ الاشيا
 فقد يُشرقُ الريقُ الفتي وهو عونهُ
 ويبري الحسام العَضْبُ صاحبه برياً
 . وقد يفجأ الموتُ الفتي وهو آمنُ
 أَيْسَجُو ونار الحرب قد صليت صاليا
 . ويدرك عند اليأس ما العبد طالب
 ويحرم عند الرشده مما له غيا
 ألم تر من سموه يحبى تنأولاً
 سيبقى غداً في الحال رهن أبي يحبى
 فويلُ امه الشكلى لو ان مصابها
 برضوى دحاه الخطب في أرضه دحيا
 تُصوّرهُ حياً لفرط ذهوها
 وتسال منه أن يردّها لها هدياً

تعانقه والعنق يجري لها دماً
أظنت مخلوقاً حيث لم تملك الوعي
بكى لبكاها الجوّ وانهلّ دمعها
بتموز شاهدها يلدري الحيا ذرياً
وضجّ جميع الناس ضجّةً واحد
له واحد من فقده واضب النعيا
فلو أنه يُفدى فدته نفوسنا
وسيقت له الارواح في حبه هدياً
ولكنما الاقدار اخفاء سرّها
لقد أذهل الافكار والعقل والرأيا
فان ناب خطب سُلّم الامر للذي
بحكمته قد أحكم الامر والنهيا
وصبراً فما الدنيا بدار اقامة
كأنك بالأحياء قد فارقوا الاحياء
ألم يكُ في قتل الحسين مواعظ
لمن رام انصافاً من الدهر أو بقيا
فلو تم شيء كان آل نبينا
أحق به من سائر الناس في الدنيا

ولكنها دار الاهانة والعنا
فتعساً لأهلها وخزياً لهم خزيها
تبدد هم فتكاً ولا يتركونها
وتسقيهمو سُمّاً يظنونها ربا
تسرهم كيما تعن بفعلها
وتلهيهمو نزرأ وتفرهمو فرياً

وقد أطلنا الكلام ، ولولا خوف الدأمة الذكرت من محاسن
هذا الامير ونوادره وأشعاره شيئاً كثيراً . وبالحملة فانه زينة
امراء عصره ، ومع شهرته الثامة وأدبه الغض لم يذكره أحد من
المؤرخين . ولم أظفر بشيء من خبره إلا في وريقات بخط ابراهيم
رامي ، وهذا من أعجب العجب . وقد ذكر ابراهيم المذكور
ان وفاته ليلة النصف من شعبان سنة تسع عشرة وألف ، ودفن
امام داره بجامع المرابدة عند والده وأجلاده . قال ابراهيم
المذكور ، واخبرني بعض أفاضل حماة ممن كان ينخرط
في سلك ندماء الامير حسن بن الاعوج ، قال : دخلت عليه
في مرضه الذي مات فيه ، فعند دخولي أقبل بريد من الباب العالي ،
وبشره بامارة حماة . وكان له مدّة لم يتولها . وناولته من يده

منشور الحكومة . فالتفت إلى البريد ، وقد اغرورقت عيانه
بالدموع ، وتنفس الصعداء ، وقال بصوت ضعيف : قضي الامر
الذي فيه تستفتيان . قال : فدعوت له بطول العمر ، وسليته
عما كان فيه من الاضطراب ، والألم . فتلهف . وتنفج ،
وبكى بكاءً شديداً ، ثم ملى يدي وقال : أرى الامر قد آن ،
وقرب الارتحال ، ولا أرى لي مخلصاً بعد ما أنا فيه من شدة
المرض . ثم أنشد بديهاً لنفسه :

لا يحسب الانسانُ بعد ذهابه

مكث الاسى في عشرةٍ وقرينِ

في الحالِ يعتاضون عنه بغيره

ويعود ربُّ الحزن غير حزين

العندليبُ الوردُ كان أمامه

لما قضى غنى على النسرين

ثم فارقتهُ ، ففني تلك الليلة قضى نحبهُ ، ولقي ربه . رحمه

الله تعالى .

* * *

(حسين باشا) بن جانبولاذ الكردي ، أمير الامراء بحلب .
كان في ابتداء أمره من المتفرقة (١) . ثم تولى اماره كلّس
منصب والده . وعزله عنه أخوه الأمير حبيب ، وشبت العداوة
بينهما ، ثم استمرّا يتعازلان . فتولى ديو سليمان كلّس ،
فاحتاج إلى جمع السكبانية . وكان ابتداء كثرتهم وظهور
قوانينهم من عبد الحليم اليازجي احد أتباع المسمطور . ولما سجن
صاحب الترجمة بحلب ، وبيعت جميع أسبابه وعقاراته ،
بأبخس الأثمان ، لمال سلطاني كان عليه ، تولى كلّس بعد
ذلك . وصمم على الامتناع من تسليمها ، ان عزله أحد .
فكان اذا عزل من جانب السلطنة ، سعى في العود من غير
تسليم المتولي الجديد . فعلم أكابر الدولة انهم اذا صمموا على
عزله شق العصا فتركوه ، وارتضوا بالمال . فكثرت أجناده
وأمواله . وكان له مروعة ، وفتوة ، ومحبة للعلماء ، والصالحين ،
إلا أنه كان ظالماً لاحتياجه إلى علوفات السكبانية . وكان له
فضيلة في علم الفلك ، والزايجا، والتقويمات ، والرمل ،
وصرف أكثر عمره في ذلك . ولما توجه محمد باشا الوزير ابن

(١) فرقة من فرق حرس السلطان . وكانت لا تغادر الجانب
الأيسر للسلطان خلال المعارك . ولا تقوم بخدمة عسكرية إلا في هذه
الظروف .

سنان باشا الوزير الاعظم سرداراً على حسين باشا ، أمير
لواء الحبشة، وكان خرج عن الطاعة وشق العصا ، وسببه انه
لما تولى اماره الحبشة أخذ منه أكابر اللواة مالا جزيلاً استدان
غالبه ، ثم عزلوه سريعاً فشق العصا مغاضباً لهم ، فتوجه صاحب
الترجمة لحربه صحبة السردار . فقدم إلى كلّس خارجي من
السكبانية يقال له رستم ، ومعه من البغاة أجناد كثيرة . وكان
ضابط كلّس عزيز كتحدا ، من جماعة صاحب الترجمة .
فبعث واستنجد بعساكر حلب . منهم العسكر الحديد ، فخرجوا
لنصرته واجتمعوا جميعاً . فتقابلت الاجناد ، وقام بينهم سوق
الحرب والطعن والضرب . فانتصر عسكر رستم على عسكر
كلّس وحلب ، وقتل عزيز كتحدا ، وقتل من العسكرين
ما لا يحصى ، وولوا منهزمين . فنهب الخارجي كلّس ، وصادر
أعيان أهل القرى . ولما تولى نصوح باشا كفالة حلب ، وكان
عساكر دمشق تغلبوا على حلب ونواحيها ، وأمره السلطان
أحمد باخراجهم ، وعجز عن ذلك ، فاستعان بصاحب الترجمة .
فبعث ابن أخيه الأمير علي بعسكر عظيم . فاصبح نصوح باشا ،
وقد أخذ القلعة ، ووضع متاريس تحت قلعة حلب ، واستعدت

جماعته ، فكانوا نحو ستمائة . فأخذت العساكر الدمشقية باب بانقوسا . واستعدّوا وجمعوا عساكرهم نحو الالفين ، وهم لا يعلمون ان صاحب الترجمة بعث عساكر . فاحضر نصوح باشا اليه كنعان سردار الدمشقيين ، واخبره ان السلطان رفعهم من الاستخدام ، وأمر باخراجهم من حلب بعيالهم ، فامتنعوا . ثم تواردت الاخبار ان الامير علي بن جانبولاذ وصل إلى قرية حيلان ، بعساكر لا تحصى . فخرجوا في الظلام ، ولم يبق منهم أحد . وفي اليوم الثاني دخل الامير علي بالعساكر المتكاثفة . فتبعهم نصوح باشا ، ومعه الامير علي إلى قرية كفرطاب . فوقع بينهم محاربة ، فانهزم الدمشقيون ، بعد ما قتل منهم جم غفير . فصادر نصوح باشا أقاربهم واتباعهم ، وفعل حسين باشا مع نصوح باشا هذا الفعل . فأخذ نصوح باشا يتكلم بين الناس انه يريد قتل حسين باشا . فسمع الخبر فأخذ في جمع العساكر ، وبعث جماعة إلى السردار سنان باشا ابن جغالة الذي أرسله السلطان لقتال الشاه ، فبلغ ذلك نصوح باشا فاشتدّت عداوته . فعزم على المفاجأة بالقتال ، لكون كلس قريبة من حلب . فخرج في عساكره مجدداً .

حتى وصلها في يوم واحد . فقابل حسين باشا بعساكره .
والتقت الفئتان فانكسر نصوح باشا ، وقتل أكثر عساكره ،
ودخل حلب منهزماً . ثم في اليوم الثاني أخذ في جمع الاجناد .
وبذل الاموال ، لتكثير العدد والاعداد . ظناً منه ان صبح
سعاده أسفر . ثم جاء رسول من السردار سنان باشا ابن جغالة
يخبره بالوامر السردارية ، انه قد صار حسين باشا كافل الممالك
الخليبية ، وعزل نصوح باشا منها . فلبس نصوح باشا جلد النمر .
وامتنع من تسليم حلب لحسين باشا . وقال : اذا ولوا حلب لعبد
أسود أطيع ذلك ، الا ابن جانبولاذ . فما مضى أسبوع إلا وقد
أقبلت عساكر حسين باشا بجموعها إلى قرية حيلان ، فاستقبلهم
نصوح باشا بالحرب ثانياً ، فانكسر ثانياً . فنزل حسين باشا
بعساكره في محلات حلب ، خارج السور . وأغلق نصوح
باشا أبواب المدينة ، وسدّها بالاحجار ، وفتح باب قنسرين ،
وحرسه بعساكر أوقفهم هناك ، وقطع حسين باشا الماء عن
حلب ، ومنع الميرة والطعام عن داخل المدينة . ونصب حسين
باشا متاريس على أسوار المدينة ، وصفّ عساكره على الاسوار
مع المكاحل . وقامت بينهم حرب البسوس : وأخذ حسين باشا
في حفر اللغوم ، والاحتياال على أخذ الباعة ؛ ونصوح باشا في

حففر السراذيب ، لدفع اللغوم . وعم الحلبين البلاء من المبيت
على الاسوار ، وحفر السراذيب ، ومصادرة الفقراء والاغنياء ،
كل يوم وليلة لطعام السكبانية وعلوفاتهم . وأغلقت الدكاكين ،
وتعطلت الصناعات ، وحرقت الاخشاب للطعام ، والقهوة ،
بسبب قطع حسين باشا الميرة حتى الخشب والحطب . ونزل
البلاء من جانب السماء على حلب ، فبيع مكوك الحنطة بمائة
قرش ريال . وجرة السيرج (١) بثمانية عشر قرشاً ، ورطل
لحم الخيل الكديش بنصف قرش ، والتينة الواحدة بقطعة ،
وأوقية بزر البطيخ بأربع قطع . وأعظم من في البلد يجد أكل
الصعل والخل من أحسن الاطعمة . وكان بعضهم يأخذ الشمع
الشحمي ويضعه في طعام الارز والبرغل . وكان العساكر
لا يجدون التبن ، بل يأخذون الحصر وينقعونها في الماء ، ويقطعونها
ويطعمونها للخيول بدلاً عن التبن . وكل فقير يغرم في اليوم
قرشين ، والمتوسط عشرة ، والغني عشرين . واستمر الحصار
نحو أربعة أشهر وأياماً . ثم قدم السيد محمد المشهور بشريف
قاضياً بحلب ، فنزل خارج المدينة ، وأخذ يسعى في الصلح .
ثم عقد الصلح . ولم يرض نصوح باشا الا بأمانات السكبانية

(١) السيرج : زيت السمسم

وعهودهم ، فان لهم عهداً وثيقة . فحلفهم بالسيف أن يكون
آمناً على نفسه وأمواله ، وانه اذا تعرضه حسين باشا يقاتلونه معه .
ثم أمر الشريف نصوح باشا أن يذهب بنفسه إلى حسين باشا
ويصلحه ، لكون نصوح باشا كان ضرب بنت حسين باشا
وأخذ أموالها . فذهب ومعه شاطر واحد إلى منزل حسين باشا ،
فأكرمه وسقاه شربة سكر ، بعدما امتنع نصوح باشا . فشرب
حسين باشا من الاناء قبله فاقتدى به وشرب . ولما ذهب كان
لابساً درعاً تحت الثوب ، وظن الناس خروج نصوح باشا خفية
ليلاً ، خوفاً من حسين باشا وعساكره . فلم يكن الامر كذلك
بل نخرج بعساكره وطبوله وزموره وقت الغداة ، فودعه
حسين باشا . واستولى على الديار الحلبية . وشحنها من السكبان ،
وصادر الاغنياء والفقراء لاجل علوفة السكبان . ثم أمر سنان
باشا حسين باشا بالتوجه اليه لقتال الشاه ، فقدّم رجلاً وآخر
أخرى ، وثاقل عن السفر . حتى حصلت الكسرة ببلاد المعجم
للعساكر العثمانية ، في وقعة مشهورة قتل فيها جماعة من
الامراء ، وكانت في سادس عشري جمادى الآخرة سنة أربع
عشرة وألف . فلما رجع الوزير سنان باشا ابن جغالة ، أدركه
حسين باشا في رجعتة بمدينة وان فقتله لتأخره . في السنة المذكورة .

وكان يريد جعل ابن أخيه الامير علياً قائماً مقامه بحلب، فلما بلغه قتل عمه تملك حلب، وخرج بها على السلطنة، وتولدت من ذلك فتن عظيمة سذكرها في ترجمة الامير علي ان شاء الله تعالى .

* * *

(حسين باشا) الوزير المعروف بصاري حسين ، أي الأصفر . وهو أخو سياغوش باشا الوزير الاعظم . كان من الوزراء ، له الصولة الباهرة ، والهيبة العظيمة . وكان فيه تليطف بالرعايا ، وانتقام من ذوي الكبر . والمناصب . ولي حلب مدة ، ثم نقل منها إلى نيابة الشام ، في سنة احدى وثمانين وألف . وعينه السلطان وهو نائبها ، لسفر قنيجة من بلاد اللية ، فتوجه اليها وفي خدمته العساكر الشامية . وتعين هو وبعض الوزراء للمحاربة . فكسر هو ورفقاؤه . وشاع أن الكسرة كانت بسوء تدبير منه . فغضب عليه السلطان ، وعزله عن حكومة الشام . ورفع منه رتبة الوزارة ، وأمره بالاعتزال في داره بقسطنطينية . فأقام مدة منعزلاً ، حتى لم يبق فيه رفق . ثم عطف عليه والده السلطان . وشفعت له بمنصب التفتيش بولاية أناتولي . فوليه وظهر سعيه فيه لطرف السلطنة . فجوزي على ذلك بحكومة الشام ثاني مرة . فقدمها . ومهد أمورها

بعد اختلال كان أصابها من حكامها ، وساس الرعية سياسة
عجيبة ، ولزم كل أحد حدة في عهده . وعمر القصر
المعروف به الآن في طرف الشرف ، بالميدان الأخضر من دمشق ،
وكان مكانه يعرف قديماً بالخاتونية . وتأنق في وضعه ، وغرس
فيه أنواع الاشجار من كل صنف . وعز عليه بدمشق بعض أنواع
الفاكهة ، فجلب من أماكن بعيدة . والحاصل انه أثر أثراً حسناً .
وفي أيامه وقع الجراد بدمشق ثلاث سنين متواليات ، فبعث
رجلين من أهل دمشق إلى أنقرة ، ليأتيا بماء السممر ، الذي
يقال انه اذا كان في بلدة يطرد الجراد عنها . وكان وصولهما
إلى دمشق في أواخر المحرم سنة ثلاث وتسعين وألف . فأمر
حسين باشا بخروج الصوفية بالاعلام ، وعامة الناس بالتهليل ،
إلى لقائه . فدخلوا به على سيفج قاسيون من ناحية القابون ،
حتى وضعوا منه حصّة على رأس المنارة الغربية بالجامع الاموي ،
وحصّة على منارة جامع المصلى . قلت : وماء السممر هذا قد
ذكره غير واحد ، منهم ابن الوردي في (خريدة العجائب) ،
في فصل عجائب العيون والآبار . قال : عين سرم وهي بين
اصفهان وشيراز . بها مياه مشهورة ، وهي من عجائب الدنيا .
وذلك ان الجراد اذا نزلت ، ووقعت بأرض ، يحمل اليها من

تلك العين ماء في ظرف . أو غيره . فيتبع ذلك الماء طيور
سود تسمى السمرمر ، ويقال لها السوداء ، بحيث ان حامل الماء
لا يضعه الارض ، ولا يلتفت وراءه ، فتبقى تلك الطيور على
رأس حامل ذلك الماء ، كالسحابة السوداء إلى أن يصل إلى الارض ،
التي بها الجراد . فتصبح الطيور عليها ، وتقتلها ، فلا ترى
من الجراد متحر كآبل يموتون من أجل تلك الطيور . انتهى .
وذكر ابن الحنبلي في تاريخه ، ان من شرطه أن يكون الوارد
به من أهل الصلاح ، ولا يمر به تحت سقف . وقال الصلاح
الصفدي في الجزء الثاني والثلاثين من تذكرته : قال الشيخ
شمس الدين أبو الثنا محمود الاصبهاني ، ان بمدينة قشمر
مسيرة ثلاثة أيام عن أصبهان ، عين ماء سارحة برزة يسمى
ماؤها بماء الجراد ، له خاصية ان من حمل من ماءها في اناء
إلى الارض التي أتاها الجراد ، فيعلق ذلك الاناء في تلك
الارض ، فيقصدها ما لا يحصر من طير يقال له سار ،
يأكل مافيه من الجراد حتى يفنى . وشرط هذا الاناء
أن لا يمس الارض في طريقه ، ولا في مكان تعليقه انتهى .
ثم أمر حسين باشا بالسفر إلى محاصرة قلعة بتيج من بلاد

الانكروس (١) . فسافر اليها ومعه عسكر الشام .
وكان الوزير الاعظم قره مصطفى باشا قد سبقهم
إلى بلغراد ، وجعلها مجمع العساكر جميعها . ولما تكامل
جمع الجموع رحل بهم اليها ونازلوها . وكاد أن
يفتحوها عنوة ، قدر الله تعالى ماقدّر من مجيء جيش كبير
من الكفار وكسروا عسكر المسلمين ، وفرقوهم في تلك
النواحي ، كما سنفصله في ترجمة الوزير مصطفى باشا
المذكور . ونسب الوزير هذه الكسرة إلى فشل بعض الوزراء ،
ومنهم حسين باشا صاحب الترجمة ، فأراد قتله . فكانت
منيته أسبق ، فتوفي في غضون ذلك . وكانت وفاته في
شهر رمضان سنة أربع وتسعين وألف رحمه الله تعالى :

* * *

(خليل باشا) ابن عثمان ، المعروف بابن كيوان ،
أمير الحاج الشامي . وهو أخو ابراهيم المقدم ذكره في حرف
الهمزة . كان من صدور دمشق ، وأعيانها ، المشهود لهم
بالرأي الصائب ، والدولة الباهرة . وتحوّل في نعم ورفاهية
عيش ، وتملك الاملاك الكثيرة ، وانقاد له الزمن ، وأحبه
أركان الدولة . وملاً صيته برّ الشام حتى هابه عربانها

(١) بلاد الهند .

وغيرهم ، وكانوا يراجعونه في مهماتهم . وينقادون لأمره ، ولا يخالفونه في حال من الاحوال . وقد أسلفنا في ترجمة أخيه ابراهيم ، أنه كان تفرغ عن منصبه في العسكر لانيه خليل هذا ، وكان ذلك ابتداء ظهوره . وسافر إلى فتح ايوار ، في خدمة الوزير الاعظم أحمد باشا الفاضل ، سنة خمس وسبعين وألف . واتصل به فأحببه وقربه وعاد إلى دمشق وقد رأس . ثم فرغ عن منصبه لابن أخيه حسين ، وهو على الآتي ذكره ان شاء الله تعالى . وتقاعد هو بعloفة في خزينة الشام مدّة ، إلى أن حدث من الامير حمد بن رشيد ، أمير بادية الشام ، في حق الحجاج ماحدث . من النهب والغارة . وفعل في الامير موسى بن تركمان حسن الآتي ذكره ما فعل من القتل . واستمر في غيه وضلاله ، وأمر الحاج في اختلال مدّة سنين . ولم يتفق اصلاحه بحال ، حتى عرض ذلك على أركان الدولة ، فرأوا من الصواب تولية خليل باشا هذا أمر الحاج . فولي الامرية وظهرت فيها كفايته ، وأطاعته جميع العربان . واستمر ثلاث سنين والحجاج في أيامه مطمئنون ، في بلهنية من العيش ورخاء وراحة ، إلى أن توفي وهو متوجه بهم في أول السنة الرابعة

من توليته . تمرض يوم طلعة الحمل ، ويقال ان نائب الشام سقاه سماً ، فخرج مع الحمل وهو يجود بنفسه . فأدركه أجله بالصنمين ، وحمل إلى المزيريب . وكانت وفاته أواخر شوال سنة اثنتين وتسعين وألف . وقبره بالمزيريب ظاهر ، وأظنه ماجاوز عمره الستين بكثير رحمه الله تعالى .

* * *

(الأمير رضوان) بن عبد الله الغفاري ، أمير الحاج المصري ، الكرجي الاصل . كان في ابتداء أمره ، من ممالك ذي الفقار ، أحد أمراء مصر المشهورين ، بالشأن العظيم والدولة الباهرة . اشتراه صغيراً ، واعتنى بتربيته . ولما مات مولاه المذكور رق حاله . ثم استغنى ، ونبه قدره . وكان وقوراً مهيباً . وله سكون ، وديانة ، ورياسة . واشتهر صيته ، وعظمت دائرته ، حتى صار أربعة من ممالكه مثله ، أصحاب لواء وعلم ، مع ما يتبعهم من الجند ، والكشاف ، والملتزمين . وله الآثار الحسنة في طريق الحاج المصري ، والحرمين . وكان حسن السيرة ، خصوصاً في بر الحجاز . فكان معتنياً بأهله ، يرسل صرهم من حين وصوله إلى ينبع ، إلى مكة ، ويتسمه عليهم قبل وصول الحاج ، وكل من

له حاجة منهم بمصر قضائها بأيسر حال . ومكث نيفاً وعشرين سنة أميراً على الحاج . وفي اثناء ذلك وقع له محنة ، في زمن محمد باشا سبط رستم باشا الآتي ذكره . وكان اذ ذاك محافظ مصر ، بسبب أمر افتري عليه . فعرض فيه الوزير المذكور إلى باب السلطان ، فجاء الامر الشريف بعزله عن اماره الحاج . فلما بلغه توجه للاعتاب العالية هارباً ، واجتمع بالسلطان مراد . فحبسه ، وأمر ببيع جميع أملاكه ، وعقاراته . فبقي محبوساً مدة ، وتكرر اجتماعه بالسلطان مراد . فلم يأذن الله تعالى بانطلاقه إلا بعد موت السلطان المذكور . وتولية أخيه السلطان ابراهيم السلطنة . ثم أطلق فعاد إلى مصر ، وأخذ جميع مذهب له ، بعضه هبة ، وبعضه شراء ، وانعقدت عليه رئاسة مصر . ووقع له محنة أخرى في زمن أحمد باشا ، فان الامير رضوان سعى في نقض أمر الوزير المذكور ، وتغييره من محافظة مصر ، وفافوض جماعة من الاعيان في ذلك ، فلم يوافقهم الجند على ذلك . وتوجه الامير رضوان إلى الحج ، والمنافرة واقعة ، فراسل الوزير الامير علي حاكم جرجا ، وألقى بينه وبين الامير رضوان العداوة ، ونصبه أمير الحاج مكانه ،

ووجه جرجا لاحد ممالك الامير علي . وقدم الامير علي .
من جرجا إلى مصر . ولما قرب قدوم الحاج استشار الامير
علي بعض أصحابه في استقبال الامير رضوان ، فأشاروا
عليه بأن يفعل . الا قليلاً من الانصاء ، فانهم أنكروه .
فتبع رأي الأول ، وصمم علي الاستقبال ، وخرج بجمعية
عظيمة . ولما اجتمع هو والامير رضوان تسالماً ، ولم يبد من
أحدهما ما يغير خاطر الآخر ، وكان كل منهما يحل
الآخر ويعرف حقه . وأقاموا يومهما ، والامير
رضوان مفكر في أمر الاجتماع بالوزير ، وفيما ينجر
اليه حاله . فقام من المجلس وبقي جميع الامراء ، والاعيان ،
وطلع إلى جانب ، ووضع مجنأً (١) تحت رأسه .
وأخذ يفكر . فاتفق انه جاء في ذلك الوقت خبر عزل الوزير
عن مصر ، وانه صار مكانه عبد الرحمن باشا الحصي ،
ومر متسلمه على العادلية وسار إلى مصر . فجاء رجالان إلى
البركة محل نزول الحاج ، وهما في قصد الامير رضوان ،
ليبشراه . فلما أخبرا بمكانه أسرعوا اليه وأيقظاه ، وأخبراه
بذلك . فكان ذلك له من باب الفرج بعد الشدة . فأتى المخيم ،

(١) المجن : كل ما وقى من سلاح . وتعني (الترس) أيضاً .

والقوم كلهم جلوس . ولما استقر به الجلوس التفت إلى الأمير
مصطفى الدفري بمصر . وأخبره جهاراً بالخبر . فتعجب
الجميع من ذلك ، وظنوا أنه رأى مناماً . ثم أخبرهم بحقيقة
الأمر فصدقوا . ودخل مصر ، فلم يتفق له اجتماع بالوزير ،
وإصطالح هو والأمير علي صلحاً لافساد بعده . وبالحملة
تفان هذين الأميرين كانا من الأفراد ، وهما زينة ملك آل
عثمان . وكانت وفاة الأمير رضوان في سنة ست وستين وألف .

* * *

(سنان باشا) الوزير الأعظم . صاحب الآثار العظيمة
في البلاد ، من جملتها الجامع بدمشق خارج باب الحلبية ،
والحمام ، والسوق ، المتفق على حسن وضعهم ، ودقة
صنعهم . وله مثل ذلك في كل من القطيفة ، وسسع ،
وعيون التجار ، وعكة ، مع خانات ينزلها المسافرون .
وله ببولاق جامع عظيم ، ومثله باليمن ، وقسطنطينية ،
وغيرها من البلاد . جوامع ، ومساجد ، ومدارس ، وخانات ،
وحمامات ، تنوف على المائة . وبالحملة فهو أكثر وزراء
آل عثمان آثاراً ، وأعظمهم نفعاً للناس . وكان وزيراً
عالي القدر ، رفيع الهمة ، ولي الحكومة بمصر ، في زمن
سلطنة السلطان سليم بن سليمان . ومن غريب ما وقع له

وهو حاكم بها ، انه لما تعين الوزير لالا مصطفى باشا إلى فتح اليمن ، سار إلى مصر ، وتقاعس بها عن السير ، رجاء أن تضم له امارة الامراء بمصر إلى سردارية العساكر المعينة لليمن . فاتفق مع بعض خواصه أن يضيف سنان باشا .. ويضع له السم في المشروب ، ثم دعاه فأجاب . وكان الشيخ أدهم بن عبد الصمد العكاري ، المقدم طرف من أخباره في ترجمة ابن جلال ، من معتقدي سنان باشا . وهو عنده بمتزلة مرشده ومربيه ، ولا يصدر في الامور إلا عن رأيه . فاستدعاه ، وقال له : قم نذهب إلى الضيافة . فقال له : والله ماأنا بذهاب معك ، ولكن احترز أنت على نفسك ، فاني أخاف عليك ، والقوم عازمون على أن يضروك . فلما قدموا اليه الاناء المسموم في ماء الشعير المحلى بالسكر ، لم يتناول منه شيئاً . ودعا بعض الامراء الحاضرين إلى شربه .. فقال له من دعاه : أما أنا فلا أشرب من هذا الاناء . فازداد وهمه . فقال رجل واقف للخدمة : إلى متى تتوقفون في شربه . وتناوله ليشربه . فلما وضعه بين شفتيه تناثر لحم فمه في الحال ، ووقع مقدم أسنانه ، وسقط شعر لحيته ، فألقى الكأس من يده . وعلم الحاضرون بالقصة ، فقام سنان باشا ،

وهو يقرأ قوله تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ، ونادى
بفرسه فركبها وذهب ، ثم عينه السلطان إلى اليمن . وكان
السبب في ذلك ، ان إقليم اليمن من صنعاء إلى عدن ، كان
داخلاً في حوزة سلاطيننا العثمانيين في أيام السلطان سليمان .
وكان له نائب واحد ، واستمر زماناً ، إلى أن فوضت حكومته
لأثنين ، وعين لكل منهما حدة من البلاد ، فكان ذلك باعث
الاختلاف ، والجدال . وكان مطهر بن شرف الدين يحيى
الزبيدي لعب الشيطان بعقله ، وسوّلت له نفسه العصيان .
فصادف انقسام المملكة وصول خبر وفاة السلطان سليمان .
فقطع الطريق ، وحاصر تعز ، وصنعاء ، وسلب كثيراً من
امراء . فلما وصل الخبر إلى السلطنة عينوا مصطفى باشا ،
كما تقدّم ، ثم عزلوه ، وعينوا مكانه سنان باشا سرداراً
على العساكر . فتوجه وأصلح ما كان اختل ، واستنقذ
ما كان مطهر أخذه ، بعد وقائع وأمور يطول شرحها ،
وهي مذكورة في تاريخ القطب المكي . وفي ذلك يقول
بعضهم من أبيات :

وما يَمَنُّ إلا ممالك تُبَعِّعُ

وناهيك من ملك قديم ومن فخر

تَمَلَّكَهَا مِنْ آلِ عَثْمَانَ إِذْ مَضَتْ
بَنُو طَاهِرٍ أَهْلَ الشَّامَةِ وَالذِّكْرِ
فَهَلْ يَطْمَعُ الزَّيْدِيُّ فِي مَلِكٍ تُبَسَّعُ
وَيَأْخُذُهُ مِنْ آلِ عَثْمَانَ بِالْمَكْرِ
أَبَى اللَّهَ وَالْإِسْلَامَ وَالسَّيْفَ وَالْقَنَسَا
وَسِرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي بَكْرٍ

ثم انه بعد تمهيد هذا الامر ، عاد فدخل مكة المشرفة ،
وحج حجة الاسلام ، وصادف الحج فلم يفته . وأنشأ بمكة
آثاراً حسنة منها : تعميره حاشية المطاف ، دائرة حوله
مفروشة بالحصى ، يدور بها دور حجارة منحوتة مبنية
حول الحاشية كالافريز لها . فأمر أن تفرش هذه الحاشية ،
بالحجر الصوان المنحوت ، ففرشت به في ايام الموسم ،
وصار محلاً لطيفاً دائراً بالمطاف من بعد أساطينه . وصار
مابعد ذلك مفروشاً بالحصى الصغار ، كسائر المسجد الحرام ،
وهذا الاثر خاص به . ومنها تعميره سبيل التنعيم ، أنشأه
وأمر باجراء الماء اليه من بئر بعيدة ، يجري الماء منها إلى
السبيل ، في ساقية مبنية فيما بينهما بالحصى والنُّورَة ، وعيَّن

لها خادماً يستقي من البئر ، ويصب في الساقية ، فيصل الماء إلى السبيل ليشرب منه ، ويتوضأ المعتصرون . وعيّن لمصارف ذلك من ريع أوقاف له بمصر . ومنها آبار حفرها بقرب المدينة المنورة ، لقوافل الزوّار ، في وادي مفرّع وغيرها ، كثيرة النفع جداً . ومنها قراءة ختمة شريفة في كل يوم ، يقرؤها ثلاثون نفرأ بمكة ، وأخرى بالمدينة . ثم بعد أن قدم إلى تحت السلطنة ، عينه السلطان سليم إلى فتح حلق الوادي ، ببلاد تونس الغرب . وكان النصارى استولوا عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين الغرب من آل حفص : فصار بعضهم يقوى على بعض بالفرنج ، وأطمعوه في بلاد المسلمين . فاستولوا عليها ، وتمكنوا منها ، وحصّنوا الحصون ، وأحكموا القلاع ، بحيث أيسر المسلمون من فتحها ، وصاروا تحت حكم الفرنج . واخذوا مملكة تونس ، ووضعوا السيف في أهلها ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والاولاد . فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب^(١) ، مشحونة بالابطال والمدافع وآلة الحرب ، وعين معهم سنان باشا ، وقلج علي باشا . وكانت غزوة مشهورة من أعظم

(١) نوع من السفن .

غزوات بني عثمان ، يحتاج تفصيلها لمؤلف ، فنقتصر منها على خلاصتها . وهو أن المسلمين انتصروا على الكفار ، وقتلوا منهم عشرة آلاف مع الحصار المديد ، والقتال . ومن العجب أن الفرنج كانت بنت هناك حصاراً حصيناً ، وقلعة منيعة ، أقاموا في استحكامها ، واتقان بنائها ، ثلاثاً وأربعين سنة . فافتتحها سنان باشا في ثلاث وأربعين يوماً من أيام محاصرتها ، وذلك في سنة احدى وثمانين وتسعمائة . ثم خرب الوزير القلاع والحصون ، فلم يبق لها رسم . ثم توجه سنان باشا إلى دار السلطنة ، فولي بعد مدة الوزارة العظمى ، وذلك في زمن السلطان مراد الثالث ، في شهر ربيع الاول سنة ثمان وثمانين وتسعمائة . ثم عزل عنها ، وولي بعدها نيابة الشام . وشرع في عمارة الجامع المذكور أولاً . ثم ولي الوزارة العظمى بعد ذلك أربع مرات ، عزل من الثالثة في شهر ربيع الاول سنة أربع بعد الالف ، وصار مكانه لالا محمد باشا . فبعد ثلاثة أيام توفي محمد باشا فاعيد إلى مكانه ، ولم تطل مدته فتوفي في شعبان من تلك السنة . وكان في أحد تولياته الوزارة تعين لمحاربة الكفار المعروفين بالنمسة . ووقفت على ترجمة له ، ترجمه بها منشيء الديوان

عبد الكريم بن سنان ، ذكر فيها غزوه مع الكفرة .
ومن زبدتها قوله : ملأ بقتلاهم الهضب والبقاع وأخذ
منهم القلاع والبقاع ، وجبر قلوب الاسلام بكسر الصلابان
والاصنام . ومن غريب فتوحاته تسخير الحصن الموسوم
ببائق ، وهو على ما يقال اسماء السماء معانق . أحكمت
يد الدهر بنيانه ، وقد أزرى بالهرم في الحصانة ، وأهله يقطفون
بأيديهم نرجس الكواكب ، ويشقون بأستهم دراري الثواقب .
يزرُّ عليه الجوُّ جيب غمامه

ويلبسها من رونق الانجم الزهر
وقد أحاطت به الانهار احاطة الهالات بالاقمار ،
وكم ورد فيها لحياض المنية من ورد ، ولبس من حيكها
المنسوج بيد الشمال زرداً على زرد .

فيا لله من عَجَب دَلاص^(١)
يُرَدُّ به الحمامُ غدت حماماً

وتيسر فتحه في نحو سبعين يوماً ، وجفون الغزاة لم
تكتحل بغير نقع الهيجاء ، ولم تلق نوماً . وقد تثبتوا في

(١) درع دلاص : لينة ملساء .

الحرب تثبت الجبال ، علماً بأنها بين الرجال سجال .
فهناك باحت أغماد السيوف بأسرارها ، فطارت غربان
البنادق من أوكارها . وكم قتيل غدا بالسنّة الاسنّة مكلفاً ،
وأصبت درعه تبكي عليه بألف عين دماً . والاعداء كأنما
أجسادهم جرائر ، يحملها من الدماء السيل، وكأنما رؤوسهم
أُكْرُ ، تلعب بها صوالج الايدي والارجل من الخيل.
شكر الله مساعيه الراضية، وأحله في قصور الجنان العالية •
انتهى .

* * *

(الأمير شديد) بن أحمد ، الأمير حاكم العرب . وهو
من آل جبار ، حكام العرب ، أباً عن جدّ . يقال إنهم
ذرية جعفر البرمكي . ومقام هؤلاء في بلاد سلمية (١) ،
وعانا (٢) ، والحديثة (٣) . ومن عاداتهم ، أن من استولى
منهم على خيمة المال والسلاح يكون حاكماً على العرب
جميعهم . وذلك أن لهم خيمة من الشعر كبيرة جداً ، ولها

(١) مدينة في سورية إلى الجنوب الشرقي من حماة .

(٢) - (٣) مدينتان في العراق ، على نهر الفرات ، الأولى (عانة)

شرقي البوكمال السورية والثانية (الحديثة) جنوب (عانة) .

نواطير ، وحرس بالنوبة في اليوم والليلة. وكلها صناديق مقفلة بالاقفال الحديد المحكمة ، والصناديق مملوءة من الذهب ، والفضة ، والجوهر ، والسلاح ، وغير ذلك من نفائس الاشياء النفيسة. وكان « شديد » استولى عليها بعد أبيه أحمد. وكان ظالماً ، جباراً ، عنيداً ، متكبراً ، خسيساً ، قبيح المنظر ، والفعل ، والوصف ، غير محسن في شيء من الاشياء. ولم يزل حاكماً إلى أن مات في سنة ثمان عشرة بعد الالف. واتفق في هلكه عجيبة : انه كان في خيمة في بعض صحارى حلب ، وكان ابن عمه مدلج بن ظاهر معه في الخيمة. وكان « شديد » يلعب بالشطرنج مع بعض أقاربه ، ولم يكن عنده من إخوته أحد. فاختلس مدلج الفرصة في خلو الأمير ، فناداه وهو يلعب ، يا شديد يا شديد . فقال : نعم . فما أتم قوله نعم ، الا ومدلج قد ضربه بخنجر في بطنه خرج من ظهره . ولم يحتج في إخراج روحه ضربة أخرى . ولقد أرسل الأمير فخر الدين بن معن مكتوباً يخبر فيه عن قتل شديد، وقال في مكتوبه : إن تاريخ قتله قد اتفق في هذه الكلمات ، وهي قوله (مدلج قتل شديد ولد أحمد) . ومن العجب، أن والد شديد ، أحمد ، كان قتل

ظاهراً والد مدلج في بيته ، وهو ضيف عنده . فقدّر الله
أن ولد المقتول قتل ولد القاتل . قلت : وهذا ظاهر ،
هو ابن مدلج المترجم في « الكواكب السائرة » . وهو ظاهر
ابن عساف ، بن عجل ، بن مظين ، بن قدموس . كان أمير
عرب الشام . وله قوّة وبطش ، بحيث يمسك الدرهم من
الفضة بأصبعيه ويفرّكه فيذهب نقشه ، ويفتت الحنطة بين
أصبعيه . ومن عجيب أمره ، أنه دخل عليه ولده قرموش ،
وهو مريض ، ليقتله ، فضربه بسيف فقتله . وشرب شخص
لبناً حليماً ، وكان بيد امرأة . فشكته اليه فاستخبره ، فأنكر ،
وحلف بحياته أنه لم يشربه . فطعنه برمح كان بيده ، فاذا
اللبن خارج من جوفه . فأمر المرأة بأخذ بعير من بعرانه ،
عوض لبنها . ومات على فراشه ؛ وذلك في سنة خمس وأربعين
وتسعمائة انتهى .

* * *

(الشاه عباس) بن سلطان محمد ، خدا بنده ابن طهماسب ،
ابن شاه اسمعيل ، بن سلطان حيدر ، بن سلطان شيخ جنيد ،
ابن سلطان شيخ صدر الدين ابراهيم ، بن سلطان خواجه علي ،
ابن شيخ صدر الدين موسى ، بن سلطان شيخ صفي

الدين أبي اسحق ، بن شيخ أمين الدين جبريل . بن السيد صالح ، بن السيد قطب الدين أحمد ، بن السيد صلاح الدين رشيد ، بن السيد محمد الحافظ كلام الله ، بن السيد عوض الخصاص ، بن السيد فيروز شاه درين كلاه ، بن محمد شرف شاه ، بن محمد ، بن أبي حسن ، بن محمد ، بن إبراهيم ، ابن جعفر ، بن محمد ، بن اسماعيل ، بن محمد ، بن أحمد العراقي ، بن محمد قاسم ، بن أبي القاسم حمزة ، بن الامام موسى الكاظم ، بن الامام جعفر الصادق ، بن الامام محمد الباقر ، ابن الامام علي زين العابدين ، بن الامام الحسين ، بن الامام علي بن أبي طالب ، رضوان الله تعالى عليهم . هذا نسب سلاطين العجم ، الذين منهم صاحب الترجمة . وأول من بالغ في التشيع وأظهره سلطان حيدر ، وكان ذلك في سنة ست وتسعمائة . وقيل في تاريخه : (مذهبناسق) . ويروى أن بعض أهل السنة سمع هذا التاريخ ، فقال : (مذهب ناسق) على النفي . فإن (نا) في الفارسي اداة نفي . ومن ذلك العهد ، هاجر كثير من أهل السنة الذين في بلادهم إلى كثير من البلاد . وتغلبت سلاطين بلادنا العثمانة على ملوكهم ، من عهد السلطان سليم الأول . فانه ركب على شاه إسماعيل وأخذ منه بلاداً

وقهره . وكذلك فعل السلطان سليم الثاني فانه جهز عليهم جيشاً ، فأخذوا منهم تبريز ، وشروان ، وكيلان (١) ، وروان ، وكثيراً من القصبات والولايات . واستمروا مغلوبين إلى أن ظهر شاه عباس صاحب الترجمة ، فولي السلطنة بخراسان في سنة خمس وتسعين وتسعمئة ، مكان والده في حياته . وكان جلوسه بقزوين لكون والده كان أعمى . وقد استولت في أيامه أمراء قزلباش (٢) على الدولة ، واتخذوها حصصاً فسفك فيهم ، واستقل بالامر . وكان في ابتداء أمره يداري طرف آل عثمان ، ويرسل ابن أخيه حيدر بالهدايا والتحف ، إلى أن مات ملك الاوزبك ، أوزبك خان ، وولده عبد المؤمن ، في سنة عشر بعدالالف . وكان ملوك الاوزبك أخذوا من خراسان بلاداً ، فاستخلصها واحدة بعد واحدة . ثم قصد جدال آل عثمان لما كان وقع

(١) أو جيلان . مقاطعة إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين (شمال غربي إيران) .

(٢) قزلباش كلمة تركية تتألف من مقطعين : قزل وتعني أحمر وباش . الرأس ، أي أصحاب الرؤوس الحمراء . ويقصد بهم جنود الدولة الصفوية ، لأنهم كانوا يضعون قلنسوات حمراء على رؤوسهم .

من الاختلال بسبب الجلالية (١) الذين ظهروا في زمن السلطان أحمد. ونقض العهد الذي بينه وبينهم ، وحاصر مملكة تبريز ، وروان ، واستولى عليهما . ثم أخذ قندهار (٢) من بلاد الهند ، واستولى على خوارزم (٣) ، وكيلان ، وسجستان ، ثلاثاً وأربعين سنة. وكان سلطاناً صاحب جأش ، وقوة مكر ، غداراً محتالاً ، فاسترد بعض البلاد . وتقوى في العسكر والعدة ، فأخذ بغداد من يد آل عثمان . وقد قدّمنا سبب أخذه لها ، وأنه كان الفاعل لذلك بكر ، كبير عسكرها ، وإن الشاه دخلها بمخامرة منه ، ومن ابنه محمد ، وفعل ما فعل فيها ، وفي أهلها . وكان أخذه لها في ثالث شهر ربيع الثاني سنة اثنتين وثلاثين وألف . واستمرت في يده إلى سنة ثمان وأربعين ، فأخذها من يده السلطان مراد . وسنذكر خبر أخذها إن شاء الله تعالى في ترجمة السلطان مراد المذكور . ومن ذلك العهد لزم شاه عباس حدّهم

(١) اسم أطلق على الثائرين على الدولة العثمانية في بلاد الأناضول من أمثال عبد الحليم اليازجي واتباعه .

(٢) مدينة في إقليم (سجستان) ، شرقي إيران ، وغربي الهند .

(٣) الإقليم الغربي من بلاد ما وراء النهر ، الواقع شرقي بحر

قزوين .

الاصلي الذي كان في زمن الشاه اسمعيل ، ولم يتجاوزه ،
لاهو ولا أبنائه ، إلى يومنا هذا . وطال عمره في السلطنة.
وبلغ من العزة والحرمة نهاية أمانيه . وخدمه أجلاء العلماء
في مناصبه ، منهم الشيخ الاستاذ محمد بهاء الدين بن حسين.
الحارثي الهمداني الشامي ، فانه كان مفتيه ومشيد أركان
دولته ، باسمه ألف كثيراً من كتبه ، ورسائله ونوّه به .
وقد رأيت في بعض كتبه غريبة ، حكاهها في سياق.
ذكره . قال : ان سلطان زماننا خلد الله ملكه ، وأجرى
في بحار التأيد فملكه ، عرض له يوماً في مصيده خنزير
عظيم الجثة ، طويل السن الخارج ، فضربه بالسيف ضربة
نصفه بها نصفين . ثم أمر بقلع سنه ، والatian بها اليه ،
فوجد مكتوباً عليها لفظ الجلالة . بخط بين مثبت
ناتئ منها . فحصل له ، ولنا ، ولمن حضر المصيدة من
العسكر المنصور ، نهاية العجب فان ذلك من أغرب الغرائب .
ولما أرانيها ، أدام الله نصره وتأييده ، قال لي : كيف يجتمع
هذا مع نجاسة الخنزير ؟ فقلت له : ان السيد المرتضى
قائل بطهارة ما لاتحله الحياة من نجيس العين . ووجود هذا
الخط على هذا السن ، ربما يؤيد كلامه ، طاب ثراه . فان

السن مما لا تحله الحياة انتهى. ومن المقربين اليه من الخذاق ،
الحكيم شفاثي . وكان حكيمة وطيبه ونديمه الخاص .
وكان شاعراً مطبوعاً ، مليح التخیل . وكان عند الشاه
في المكانة المكيمة . ثم غضب عليه ، فحصى ميلاً حديداً
وكحله به ، فأعماه ، وأبعده عن مجلسه ، وأحواله .
وأمره غريبة جداً . ومما يحكى عنه في باب اللطائف والنكات
مما يستظرف ، وأبدعها ، ما كان يقع له مع الرسول المرسل
اليه من طرف سلطاننا السلطان مراد المسمى بانجيلي
جاويش . وكان طلق اللسان ، حاضر الجواب ، نهاية في
اللطائف والاعاجيب . وكان الشاه يبتدره بمخترع من الفعل
أو القول ، ويقصد بذلك الازراء بجانب سلطاننا . فيجيبه عنه
بأحسن جواب ، يدفع به ذلك الازراء ، وربما قلب عيانه
فازرى بطرف الشاه . وكان الشاه يعجب من تيقظه ،
وينتقل معه انتقالات عجيبة ، خارجة عن الازراء .
ومن جملتها ، انه جلس الشاه يوماً على حرف جبل في
الصحراء ، والجوايش المذكور عنده . فقال له الشاه :
أتحبني ؟ فقال له : نعم . فقال : ان كنت تحبني ، فارم بنفسك
من هذا الجبل إلى تحت . فقام ومشى مسافة بعيدة إلى ظهر

الجبل ، ثم رجع وهو يركض حد الركض ، حتى انتهى
إلى طرف الجبل ، ثم وقف . فقال له الشاه : مالك ؟ فقال :
محبتي لك انتهت إلى هذا المحل . وأراها لا تتجاوزه .
وله من هذا القبيل أشياء أخر . وللشاه عباس في سياسة الرعية
والرعاية لجانبيهم ، والذب عنهم ، واکرام التجار الواردين
إلى بلاده من أهل السنة ، أحوال مستفيضة شائعة . وبالحملة
فلم يجيء من سلسلتهم مثله . وكانت وفاته في جمادى
الاولى سنة ثمان وثلاثين وألف ، بدار ملكه ، مدينة أصفهان .
ودفن بأردبيل ، في تربة الشيخ صفي الدين ، وكان عمره
ينيف عن السبعين .

* * *

(الأمير علي) بن أحمد ، بن جانبولاذ ، بن قاسم
الكردي القصيري . قد أكثر أهل التاريخ والمجاميع ،
من لقوا واقعته ، من ذكره ، وذكر مافعله بدمشق ،
وما جرى لحكام الشام وأهلها معه من الوقائع . وقد اخترت
من ذلك ما أودعته في هذه الاوراق من مبدأ أمره إلى منتهاه .
وأما ذكر أصله ومنتزعه : فجده جانبولاذ هذا كان يعرف
بابن عربوا . وكان أمير لواء الاكراد بجلب ، ولي حكومة
المعرّة ، وكلّس ، وعزاز ، وكان له صيت شائع ، وهمة

عليّة . ومبدأ الأمير علي هذا ، انه كان في طليعة عمره ،
ولي حكومة العزيزي . وقد تقدّم في ترجمة عمه حسين باشا ،
انه لما قتله الوزير ابن جغال لتراخيه في أمر السفر الذي كان
عين له ، خرج الأمير علي عن طاعة السلطنة، وجمع جمعاً
عظيماً من السكبانية ، حتى صار عنده منهم مايزيد على
عشرة آلاف . ومنع المال المرتب عليه ، وقتل ، ونهب ،
في تلك الاطراف . ودبر على قتل نائب حلب حسين باشا ،
وكان ولاء السلطان نيابتها . ووصل إلى اذنة ،
وكان باذنة حاكم يعرف بجمشيد ، فكتب اليه ابن جانبولاذ
أن يصنع له ضيافة ، ويقتله ، ففعل ، ونما خبره إلى الاقطار .
واستمر في حلب يظهر الشقاق . إلى أن أرسل الأمير يوسف
ابن سيف ، صاحب عكار إلى باب السلطنة رسالة ، يطلب
فيها أن يكون أميراً على عساكر الشام ، والتزم بازالة
الامير علي عن حلب . فجاءه الامر على ماالتزم . وأرسل
إلى عسكر دمشق ، وأمراء ضواحيها ، يطلبهم إلى مجتمع
العساكر ، وهو مدينة حماة ، فتجمعوا هناك من كل ناحية .
وجاء ابن جانبولاذ إلى حماة ، وتلاقيا ، وتصادما . فما هو
الا ان كان اجتماعهم بمقدار نحر جزور ، فانكسر

ابن سيف ، وأتباعه ، ورجع بأربعة أنفار . واستولى ابن جانبولاذ على مخيمه ، ونخيم عسكر الشام . ثم انه راسل الامير فخرالدين بن معن ، أمير الشوف وبلاد صيدا ، وأظهر له انه قريبه ، مع بعد النسبة ، فحضر اليه ، واجتمعا عند منبع العاصي . وتشاورا على أن يقصدا طرابلس الشام لاجل الانتقام من ابن سيف . فسار ابن سيف في البحر ، وأخلى لهم طرابلس ، وعكار ، وأرسل اولاده وعياله إلى دمشق . وأجلس مملوكه يوسف في قلعة طرابلس ، فتحصن بها . وبعث ابن جانبولاذ ، الامير درويش بن حبيب ابن جانبولاذ إلى طرابلس فضبطها ، واستولى على غالب اموال من وجد هناك ، واستخرج دفائن كثيرة لاهلها ، ولم يستطع أن يملك قلعتها . وسار الامير علي ، ومعه ابن معن ، إلى ناحية البقاع العزيزي من نواحي دمشق . ومرا على بعابك ، وخربا ما أمكن تخريبه منها ، واستقرا في البقاع ، وأظهرا انهما يريدان مقاتلة عسكر الشام . ولم تزل العساكر الشامية ترد إلى دمشق ، حتى استقر في وادي دمشق الغربي مايزيد على عشرة آلاف . وتزاحف العسكران حتى استقر

ابن جانبولاذ وابن معن في نواحي العرّاد (١) . وزحفه
العسكر الدمشقي إلى مقابلتهما . وكان ابن سيفا وصل إلى
دمشق ، وأظهر التمارض ، ولم يرحل مع العسكر الشامي .
واستمرت الرسل مترددة بين الفريقين ليصطلحا فلم يقدر
لهم الاصطلاح . وتزاحف الجيشان ، فتوهم ابن جانبولاذ
من صدمة العسكر الشامي ، فشرع في تفخيذ (٢) أكابر العسكر
عن الاتفاق ، وأوقع بينهم . ثم أرسل إلى طائفة من أكابرهم ،
فوردوا عليه في مخيمه ليلاً ، وألبسهم الخلع ، وتوافقوا معه
على انهم ينكسرون عند المقابلة . وكان في جانب ابن جانبولاذ
ابن معن ، وابن الشهاب أمير وادي التيم ، ويونس بن
الحرفوش ، فطابت أنفسهم لملاقاة الشاميين . وتقابل الفريقان
في يوم السبت من أواسط جمادى الآخرة سنة خمس عشرة
بعد الالف ، ولم يقع قتال فاصل بين الفريقين . ثم في صبيحة
نهار الاحد ، وقف العسكر الشامي في المقابلة واقتتلا .
فما مر مقدار جلسة خطيب ، الا وقد انفل العسكر الشامي ،
حتى قال ابن جانبولاذ: العسكر الشامي ماقاتلنا ، وانما قابلتنا

(١) واد يقع شمال قرية الصبورة التابعة لمنطقة قطنا ، غربي دمشق .

(٢) تفريق .

للسلام علينا . فلما ولّى عسكر دمشق ، زحف ابن جانبولاذ
حتى نزل بقرية المزة ، وكان نزوله في الخيام . وأما ابن معن
فانه كان ضعيف الجسد في هاتيك الأيام ، وكان نزوله في
جامع المزة . وأصبحت أبواب البلدة يوم الاثنين مقفلة ،
وقد خرج منها ابن سيفا وجماعته ليلاً ، بعد ان اجتمع
به قاضي القضاة بالشام ، المولى ابراهيم بن علي الانقي .
وحسن باشا الدفري ، المقدم ذكرهما ، ولم يمكّناه من
الخروج حتى دفع اليهما مائة ألف قرش ، ليفتدوا بها الشام
من ابن جانبولاذ . ثم خرج ومعه الامير موسى ابن الحرفوش .
ولما بلغ الامير ابن جانبولاذ خروجه غضب ، وقال :
أهل دمشق لو أرادوا السلامة مني ، مامكنوا ابن سيفا من
الخروج ، وهم يعرفون اني ماوردت بلادهم الا لاجله .
ونادى عند ذلك بالسكبانبة أن يذهبوا مع الدروز جماعة
ابن معن ، لنهب دمشق . فوردت السكبانبة والدروز أفواجا
إلى خارج دمشق ، وشرعوا في نهب المحلات الخارجية .
فلما اشتدّ الكرب والحرب على المحلات ، وتلاحم القتال ،
خاف العقلاء في دمشق . فخرج جماعة إلى ابن جانبولاذ .
وقالوا له : ان ابن سيفا قد وضع لك عند قاضي الشام مائة

الف قرش . وتداركوا له خمسة وعشرين الف قرش
اخرى ، كما وقع عليه معه الاتفاق ، من مال بعض الايتام
التي كانت على طريق الامانة في قلعة دمشق . وبعد ذلك
ادّاها ايضاً ابن سيفا كالمائة الف . فلما تكلم الناس في
الصلح ، طلب ابن جانبولاذ المال الذي وقع عليه الصلح
على يد الدفترى ، وقال : ان جاءني المال في هذا الوقت
رحلت . فحملوا له مئة الف قرش وخمسة وعشرين ،
ونادى بالرحيل عن المزة في اليوم الرابع من نزوله . واستمر
النهب في اطراف دمشق ثلاثة ايام متوالية . وكانوا يأخذون
الاموال ، والاولاد الذكور ، ولم يتعرضوا للنساء . ولما رحل
ابن جانبولاذ ، ارتفع النهب عن المدينة ، وفتحت ابواب
المدينة في اليوم الرابع . فازدحم الناس على الخروج افواجاً
افواجا ، ودخل اليها من نهبت اسبابه من المحلات الخارجية ،
فكانوا لا يعرفون لتغير اسبابهم ووجوههم . وابتدأت العساكر
الهاربة تراجع إلى دمشق ، ولم يبالوا بما صدر منهم من الفضيحة .
ولما فارق ابن جانبولاذ دمشق ، سار على طريق البقاع ،
وفارق ابن معن هناك ، ورحل إلى أن وصل إلى مقابلة
حصن الاكراد ، واقام هناك . وارسل إلى ابن سيفا يطلب

منه الصلح والمصاهرة . فأجابه وأعطاه ما يقرب من ثلاث كرات من القروش ، وزوجه ابنته ، وتزوج منه أخته لابنه الامير حسين . ورحل ابن جانبولاذ من هناك إلى جانب حلب . وجاءته الرسل من جانب السلطنة تقبّح عليه ما فعل بالشام . فكان تارة ينكر فعلته ، وتارة يحيل الامر على عسكر الشام . وشرع يسدّ الطرقات ، ويقتل من يعرف انه سائر إلى طرف السلطنة لابلاغ ما صدر منه ، حتى أخاف الخلق . ونفذ حكمه من ادنة إلى نواحي غزة . وكان ابن سيفاً ممثلاً لامره ، غير تارك مداراة السلطنة . واتفق معه على ان تكون حمص تحت حكم ابن سيف ، وكانت حماة وما وراءها من الجانب الشمالي إلى ادنة في تعلق ابن جانبولاذ . وانقطعت أحكام السلطنة عن البلاد المذكورة نحو سنتين . ووقعت الوحشة ، وانقطعت الطرقات إلى أن ولي الوزارة العظمى ، مراد باشا . وكان سافر في ابتداء وزارته إلى الروم ، وأصلح ما بين السلطان وما بين سلاطين المجر ، فلما قدم ، عينه السلطان لدفع ابن جانبولاذ وبقية الخوارج ، مثل العبد سعيد ، ومحمد الطويل الخارج في نواحي سيواس . فقدم الوزير المذكور ومعه من العساكر الرومية ما يزيد على ثلاثمئة

ألف ، مابين فارس وراجل . وكان كلما مر يقوم من
السكبانية الخارجين ، يقتلهم ، حتى أزال السكبانية الخارجين .
ولم يبق سوى العبد سعيد ، والطويل محمد ، فانهما حادا عن
طريقه ولم يستطع لحاقهما . ووصل إلى ادنه فخلصها من
يد جمشيد الخارجي . ولما انفصل عن جسر المصيصة إلى
هذا الجانب ، تيقن ابن جانبولاذ انه قاصده . فجمع جموعه
المتفرقة في البلاد ، حتى اجتمع عنده أربعون ألفاً . وخرج
من حلب ، والوزير في بلاد مرعش وجزم بمقابلته . وكان
الوزير في أثناء ذلك يرأسه بالكلمات الطيبة طمعاً في اصلاح
أمره ، فلم يزد الاعتواء . ولما تلاقى الفريقان برز عسكر
ابن جانبولاذ إلى المقاتلة يومين ، ولم يظهر لإحدى الفئتين
غلبة على الاخرى . ففي اليوم الثالث التحم القتال حتى كاد
أن يكون عسكر البغاة غالباً . وكان من أعاجيب الامر أن
وزيراً يقال له حسن باشا الترياقى ، وكان من جملة العسكر
السلطاني ، رتب عسكر السلطان ، وقال : قاتلوا البغاة
إلى وقت الظهر . فاذا حكم وقت الظهر ، فافترقوا فرقتين
فرقة منكم تذهب لجانب اليمين ، وأخرى تذهب لجهة
الشمال ، واجعلوا عرصه القتال خالية للاعتداء وحدهم .

وقد أخفى المدافع الكبيرة في مقابلة العدو ، وملاًها بالبارود .
فلما افترق عسكر السلطان ، ظن حزب ابن جانبولاذ أنهم
كسروا ، فبالغوا في اتباع عسكر السلطان إلى أن كادوا
يخالطونهم . فلما قربوا وخلت لهم عرصة القتال ، أطلقوا
عليهم المدافع ، ولحقوهم بالسيوف ، إلى أن أراحوهم
عن خيامهم ، وكسروهم كسرة شنيعة ، وقتلوا منهم خلقاً
كثيراً . وهرب ابن جانبولاذ إلى حلب ، ولم يقرّ بها إلا
ليلة واحدة ، فوضع أهله وعياله وذخائره في قلعتها ،
ونخرج منها إلى أن أُلجأه الهرب إلى مَلَطِيَّة (١). وبقي الوزير
يتبع أعوان ابن جانبولاذ ، فأبادهم قتلاً بالسيوف ، وجاء
إلى حلب بالجنود ، فرأى قلعتها في أيدي بعض أعوان
البغاة ، فرام محاصرتها . فتحقق من فيها أن كل محصور
مأخوذ ، فطلبوا الأمان من الوزير ، فأنزلهم بأمانه ،
وكانوا نحو ألف رجل ، وكان معهم نساء ابن جانبولاذ ،
وكان أكابر الجماعة أربعة من رؤوس السكبانية . فلما
نزلوا بادروا إلى تقبيل ذيل الوزير ، فأشار إلى النساء بالكِن (٢)

(١) من المواقع الحصينة (الثغور) شمالي شرقي مرعش ، وقرب
نهر الفرات في الأرض التركية اليوم .
(٢) الكِن : السر والحيانة .

في مكان معلوم ، وفرّق الرجال على ارباب المناصب .
وطلع إلى القلعة ورأى ما بها من أموال ابن جانبولاذ ،
وتحفه العزيزة ، فضبط ذلك كله لبيت المال . ثم شرع
يتجسس في حلب على الاشقياء ، وأتباعهم ، فقتل جملة من
الاتباع . وهجم الشتاء ، ففرق العساكر في الاطراف ،
وشتى هو في حلب . وأما ابن جانبولاذ فانه خرج من ملطية ،
وسار إلى الطويل العاصي في بلاد اناطولي ، وأراد أن
يتحد معه . فأرسل اليه الطويل يقول له : أنت بالغت في العصيان ،
وأنا وان كنت مسمى باسم عاص ، لكني ما وصلت في
العصيان إلى رتبتك . فرحل عنه بعد ثلاثة أيام ، وسار إلى
العاصي المعروف بقرا سعيد ، ومعه ابن قلندر . ولما وصل
إلى جمعية هؤلاء العصاة تلقوه ، وعظموه ، وحسنوا
فعلته مع العساكر السلطانية ، وأرادوا أن يجعلوه عليهم رئيساً .
فشرط عليهم شروطاً ، فما قباوها . فاطمأن تلك الليلة ،
إلى أن هجم الليل وأخذ عمه حيدر ، وابن عمه مصطفى ،
وابن عمه محمداً ، وخرج . ولم يزل سائراً حتى دخل
بروسة مع الليل ، وتوجه إلى حاكمها ، وأخبره بنفسه فتحيّر
منه . ولما تحقق ذلك ، قال له : ما سبب وقوعك ؟ فقال ضجرت

من العصيان ، وها أنا ذاهب إلى الملك ، فأرسلني إليه في البحر . فأرسله من طريق البحر . فلما دخل دار السلطنة ، أعلم به السلطان ، فقال : أحضروه . فلما حضر إليه ، قال له : ما سبب عصيانك ؟ فقال له : ما أنا عاص ، وإنما اجتمعت عليّ فرق الاشقياء ، وما خلصت منهم الا بأن ألقيتهم في فم جنودك ، وفرت اليك فرار المذنبين . فان عفوت فأنت لذلك أهل ، وأن أخذت ، فحكمك الاقوى . فعفا عنه ، وأعطاه حكومة طمشوار في داخل بلاد الروم ، ونجا بذلك . ولم يزل على حكومتها ، إلى أن عرض له أمر أوجب قتاله لرعايا تلك الديار . ولزم انه انحصر في بعض القلاع في بلاد الروم ، فعرض أمره إلى باب السلطنة الاحمدية ، فبرز الامر بقتله ، وعدم اخراجه من تلك القلعة . فقتل ، وأرسل رأسه إلى باب السلطنة ، وكان ذلك في حدود العشرين وألف والله أعلم .

* * *

(علي باشا) بن أحمد باشا ، المعروف بكوزلجة . هو من بلدة استانكوي ، وجدته لأمه قيا باشا ، فهو سيد صحيح النسب . قال ابن نوعي في ترجمته : كان أبوه أمير الامراء

بتونس من بلاد الغرب ، فلما خرج بتلك الدائرة الخارجي المعروف بيحيى ، وادّعى أنه مهدي الزمان ، حاربه أحمد باشا ، فقتل أحمد باشا في تلك الواقعة بعد حروب كثيرة . وكان ذلك في سنة ثمان وتسعين وتسعمائة . وكان سن علي باشا اذ ذاك تسع سنين ، فبعد مدّة من قتل أبيه ، تسلط بعض عبيدهم على يحيى ، ووجد فرصة فقتله . ثم قدم علي باشا الروم فولي حكومة دمياط ، فضبطها خمس عشرة سنة ، ثم قدم إلى طرف الدولة . وكان السلطان أحمد عازماً على التوجه إلى بروسة ، فأخذه في سفينته المعينة له ، وذلك في سنة أربع عشرة وألف . وفي تلك الاثناء أعطي ولاية اليمن ، فلم يقبلها . ثم عرضت عليه حكومة ماغوسة (١) قبرص ، فلم يقبلها أيضاً . ثم أعطي ولاية تونس فتصرف بها سنتين ، وعمر بها جامعاً . ثم أعطي حكومة مورة (٢) . وبعد ثلاث سنين نقل إلى حكومة قبرص ، ثم أعطي تونس برتبة الوزارة . ثم صار حاكم البحر (٣) ، في المحرم سنة ست وعشرين

(١) مدينة فماغوستا في شرقي جزيرة قبرص .

(٢) جنوبي بلاد اليونان (شبه جزيرة البلوبنيز) .

(٣) إن تعبير (حاكم البحر) هو تعريب للقب (قبطان باشا) ،

أميرال البحر عند العثمانيين ، أي القائد الأعلى للأسطول .

وألف . واتفق له في سفرته الثالثة ، انه أخذ ستة غلايين (١) من غلايين الكفار ، وجاء بها إلى دار الخلافة . وأتى بغنائم كثيرة لاتعد ولا تحصى ، وأهدى إلى السلطان هدية لا يمكن وصفها . فكانت جائزته من السلطان مصطفى ، أن ميزه على سائر الوزراء ، بزنجير ذهب يضعه لجواده اذا ركب . ثم صار صدر الوزراء في المحرم سنة تسع وعشرين وألف . وأثر آثاراً حسنة، منها جامع في جزيرة ساقير (٢) وآخر في ينكي كوي قرب حصار روم ايلي من ضواحي قسطنطينية . وساق الماء لزاوية عمرها الشيخ أمير بقصبة قاسم باشا قبالة قسطنطينية . وكانت وفاته في خامس عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاثين وألف ودفن ببشكطاش في تربة مخصصة . وكان عمره لما مات احدى وأربعين سنة . رحمه الله تعالى .

* * *

(السلطان عمر) بن بدر ، بن عبدالله ، بن جعفر الكثيري ، سلطان حضرموت بالشحر . ذكره الشلي ، وقال في ترجمته : كان حسن الشمايل ، وافر العقل ، كثير العدل . وكانت سيرته مرضية ، وله التفات تام إلى

(١) الغليون : نوع من السفن .

(٢) جزيرة خيوس في بحر إيجه .

الرعايا ، حسن السياسة ، صادق الفراسة ، صاحب أخلاق حميدة . قلَّ أن ورد عليه أحد من الغرباء الا وصدور يثني عليه الثناء الحميل . وكان شجاعاً مقداماً . ولعبد الصمد باكثر فيه عدّة مدائح . وكانت وفاته سنة احدى وعشرين وألف . وأرخ وفاته عبد الصمد المذكور ، بقوله : (رضاك). وتولى بعده ابنه السلطان عبدالله ، وكان حسن الخلق ، والخلق ، مهذب المنظر ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر . ولي الملك ، فأحسن القيام به ، وأظهر السطوة ، وقهر البادية ، وغيرهم ، فهابته النفوس ، وأمنت البلاد . ثم حصلت له جذبة ربانية ، فلم يرض إلا بالدرجة العليا . وخرج عن أهله . وماله ، وقصد الحرم الشريف ، واعرض عن الملك . وأقام بمكة إلى أن توفي في سنة خمس وأربعين وألف ، ودفن بالشبيكة .

* * *

(الملك عنبر) شنبو سنجس خان ، وزير الهند ومدبره ، ومرجع أهله . هو في الاصل حبشي من الامهرة . وتسمى قبيلته مايه . ويقال انه من عبيد القاضي حسين المشهور بمكة ، ثم اشتراه بعض التجار . وجلبه إلى الهند ، فاشتراه الوزير سنجس خان . ولما مات سنجس خان . تنقلت به الاحوال إلى أن

صار من عساكر عادل شاه صاحب بيجاپور (١) ، من اقليم الدكن . وكان المال الذي يعطاه لا يكفيه لكثرة سماحته وانفاقه ، فاستزاده من الوزير الاعظم فلم يزد . فخرج الملك عنبر من حينه خائفاً يترقب . وكان السيد البليل ، علي حداد باعلوي ، قد وعده بأنه سيصير ملكاً عظيماً . فكان له ظهور عجيب ، يحتاج إلى تاريخ مستقل ، ولعدوبته ذكرته ، لكنني لخصته من ملخص مذكره الشلي في ترجمته . قال : وحاصله انه خرج من عند عادل شاه ، سنة ست بعد الالف ، وهو يومئذ مفلس ، وخرج معه السيد علي . ثم وصل به الحال إلى أنه لم يقدر على نفقة يومه . ثم أعلم السيد علياً بما هو فيه من ضيق الحال فدعا الله تعالى ، فوجدوا ركازاً (٢) جاهلياً . فاتسع أمره ، وأكثر من العساكر والاتباع . ولا زال أمره يعظم إلى ان ملك بلاداً كثيرة . وكان كلما ملك بلداً أوقرية أحسن إلى الرهايا ، وأظهر العدل والاحسان ، ونصب قاضياً للاحكام ، وحاكماً للسياسة . ثم استدعاه السلطان حسين نظام شاه من سلاطين

(١) مدينه الدكن غربي (حيدر آباد) وشمال شرقي (غوثا) .

(٢) مادفن من ذهب وفضة في الأرض .

الدين ، فأنحاز اليه . وهو من أعظم سلاطين الهند . لكن
مذهبه في الاعتقاد مذهب الرافض . وكان مقر سلطنته
دولة آباد . وكان وزيره الاعظم كافراً شجاعاً فاتكاً .
صاحب جيوش وأموال . مستولياً على المملكة . وكان الملك
عنبر يعجز عن مقاومته ، فصار يداريه ويترصد له فرصة .
حتى قتله على حين غفلة . وولي مكانه الوزارة العظمى .
ورأى السلطان محبته ، وجده ، فأمدّه . واتفقت له وقائع
كثيرة ، وفتح قلاعاً ، ونفذت كلمته ، واتسعت مملكته ،
وأخرب الكنائس ، وعمر شعائر الاسلام . ثم مات السلطان
حسين نظام شاه ، وكان ولده برهان صغيراً . فعهقده الملك
عنبر له البيعة . ولم يكن له من الساطنة الا الاسم ، وجميع
الامور بيد الملك عنبر ، كما كان الخلفاء العباسيون ببغداد .
ثم استبدّ الملك عنبر بالامور ، واستمر في القتال والجلاد ،
وأزال المظالم من تلك الجهة . وعمرها . وأحمد الفتنة
والبدعة ، وعمر المساجد والمآثر . وكان مؤيداً في حروبه
ومغازيه . مسنداً في رأيه . مسعوداً في أحواله . وكان كثير
الاحسان إلى السادة . وأهل العلم . وقصده الناس من جميع

البلدان ، فغمرهم باحسانه . خصوصاً أهل تريم (١) من السادات . وكان يحسن لمشايخ الطريق ، والصوفية . وكان عصره أحسن الاعصار . وزمانه أنضر الازمنة . وكان يحمل كل سنة إلى حضرموت ، من الاموال والكسوات للسادة والمشايع والفقراء مايقوم بهم سنة . وكان له ديوان مرتب باسم أرباب الرسوم . والتقصاد . ووقف أربعة قرآن بمدينة تريم . ووقف بمكة والمدينة مصحفين ، واشترى في الحرمين دوراً . ووقفها على من يقرأ فيهما ويهدي ثواب القراءة اليه . ومن آثاره الحسنة أنه عقم (٢) نهر الكركي وهو نهر عظيم يمر تحت البلاد ولا تنتفع به . وسبب ذلك ان بعض وزراء عادل شاه وهو الملا محمد الحراساني استبعد وقوع ذلك لسعته وكثرة مائه ، وظن انه يحتاج إلى عمل كثير لايقدر عليه أحد من المخلوقات ، وغرم مالا كثيراً للملك عنبر إن قدر على ذلك . فشرع فيه ، وساعد القدر فأكمل العمل في خمسة أشهر . وجعل له قنوات تجري إلى البساتين . والزراعات وكثر به النفع . وجمع من في ذلك المكان من السادة والاعيان وأنعم عليهم ، وأجزل الصدقات .

(١) مدينة في حضرموت ، جنوبي شبه الجزيرة العربية .

(٢) تابع الحفر سهلا .

وكانت عمارته في سنة أربع وعشرين وألف ، واخترع الفضلاء لذلك توارىخ عديدة بكل لسان . ومن أطف ما قيل فيه : (خير جاري) . وأكثر من شراء الحبوش ، وكانت التجار تجابهم اليه ، ويتغالون في أثمانهم ، إلى أن كثروا جداً . يقال ان جملة ما اشتراه من الذكور نحو ألفي حبشي . وكان الجلب ، أول ما يشتريه ، يسلمه إلى من يعلمه القرآن ، والخط ، ثم إلى من يعلمه الفروسية ، واللعب بالسيف والعود والسهام ، إلى أن يتفرس في أنواع الحرب والحيل والحداع ، ثم يترقى . وصاروا يترقون في المراتب ، ويتفاضلون في المناصب ، كل بمقدار سعيه واستحقاقه ومرتبته . وكان لهم اعتناء باقامة الجماعة ، وأمور الدين . وكان لكل أمير منهم فقيه ، يتعلم منه الفقه وأمور الدين ، وامام يصلي به ، ومؤذن ، وجماعة يتدارسون القرآن ، وجماعة يذكرون الله تعالى ليلة الجمعة والاثنين . وكان لكل أمير سمات مملوء بأنواع الاطعمة الفاخرة . وبالجملة ، فانهم وان كانوا عبيداً حبشة ، فلم تكن العرب تفوقهم الا بالنسب . وقصده جماعة من مشاهير شعراء عصره من البلاد الشاسعة ، ومدحوه بأحسن المدائح . وكان

السلطان ابراهيم عادل شاه أظهر له العداوة والحسد .
وبلغ غاية جهده في اضمحلال هذا الرجل ، وبذل أموالاً
كثيرة لمن يقتله أو يسمه فلم يقدر له ذلك . ومن عداواته .
انه عزم جهان كير (١) أعظم سلاطين الهند لمقاتلته .
وعهد اليه أن يبذل له في كل مرحلة مائة ألف هن ،
والهن بضم الهاء نحو دينار ذهباً . فأرسل جهان كير بعساكر
ونخيل وأفياح ضاق عنها الفضاء ، وجرى على مراد الله القدر .
وأقبل عادل شاه بعساكر من الجانب الثاني ، وأيقن كل من
عند الملك عنبر بالهلاك . فجمع من عنده من السادة الاشراف .
والعرب ، وطلب منهم أن يجتمعوا للدعاء كل يوم .
وبذل الخزائن للعساكر . وأقبل بعساكره على القتال .
ثابتين ثبات الجبال . وحمل بمن معه ، فقتلوا خلائق لا يحصون ،
وأسروا من وزراء جهان كير وعادل شاه أربعين ، أو
يزيدون ، ورجع الملك عنبر ظافراً منصوراً . ثم بعد ذلك
جرد الحمام سيفه عليه ، ومزق جلباب ملكه ، وتوفي
في سنة خمس وثلاثين وألف . وأكثر الناس ، والضعفاء .

(١) ابن السلطان (أكبر) الذي دعم الامبراطورية المغولية
المسلمة شمالي الهند. وقد حكم جهان كير من (١٦٠٥ م حتى ١٦٢٧ م) .

والفقراء ، والارامل والايتام ، من البكاء حول جنازته .
ويقال انه لم يعهد عند أهل الهند مثل ذلك اليوم . ودفن
بالروضة ، وهي موضع بالقرب من دولة آباد . وعمل على
قبره قبة عظيمة ، وللناس فيه اعتقاد عظيم ، وتحترمه
الملوك والسلاطين . ومن استجار بقبره لا يقدر أحد أن
يناله بمكروه . ورثاه الشعراء والفضلاء بأحسن المراثي ،
وعمل الادباء لعام وفاته تواريح نظماً ونثراً . ومن أحسنها
نثراً قول بعضهم : (اللجنة مشواه) . وكان موته بالسم .
وبعد موت الملك عنبر ، فوَّض السلطان برهان نظام شاه ،
تدبير مملكته إلى عبد العزيز فتح خان ، أكبر أولاد الملك
عنبر ، وجعله أمير الامراء . وكان شجاعاً مقداماً ، كبيراً
سخياً ، لكنه قليل التدبير ، مبذّر ، لا يصغي لقول مشير .
وارتكب الامر الفظيع ، فكان حجاج زمانه . ووقع بسببه فتن ،
ثم تضعضع الزمان ، وآل ذلك إلى حصاد العلم والدين ،
إلى ان رماه الدهر عن قوس وزارته . ثم خربت تلك الديار ،
وذهبت بهجتها . وخلقّت ديباجتها . قال الشلّي قلت :
وقد تكرر ذكر الدكن في هذه الترجمة ، وقد يتشوق
إلى الوقوف على معرفته من لاله معرفة بحقيقته . وتفصيل

أمره تحتاج إلى تأليف كبير ، ولايحتمل هذا المجال الا اليسير ،
فلنذكره بطريق الاجمال لضيق المجال . ومجمل ذلك انه
اقليم عظيم من أقاليم الهند التي هي أم الدنيا ، كثير الحصون
والقلاع ، حسن الهواء ، كثير الامطار والانهار والبساتين ،
أعدل الاقطار . وفيه حصون وقلاع في غاية الاستحكام
والاتقان ، وكل قصر شامخ له شرف في السماء باذخ ،
تحاكي الاهرام في احكام البنيان . عالية البناء ، تسامي
السماء . وهي الروضة المورقة ، والغیضة المونقة ، وقلاعها
مشحونة بآلات الحرب ، والمدافع الكبار ، مملوءة بالمكاحل
الكثيرة ، حصينة الحصار . وأهل حرفه أحذق الفطناء ،
وأفطن الحذاق : فما من صنعة الا ومن مشربهم مطلعها ،
وما من حكمة الا وعندهم شرفها واليهم مترعها ، وما من
حرفة توجد الا وجدتها فيهم ، وما من عمل يعرف الا اجتني
من مغانيهم . ومن أحسن بلاد الهند بلدة بيجافور . وفيها
وقف عليّ عادل للسادة والعرب ، أوقف عليها أراض ،
تصرف غلتها للسادة والعرب وفي . هذه البلدة وهي محل
السلطنة مكان عظيم الشأن ، محكم البنيان ، تحته بركة
كبيرة ، كأنما عناها الشاعر بقوله :

وبركة للحيون تبدو
في غاية الحسن والصناء
كأنَّها إذ صفت وراقت
في الارض جزءً من السماء

خفيفة الماء العذب ، لطيفة الهواء الرطب ، وبستان
معروف الاشجار ، مونق الثمار . وهو منتزه بديعي حسن .
وبمحاسنه يذهب عن القلب الحزن :

عليه من بهاء البلر نور
ووصف الشمس يكسوه الشعاعا

وفي هذا المكان خزانة من الخشب ، وعليه ستور .
وداخل الخزانة قبضة من ذهب . فيها من الآثار الشريفة :
أعني آثار النبي صلى الله عليه وسلم ، شعرات من شعره .
وفي كل ليلة جمعة وليلة اثنين ، يجعل للعرب خبز ، وحلوى .
ومن أعظم حصونه حصن دولة آباد ، الذي ضاهى لإرم
ذات العماد . وهو عجيب الوضع والبناء . بحيث يزعم الناظر
اليه انه من وضع الحزن لغرابة أمره . ومن عادة
سلاطينها . وملوكها . ووزرائها ، انهم يعتنون بالليالي

الفاضلة : كلية العيدين ، وليلة عاشوراء ، والمولد ،
والمعراج ، والنصف من شعبان . وليالي رمضان يحيونها
بالذكر . وتلاوة القرآن ، وتنشد المدايح النبوية السائر بها
الركبان . ويجمع عندهم في تلك الليالي ، العلماء ، والصلحاء ،
والقراء ، والكبراء ، والفقراء . ويمنون لهم الاسمطة
العظيمة ، ويفرغ على كواهلهم التشاريف الجسيمة . وقد
سبقهم إلى تعظيم بعض هذه الليالي كثير من الملوك . فقد
ذكر المؤرخون ان الملك المظفر صاحب إربل ، كان ينفق
ليلة المولد النبوي ألف دينار . وقد قيل في سماطه في بعض
المواليه ، فيما حكاه سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان ،
خمسة آلاف رأس غنم مشوي ، وعشرة آلاف دجاجة ،
ومائة ألف زبدية حامضة ، وثلاثون ألف صحن حاوي .
ويخص أعيان العلماء بالخلع والكرامات . ويطلق لهم عنان
العطيات . انتهى . ثم حصل لهاتيك الديار تغير واضمحلال
بسبب انهم اتخذوا رؤساء جهلاء والله أعلم .

* * *

(الأمير فخرالدين) بن قرقماس بن معن اللرزي ،
الامير المشهور ، من طائفة كلهم أمراء . ومسكنهم بلاد

الشوف (١) . ولهم عراقة قديمة . ويزعمون ان نسبتهم إلى معن بن زائدة ، ولم يثبت . وكان بعض حفدة فخرالدين . حكى لي عنه ، أنه كان يقول : **أصل** آبائنا من الاكراد . سكنوا هذه البلاد ، فأُطلق عليهم اللروز ، باعتبار المجاورة . لا أنهم منهم ، وهذا أيضاً غير ثابت . فانهم منشأ زندقة . هذه الفرقة وكثرتهم . وفخرالدين هذا ولي امارة الشوف من جانب السلطنة ، بعد موت أبيه . وعلا شأنه ، وتدرج إلى أن جمع جمعاً كبيراً من السكبان . واستولى على بلاد كثيرة ، منها صيدا ، وصفد ، ويروت ، وما في تلك الدائرة من أقطاع ، كالشقيف ، وكسروان ، والمتن . والغرب ، والجرد . وخرج عن طاعة السلطنة . ولما وصل خبره إلى مسامع الدولة ، بعثوا لمحاربته أحمد باشا الحافظ نائب الشام ، وكثيراً من أمراء هذه النواحي . فلم يقابلهم . وهرب إلى بلاد الفرنج ، وأقام بها سبع سنين ، إلى أن عزل الحافظ عن نيابة الشام ، فطاع إلى مستقره في شوال سنة سبع وعشرين وألف . وزاد بعد ذلك في الطغيان . والاستيلاء

(١) الجزء الجنوبي من لبنان ، حيث دير القمر وجزين .

الا عتواً وكبراً . وبلغت شهرته الآفاق ، حتى قصده الشعراء
من كل ناحية ومدحوه . ورأيت مدائح مملونة في كتاب ،
يبلغ مئة ورقة ، وأكثرها قصائد مطولة . وأما المقاطيع ،
فلم استحسن منها الا هذا المقطوع ، أنشده اياه عطاء الله
الساموني المصري يخاطبه به :

يَـرَاعَاكَ اِنْ أَبْكَيْتَهُ ضَحَاكَ النَّدَى
وَعَضَّ بَيْكَ (١) اِنْ أَضْحَكْتَهُ بَكَتِ الْعَدَا
فَسِيْمَةُ هَذَاكَ اعْتَدَى قَطَّ رَأْسَهُ
وسِيْمَةُ هَذَا قَطْرَ رَأْسٍ مِنْ اعْتَدَى

ولما تحقق السلطان مراد مخالفته وتعليه ، بعث لمقاتلته
الوزير المعروف بالكوجك المقدّم ذكره ، وعين معه
أمراء وعساكر كثيرة . فركب عليه وقتل أولاً ابنه الأمير
عليّاً ، ثم قبض آخرّاً عليه ، وجهزه إلى طرف السلطنة ،
فقتله السلطان ، وقد تقدم تفصيل ذلك في ترجمة الكوجك .
وكان قتله في سنة ثلاث وأربعين وألف . وأنشد بعض الأدباء
في ذلك :

(١) العضب : السيف القاطع

على البلاد. وبلغت اتباعه إلى نحو مائة ألف من اللوز والسكان.
واستولى على عجلون ، والجولان ، وهوران ، وتدمر ،
والحصن ، والمرقب ، وسايمة. وبالجملة فإنه سرى حكمه من
بلاد صفد إلى انطاكية . وتنبل ولده الأمير علي ، وولي حكومة
صفد . وكان وقع بين فخر الدين وبين بني سيف ، حكام
طرابلس الشام ، حروب شديدة . ودهمهم مرة ، فنهب
طرابلس ، وأباد كثيراً من ضواحيها ، وكان سبباً لخراب
البلاد . ثم صاهر بني سيفاً هو وابنه . وتزوجا منهم ، وجاءهما
أولاد . ولما ولي نيابة الشام الوزير مصطفى باشا بعد عزله
عن مصر في سنة ثلاث وثلاثين . قصده بعسكر الشام .
وكان الشاميون قد خافوا عليه . فلما وقع المصاف بين
الفريقين ، بالقرب من عنجر ، ولي العسكر الشامي هرباً .
فانكسر مصطفى باشا كسرة منكرة ، وقبض عليه ابن معن ،
وأخذه إلى بعلبك مقيداً في الباطن ، مطلقاً في الظاهر .
وبقي عنده إلى أن وصل الخبر إلى دمشق . فاجتمع علماءها ،
وكبرائها ، وذهبوا إلى ابن معن ، ورجوا منه فكاهه ،
فأطلق سبيله . وقدم دمشق فانتقم ممن كان السبب له في
الركوب . ورجع فخر الدين إلى بلاده ، ولم يزد بعد ذلك

ابن معن ما كان الا خبالا
ضعضع الكون واستمال ومالا
مكّن الله منه أحمد باشا
وكفى الله المؤمنين القتالا
ورأيت في المجموع الذي جُمعت فيه ملاءمته أن ولادته
كانت في سنة ثمانين وتسعمائة . وقيل في تاريخ ولادته
خطاباً لوالده :

ياأمير الجود هُنْتُت بمن
آنس الكون وحيّا الأهلا
قد غدا الدين به مفتخرا
أرّخوه فخر دين هلا

* * *

(الامام القاسم) الملقب بالمنصور بالله . بن محمد .
ابن علي ، بن محمد ، بن علي ، بن الرشيد . صاحب اليمن .
وتقدّم ذكر بقية نسبه في ترجمة ابنه الامام اسماعيل .
المتوكل على الله . قال السيد روح الله عيسى ، بن لطف الله .
ابن المطهر ، في كتابه (الانفاس اليمنية في الدولة المحمدية) :
« اعلم أن هذا الامام يعني القاسم ، مآلآبائه وأجداده في

الرياسة ، التي هي قود الجنود . وخفق البنود ، قدم ولا قدم ،
ولا كان لسافه علامة ولا علم . وكان أبوه من عسكر
والدنا المطهر بن شرف الدين . وله رزق يجري عليه من
جملة العسكر ، الذين هم غير مرابطين . وشهد مع والدنا
الحرب التي جرت بينه وبين الوزير الاعظم سنان باشا ،
وذلك في قاع خوجان . وكان مولد القاسم في سنة ثمان
وستين وتسعمائة . ولما بلغ سنّ الاحتلام ، قرأ القرآن .
وكان فيه فطنة ، وقوة . ولازم الامام الحسن ، الذي أدخله
الوزير حسن باشا الروم ، وأقام عنده في بلاد الاهنوم . وبعد
سفر الامام الحسن ، فارق تلك البلاد . ومابرح ينتقل في
البلدان ، ويطلب العلم . ولما أدرك طرفاً من العلوم ، دعت
نفسه إلى أن ينهض على فترة من الفتن . وذلك أنه علم أن
البلاد كانت لوالدي لطف الله بن المطهر ، قد خلت عن
واليها ، وتعطّلت من كاليها . فدعا وقام لثلاث بقين من المحرم ،
سنة ست وألف في محل يقال له جديد قارة ، من أعمال
شام الشرق . فاتقّت عند ذلك الحمرة ، وبرز نجم الفتن .
انتهى كلامه . وقال غيره : كان من أمره ، أنه لما توفي
المتوكل عبد الله ، بن علي ، بن الحسين . بن عز الدين ،

ابن الحسن بن علي المؤيد ، في سنة ست عشرة وألف ،
ظهر الامام القاسم في اليمن . وكاتبه الامير عبد الرحيم ،
ابن عبد الرحمن ، بن مطهر ، مكاتبات اتفقا عليها ،
منها فتح الحرب على السلطنة . وبث الامام الرسائل على
كافة القبائل ، على جاري عادته ، فأجابوه . وقامت الحرب
على ساقها ، فوجه الوزير سنان باشا المحاط على الامام
وعبد الرحيم . فضعف الامام القاسم عن المقاومة ، فعطفت
العساكر على عبد الرحيم . وحين رأى الامام اشتغال العساكر
بعبد الرحيم ، نهض على حصن شهارة ، وتحصن به .
ثم وصات الاخبار للوزير سنان باشا بأن السلطان أنعم باليمن
على جعفر باشا ، فتوجه من صنعاء إلى الابواب السلطانية ،
فأثاه الاجل وأُخذ بالمخا . وسبب موته ، انه لما نزل من صنعاء
أراد الاجتماع بجعفر باشا ، وهو بتعز ، فأكثر الناس
الازاحيف ، وأرهبوا جعفر باشا من لقاء سنان باشا . وفهم
الامراء منه ذلك ، فألحؤوه إلى المرور في أوعر المسالك .
فلما وصل إلى المخا ، مات في شعبان من سنة ست عشرة
وألف ، ودفن إلى جنب قبر الشيخ الامام علي بن عمر
الشاذلي . وكان يحب العلماء والفقراء ، وآثار خيراته

كثيرة . ووصل جعفر باشا إلى صنعاء في شوال . ولما دخلها رأى تقوي الامام القاسم بمساعدة عبد الرحيم ، فصالح الامام في ذي الحجة سنة ست عشرة وألف ، على جهات معلومة . وفك أولاده من حصن كوكبان ، فأطلقهم الوزير ، وأحسن اليهم . ووجه العسكر على عبد الرحيم فأسره ، وأرسله إلى الابواب السلطانية . ثم استمر الامام القاسم والياً ، إلى أن حاربه الباشا وحصره في حصن شهارة . فخرج منه متنكراً ولم يشعر به أحد . وبقي ولده ، محمد المؤيد ، إلى أن عجز وضاق حاله ، فخرج بالأمان على أن يكون قراره عند صاحب كوكبان . وخرج باخوانه ، وأهله ، وقبض الباشا حصن شهارة . ثم مات ليلة الثلاثاء خامس عشر شهر ربيع الاول سنة تسع وعشرين وألف ، وخلف عدة أولاد ، منهم محمد ، والحسن ، والحسين ، وهو أعلمهم ، وأحمد المخلوع ، واسماعيل . فقام من بينهم محمد بعد أبيه . وجدّد الصلح بينه ، وبين الوزير محمد باشا ، على ما كان عليه في زمن والده . ثم اجتمعت كلمة اليمن اليه ، وأخرج الاتراك بأسرهم من اليمن .

* * *

(كيوان) بن عبد الله . أحد كبراء أجناد الشام .
كان في الاصل مملوكاً ، لرضوان باشا نائب غزة ، ثم
صار من الجند الشامي ، وسرداراً عند صوباشي (١) .
الصباحية (٢) . فترع إلى التعدي ، وأخذ الناس بالتهمة ،
وتطاول إلى أخذ أملاكهم ، حتى استولى على أكثر بساتين
الربوة ، والميزّة (٣) ، وضم بعضها إلى بعض . وكان
إذا أخذ حصّة في مكان ، احتال على الشركاء فيه حتى
يأخذ أشقاصهم (٤) طوعاً أو كرها . وكان يساعده
على ذلك نوّاب محكمة الباب وأعيان شهودها ، ويبالغون
في نصيحته في كتابة التمسكات ، يعلمونه الحيلة ، وهو يبالغ
في اكرامهم . ومن غريب خبره ، أنه كان مستأجراً لبستان من
بساتين وقف بني العنبري قرب المزة ، وكان ملاصقاً

-
- (١) كلمة تركية تتألف من مقطعين : صو وتعني (جيوش) .
باشي : الرأس . أي قائد جيش . وهو أحد الفرسان المقطعين لزعامة .
ضمن الوحدة الادارية العثمانية الصغيرة وهي (القضاء) . ويقوم في
فترة السلم بأعمال الشرطة وحفظ الأمن .
(٢) كانت قرية شمالي غربي دمشق . وفي سفح جبل قاسيون .
(٣) من ضواحي دمشق .
(٤) الشقص : النصيب ، والسهم .

لبساتين بيده ، فطلب من ناظر الوقف ، أن يأذن له بقطع
الغراس ، ويحكره أرض البستان ، فلم يفعل . ووقع بينه وبينه
مشاجرة ، فأدّى طغيان كيوان إلى أن جمع جمعاً من الفلاحين ،
وأتى بهم إلى البستان ليلاً . وأمرهم بقطع جميع غراسه
الكبير . ففعلوا ، وغرسوا مكانه غراساً لطيفاً ، وحرثوا
الأرض ، وغيروا حدود البستان ، وبابه ، وأضافوه إلى
بساتينه . ثم استدعى قاضي القضاة بالشام للكشف عليه .
وأحضر أولاد العنبري ، فادّعوا أن البستان داخل في
وقفهم ، وأبرزوا كتاب الوقف ، فقرئ بالمحضر العام ،
فلم توافق الحدود والغراسات . فمنعهم القاضي ، وسلط
يد كيوان على البستان . وبقي كيوان يترقب لابن العنبري
الناظر ، فرصة ليوقعه في هلاك ، حتى قدم نائب الشام محمد
باشا ، في سنة إحدى بعد الألف . فتقرّب منه كيوان ،
وأطمعته بجرمة (١) عظيمة في أن يوقع بابن العنبري
فعلاً . فأمر منادياً ينادي على الخواجا (٢) محمد بن العنبري ،
بأن من له عنده من جهة بستان ، أو معاملة ، أو ظلمه ،

(١) مكسب ، وتمويض ، وغرامة .

(٢) التاجر .

أوزور عليه ، فليحضر غداً بعد صلاة الجمعة ، إلى الحجاجية .
وهو بستان بالقرب من القنوات ، كان قد ادّعى المذكور
أنه اشترى نصفه من رجل ، وأبرز تمسكات تشهد بذلك ،
فلما كان من الغد بعد صلاة الجمعة ، صلى الباشا في السنانية ،
وأرسل خلف الشيخين : الشيخ محمد ، وأخيه الشيخ ابراهيم
ابني سعد الدين . فخرجوا من الجامع بالفقراء ، وانضم
اليهما من رعايا الناس من لا يحضر . وأرسل الباشا إلى القاضي
فحضر ، وأمر باحضار ابن العنبري فأحضر . وعقد له مجلس
بالبستان . وادّعى عليه السيد محمد الجعفري ، بأن من الجاري
في وقف السبع النوري ، البستان المعروف بالحجاجية ،
وان الخواجا محمداً المذكور وضع يده بغير
طريق . فستل عن ذلك فأجاب بأن نصفه بيده بطريق
الاجارة ، والنصف بطريق الشراء من فلان ، وأبرز من
يده تمسكات تشهد له بطبق جوابه . فأبرز الجعفري مايدل
على أن جميع البستان وقف السبع النوري . فقال له القاضي :
يارجل هذا ظهر به كتاب وقف يشهد بوقفيته ، فكيف
تشتري ما هو وقف ؟ فقال : لم أعلم بكونه وقفاً ، وانما
اشتريته على كونه ملكاً ، كما يشهد لي بذلك هذه التمسكات ،

على أني لما اطلعت على كونه وقفاً ، خرجت عنه وأعدته
وقفاً كما كان ، وأظهر تمسكاً يشهد باعادته وقفاً كما كان .
فقال له القاضي : يلزمك ريع مدّة وضع يدك عليه ،
فقال : ان لزمني شيء دفعته . فقال له القاضي : ألزمتك
بمائة قبرصي بدل ريعه الذي استوفيته منه . فقال : نعم
أدفع ذلك . فلما لم يظهر في هذه الدعوى نتيجة كبيرة ،
قال الجعفري للشيخين ومن معهما : يامشايخنا ويا ساداتنا
ماذا تقولون في هذا الرجل ، وفي سيرته . فقال الشيخان :
نشهد أنه رجل مزورّ مفسد ، ورموه بأمر . وأجابهم الناس
من كل جانب هذا مزورّ مفسد واجب القتل ، وأمثال هذا ،
حتى صار للخلق ضجة عظيمة . فأمر برده إلى القلعة ،
والناس خلفه يضجون عليه . قيل : كان هيأهم لذلك كيوان .
ووقع بعد ذلك أن الباشا أمر بدمغ الخواجا محمد بن
العنبري ، فدمغ بالنار في جبهته ، وأنفه ، ووجهه ، وأركب
حماراً مقلوباً ، وكشف رأسه ، وعرّي حتى صار بالقميص ،
وطيف به في أسواق دمشق وشوارعها ، هذا جزاء من
يزورّ على أوقاف نور الدين الشهيد . ثم بعد التطواف به
أعيد إلى القلعة . وحزن الناس عليه حزناً عظيماً ، وكل ذلك

كان بتدبير كيوان ، لعداوته له . ثم عظم أمر كيوان ، وانتقل إلى سردارية (١) دمشق . وأخذ أكابر أهلها بالحيلة ، وعوامهم بالرهبة . وكان له كتحدا ، يقال له ابراهيم بن البيطار ، وكان من أنخبث الناس وأسعاهم في الاذية . وكان من جملة خيائنه أن يحتال بنسوة عنده ، بأخذ المرأة منهنّ حلياً أو حاجة من نساء الاكابر ، إما على سبيل العرض على البيع ، أو على سبيل العارية ، وتأثيه به . فيأخذه في كفه ، ويذهب إلى ولي تلك المرأة ، وهو مظهر لحزنه وهمه ، ثم يطلعه على مايكون معه ، سرّاً ، ويقول له : قد دفعت اليوم عنك سرّاً ، فان صاحبة هذا المتاع أخذها البارحة جماعة العسس في جمعية ، فخفضت عليك من غائلة هذه القصة ، فقلت هذا المتاع لبنتي ، أولاًختي . خذ هذا المتاع ، واكتم هذا السر ، وقد وزنت عنك لكيوان كذا وكذا . فما يسع الرجل إلا أن يدفع اليه المال ، ويتحمل منته . ولم يزل كيوان على تجرّيه ،

(١) قيادة الانكشارية في دمشق . والسردار لقب يعطى لأمر الانكشارية في الولاية ، وكذلك لأمر الفرسان فيها ، كما يعطى لقائد الحملة العسكرية .

حتى وقع بينه وبين الجند فتنة عظيمة ، وصمموا على قتله ،
و قتل كتحذاه ابن البيطار . فاختفيا ، ثم هرب ابن البيطار ،
فلحق بالدروز ، ثم نزل في البحر . وسافر إلى مصر ،
وضبطت أمواله . واصطلح كيوان مع الجند ، بعد أمور
جرت ، وبقيت الضغينة في قلبه لهم . ولما كانت فتنة الأمير
علي بن جانبولاذ ، تعين لمحاربته الأمير يوسف بن سيف
كما تقدم ، ومعه أمراء الشام . فبعثوا كيوان إلى أحمد باشا
أمير غزة ليأتي به ، فوافق وصوله موت أمير غزة . وكان
ابن سيف والعساكر تلاقوا مع ابن جانبولاذ ، وكسروا ،
فوصل خبر الكسرة إلى غزة ، فرجع كيوان منها إلى ابن
معن ، وحمله على معاونة ابن جانبولاذ . واغتنم الفرصة ،
ومازال بابن معن حتى قوى رأس ابن جانبولاذ على المسير
إلى دمشق وانتهاك حرمتها ، وانتهبوا ما أمكنهم نهبه من
خارجها . ثم ان السلطان عين الوزير مراد باشا لمقاتلة ابن
جانبولاذ . فلما وصل إلى حلب ، قاتله وفتك فيه . وفي
أعوانه من السكبانية ، حتى كاد يستأصلهم . فذهب أهل
الشام اليه للشكاية على ابن معن ، فتوجه كيوان إلى جانب
الوزير ، وخلصه بمال كثير كان معه من ابن معن . فترك

الوزير ابن معن على حاله . ثم رجع كيوان إلى دمشق بالاموال السلطانية من عند ابن معن ، واستقرّ قليلاً . ثم عاد إلى الفتن ، ورجع ابن معن إلى التمرد على حكام الشام ، حتى وليها الحافظ أحمد باشا الوزير . فكاتب في شأنه إلى عتبة السلطان ، فجهز اليه العساكر من أول ولاية أناتولي إلى أرض دمشق . ثم خرج إلى ابن معن . فحصل له ولكيوان رعب شديد ، واقتضى رأيهما آخرّاً إلى أن نزلا البحر ، ولحقا ببلاد الفرنج ، واستقرّا هناك إلى أن عزل الحافظ عن ولاية الشام . فخرج كيوان إلى صيدا وحده ، وترك ابن معن في بلاد الفرنج ، ليكشف له الحال . فرأى محمد باشا الوزير قد صار سرداراً على العجم ، ونزل حلب ، وأراد تصحيح أمر الشام . فخرج اليه الامير يونس بن الحرفوش أمير بعلبك وكيوان ، وتوافقا معه ، على أن يهدما قلعة الشقيف ، وقلعة بانياس ، ويسلما اليه مالا ، وتعطى البلاد لابنه الامير علي ، وطلبوا الامان للامير فخرالدين . فاجاء من بلاد الفرنج ، وكان كيوان قد استقر بدمشق . فأناهر أنه انفرد عن ابن معن .

واستقل بأمره في الشام . ثم ذهب إلى مكة ، ورجع وقد أظهر كثيراً من عمل الخير ، وسمي نفسه الحاج كيوان ، وأمسك عن قبول هدية الناس . وبقي في انفرادده وصدارته . إلى أن تحرّك ابن معن على البقاع . وخرج لمقاتلته الوزير مصطفى باشا الخناق نائب الشام . وكان كيوان ممن سارع إلى ابن معن لمعاونته . ولما انكسر عسكر الخناق ، وقبض ابن معن عليه ، وقعت الفتنة بين ابن معن وكيوان بسبب ذلك . وآل الامر بينهما إلى أن ضرب ابن معن كيوان بخنجره في رأسه فقتله . وكان قتله في صبيحة يوم الخميس الثالث والعشرين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وألف ، ودفن عند باب دمشق من أبواب بعلبك . وقيل في تاريخ قتله :

قال لي صاحبي وقد مات كيوان
ن هلاكاً ومن له الذكر يتلى
كيف راح الخبيث ناديت أرخ
علم الله راح كيوان قتلا

وأرّخه أبو بكر العمري شيخ الادب أيضاً بقوله :
ولما طغى كيوانُ في الشام واعتدى
وأرجف أهليها وللظلم فصلاً
فقلت لهم : قرّوا عيوناً وأرّخوا
ففي بعلبك قتلُ كيوانِ أصلاً
وذهب دمه هدرأً والله تعالى أعلم .

* * *

(محمد باشا) . نائب حلب وأذنة ودمشق . ذكره النجم
الغزي ، وقال في ترجمته : كان وزيراً ولي نيابة حلب
في سنة احدى وثلاثين وألف ، وكان ظالماً . ثم عزل عنها
وولي مدينة أذنة . وأساء الحكم فيها ، حتى حرّج على البضائع
كلها ، فلا يبيعها جلابها الا لمن عينه من جماعته ، ثم تباع
للسوقه بعد ذلك . ثم لما خلع السلطان مصطفى عن الملك ،
وسلطن السلطان مراد ، ولي علي باشا المنفصل عن بغداد
الوزارة العظمى . وكان أخو محمد باشا المذكور ، تلميحاً
عنده . والتلميح عبارة عن مرسال بين السلطان والوزير ،
يذهب بعروض التوجيهات وغيرها من المعروضات ،

ويأتي بالجواب . فسعى لاختيه في ولاية دمشق . فلما وليها أرسل متسلماً عنه ، يقال له كنعان ، فدخل دمشق في يوم الاثنين خامس صفر سنة ثلاث وثلاثين وألف . ووافق دخوله اشتعال الفتنة بسبب انكسار عسكر دمشق في سادس المحرم صحبة الوزير مصطفى باشا . وذلك أن العسكر الشامي ، كانوا قصدوا محاربة أولاد الحرفوش واخراجهم من بعلبك . وطلبوا من مصطفى باشا أن يخرج معهم . فأبى أولاً وأمر بالتربص . فلم يرضوا الا بخروجه ، فخرج بهم ، بعد أن كتب عليهم حجة بذلك . ولما تقابل الفريقان ، انكسر العسكر الشامي ، ووقع الوزير المذكور في أيدي عشير ابن معن . ثم بقي عنده بالبقاع أياماً ، ثم ذهب معه إلى بعلبك ، في طلب أولاد الحرفوش . ووقع الرأي من قاضي القضاة بدمشق ، المولى عبدالله الشهير ببلبل زاده ، وعقلاء الناس ، أن يذهب جماعة في طلب عوده إلى دمشق . فعين القاضي جماعة من الوجوه . فخرجوا من دمشق إلى بعلبك ، وأقاموا بها اثني عشر يوماً ، ثم عادوا في خدمة مصطفى باشا . فدخل دمشق يوم الخميس تاسع وعشري محرم ، والفتنة قائمة . فلما كان يوم السبت ثاني صفر ، عقد عند الوزير مجلس

عظيم ، كتب فيه حجة على العسكر أنهم لا يرابون ، ولا يتجاوزون الحدود في خدمتهم ، مع أمور أخرى . فبينما الناس على ذلك ، وطائفة العسكر في أمر مريع بسبب ذلك ، اذ دخل كنعان متسلم محمد باشا صاحب الترجمة ، فسلمه مصطفى باشا البلد أياماً . ثم رفع يده عنها خوفاً من آثار الفتنة ثانياً ، بسبب أن محمد باشا انحاز إليه حمزة الكردي ، أحد رؤساء الجند ، وجماعته الفارون . فاذا دخل ، دخلوا إلى دمشق ، واذا دخلوها طلبهم ابن معن ، ولا يسلمون إليه ، فيدخل الشام في طلبهم . وكانت أهالي دمشق قد تقدم لهم منه مخافات وأراجيف ، حتى نقاوا أمتعتهم وأثقالهم من خارج المدينة إلى داخلها مراراً . فرفع مصطفى باشا يد كنعان عن البلد بسبب ذلك . ثم عقد عنده مجلساً في دار الامارة يوم السبت سابع أوثامن ربيع الاول ، جمع فيه العلماء ، ووجوه العسكر . ثم اجتمعوا بقاضي القضاة بلبل زاده ، وطلبوا منه الحضور إلى الجامع الاموي ، فحضروا ومعهم أهل البلد ، وكتب محضر في الواقعة ليجهز إلى طرف السلطنة . ثم خرج الجند إلى القطيفة ، فرأوا بها محمد باشا وقد نزلها ، فأشاروا عليه بالرجوع

إلى حماة ، ليعرض ذلك إلى السلطان . ثم عقد بعد ذلك مجلس آخر . عند القاضي ، وكتب عرض آخر إلى الباب العالي . وخرج كنعان إلى أستاذه ، وبقي الوزير مصطفى باشا بدمشق . فلما كان عشية الاثنين ثاني جمادى الآخرة ورد من بعلبك حسن بن الطريفي ، بحكم سلطاني بتقرير محمد باشا . وكتاب منه في ذلك . بعد أن كاتب محمد باشا الأمير فخر الدين بن معن ورضي بذلك . فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الآخرة في وقت الضحى ، سافر مصطفى باشا من دمشق ، وفي صحبته قاضي القضاة بلبل زاده ، والرئيس سهراب الدفتری معزولين . وفي يوم الثلاثاء وصل وطاق محمد باشا إلى المزة ، ونزل بها آخر النهار ، وأقام بها ليلة الأربعاء ويومها . وتردد إليه بعض أهل البلد ، وناققه بعضهم . ثم دخل دمشق في يوم الخميس من جهة القابون ، معرضاً عن السلام على الناس ، حتى دخل دار السعادة . فتردد إليه بعض الناس ، فلم يقم لأحد منهم . ثم انقطع يوم السبت عن الخروج ، وعاشت جماعته في البلد وضواحيها يمنة ويسرة : كان كل واحد يريد أن ينتقم من دمشق وأهلها . وظنّ الناس عدم خروجه

عن تكبر ، فاذا هو محموم. ثم مات يوم الجمعة ختام جمادى
الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وألف . وظهر بعد موته أنه كان
لعلماء البلدة في نية شنيعة ، وكان موته لطفاً من الله تعالى
بهم . وقام مقامه ابراهيم باشا الدفترى . ثم عند الغروب
من يوم موته ورد إلى دمشق راكبان ، أخبرا أن مصطفى
باشا قرر على ولاية دمشق ، وضبط تاريخ تقريره ، (مصطفى
باشا قرر) ، وهو لطيف .

(قلت) : وصاحب الترجمة قد تقدم معرض في ذكر
موته في حرف الهمزة في ترجمة أبي البقاء الصالحي ،
وهو كاللينة لما ذكرناه هنا .

* * *

(محمد باشا) الكوبري الوزير الاعظم في عهد السلطان
محمد ، بن السلطان ابراهيم ، أشهر من نار على علم .
كان من أمره انه ولي حكومة الشام في سنة ست وخمسين
وألف ، ثم ولي حكومة القدس ، ثم طرابلس الشام .
ولم يزل خامل الذكر ، مهضوم الجناح ، إلا أن له حسن
تدبير ، وحزمًا في الامور . وكان أمر الملك من عهد أن
ولي السلطان محمد المذكور السلطنة ، قد اختل . وتهاون
رؤساء الدولة ، لصغر السلطان ، في نظم الامور على نسق
يرضي الجمهور . فكثرت الاغراض ، وبدلت الجواهر

بالاعراض ، وتغيرت الدول ، وذهبت الناس الاول ،
وقامت الفتن على ساق ، وانتصب الخلاف ، وارتفع
الوفاق ، وتقوّت ضعاف الدولة ، وظهروا العتو والصولة .
فكانوا في آرائهم ناظرين إلى ورائهم ، وبهذا السبب كان
يولى الوزير أياماً ، فلا يرى هدوءاً ولا راحة ، ولا إن كان
مناماً ، ثم يقتل أو يعزل وينهب أو يسلب ؛ إلى ان بغت
طائفة من العبيد اللئام ، الذين هم داخل حرم السلطان من
الخدام ، وهجموا على جدّة السلطان صاحبة الخيرات ،
فقتلوها ليلاً ، ولم يخشوا إثمًا ولا ويلًا . ولمّ تزل نار
تلك الفتن تتقد ، والجمعيات السوء في كل حين تنعقد ،
إلى ان وقع الاختيار على صاحب الترجمة ، أن يكون وزيراً ،
ومدبراً للملك ومشيراً . هنالك انقلب العيان ، وأخذ حده
السيف والسنان . ومن هنا أشرع في الترجمة فأقول :
أخبرني من أثق به ، انه لما استصعب الامر في لم شعث الدولة ،
جمع اليه السلطان المقربين من أهل الحرم السلطاني ، وفيهم
علي آغا الطويل المشهور ، وتفاوضوا فيمن يصلح للوزارة
العظمى ، ويحسم مادة التفرّق . فكل منهم أشار إلى واحد ،
حتى انتهت النوبة إلى علي آغا المذكور . فأشار إلى أنه

لا يلقى بالوزارة إلا صاحب الترجمة . فسخرها منه ، على ما يعرفون من انحطاط قدره . فقال : أنا أقول هذا عن اختبار وممارسة . والامر مأخوذ على التراخي ، فيمكن أن يكون وزيراً أياماً ، ثم اذا لم يحكم الامر ، عزل . وليس عزله بالصعب على الدولة . فاتفق الرأي عليه . ثم في ثاني يوم ، ناداه السلطان وسلم اليه الختم ، وأوصاه بما يلزم التبصر فيه . فكان أول ما ابتدأ فيه من الامور ، نفي علي آغا الذي كان سبباً لتوليته لجزيرة قبرس ، وابعاده عن الدولة . وقال من قدر على التولية ، قدر على العزل . ثم أطلق القتل في أركان الدولة ، واحداً بعد واحد . وقام بأعباء السلطنة ، وأحمد بحسن تدبيره ثائرة الفتن ، وأضعف العسكر بالاسفار ، وأكثر من محو أصحاب الكلمة ، وفرّق شملهم . وأبأن ما يحكى عنه في خصوص القتل . أنه كان يؤاخي وزيراً أحسب أن اسمه خسرو باشا ، وكان بينهما موثيق ومودة زائدة يعرفها الناس . فاستحضره يوماً اليه ، وقال أريد قتلك اليوم . فقال له : لم تقتلني ولم يصدر مني ما يوجب القتل ، وأنا على عهدك وميثاقلك ، فماذا يحصل من قتلي ؟ فقال له : ان في قتلك ارهاباً عظيماً للقوم ، فانهم يقولون

الوزير قتل أقرب الناس اليه ، فهو لا يتوقف في أمر القتل
فيلقي الرعب في قلوبهم . فأبرم عليه في ترك ذلك ، فلم
يفعل ، وقتله في الحال . (قلت) وقد وقع مثل هذا كثيراً ،
وأعجبه ، ما وقع في زماننا القريب للإمام محمد بن أحمد
ابن الحسن سلطان اليمن ، أنه قتل ابنه ارهاباً لعسكره ،
وقال لهم : ما فرطت في ابني الا ليعلم الناس اني لا أعرف
إلا القتل ، ولا أتوقف فيه بحال . فملك البلاد ، وقهر رعيته
بهذا الصنيع الفظيع . وكذلك أخاف صاحب الترجمة الناس
بفعله هذا ولزم كل أحد منهم في زمانه طوره . وسأله
الزمان ، وانقاد له فيما أبرمه ، وعظمت دولته ،
وجبيت اليه ذخائر الدنيا . ثم ان السلطان محمداً سافر إلى
أدرنة سنة سبع وستين ، وجهز صاحب الترجمة إلى قتال
الكفار ، فسافر وافتتح قلعة ينوه (١) وبعض قلاع آخر .
ونخرج في ذلك الاثناء على الدولة ، حسن باشا محافظ حلب ،
وتبعه ابن الطيار كافل الشام ، والوزير كنعان ، وانضاف
اليهم من العسكر جمع عظيم . وكان خروجهم خوفاً
من صاحب الترجمة ، وحسداً له . فصرف وجه همته

(١) مدينة جنوبي بولونيا .

إلى الانتقام منهم ، فقتلوا على يد مرتضى باشا كما أسلفته في ترجمة حسن باشا . وأوقع القتل فيمن كان تبعهم من السكبان وغيرهم ، على يد نواب البلاد ، فقتل منهم خلق كثير ، وتفرقوا أيدي سباً . وكان فرط من العسكر الشامي الامر في انحيازتهم إلى محافظة دمشق ، فجهز شردمة نحو الثلاثمئة من جند السلطان المعروفين بالقبوقولية ، وبعث بهم ، فوصلوا دمشق واستقروا بقلعتها ، وأخذوا غالب دورها ، وتسلموا أبواب المدينة ، وباب المحكمة ، والحسبة ، وسوق الخيل ، وميزان الحرير ، وبقية الخدم ، التي كانت مخصصة بعسكر الشام . وبذلك انحط عسكر الشام بعض الانحطاط ، بماتوارد عليهم من الوهم . ثم أخذ كبراءهم بغتة ، فأرسل أمراً بقتلهم ، فقتل منهم مقتلة عظيمة . وقد قدمنا قصة قتلهم في ترجمة عبد السلام بن عبد النبي فلا نطيل باعادتها . ثم توجه السلطان إلى بروسة ، وصاحب الترجمة معه ، وأقاما بها أياماً . ثم رجعا إلى مقر السلطنة ، وقد تمهدت البلاد ، وتأطدت أحوال الملك وأمنت الغوائل ، واطمأنت الناس . وتفرغ الوزير صاحب الترجمة لاجراء الخيرات ، فعمر الخان المعروف به في طريق قسطنطينية ، بين اسكي

شهر وازنيق ، والخان ، والعمارة العظيمة بقصبة الثغور ،
والعمارات الكثيرة في ادلب ، وفي بلاد روم ايلى ، مما صار
تعلقاً عظيماً ، وجواراً جسيماً . ثم وقف على جهات .
وقد وقفت على صورة الوقفية بانشاء المولى أنسي ، وذكرت
ديباجتها في ترجمته فارجع اليها . وكانت وفاة صاحب
الترجمة في سنة اثنتين وسبعين وألف ، ودفن بالتربة
التي عمرها .

* * *

(السلطان محمود) بن ابراهيم ، عادل شاه ، سلطان
الدكن ، الملك الموفق ، الناصر للشريعة . كان ملكاً كثير
الفضل ، حسن التدبير ، سار في ولايته أحسن سيرة ، تولى
الملك بعد وفاة والده ، وتوفي هو في سنة سبع وستين وألف .
وفي هذه السنة أصيب خرم شاه جهان ، ابن جهانكير
شاه ، أكبر ملوك الهند ، بفالج عطله عن الحركة ، وحصل
بين أولاده حروب كثيرة . ولما أراد الله تعالى بالهند خيراً
واحساناً ، وقدّر ظهور العدل فيهم كرماً وامتناناً ، أظهر
في خافقها شمس السلطنة بلا ريب ، وأنار في سماء سلطنتها
أنوار بدور الملك السلطان أورنگ زيب . وطوى بساط

أخوته ، ومنتفحلهم ، ومزق وحرق بنار المظلومين
لباسهم وخرق . وقتل أخاه ، داراشكوه ، واقتلعه
هو وأصحابه . وكان داراشكوه ذا ذوق وفطنة بهية ،
وصفات مستحسنة ، إلا أنه في آخر عمره صارت سيرته
مدمومة ، وأحدث مظالم كثيرة . وقتل أخاه الثاني مراد
بنخش ، وفر محمد شجاع أخوه الثالث ، ولم يعرف أين ذهب .
وأورنك زيب ممن يوصف بالملك العادل الزاهد ، وبلغ
من الزهد مبلغاً أناف فيه على ابن أدهم . فانه مع سعة سلطانه ،
يأكل في شهر رمضان رغيفاً من خبز الشعير ، من كسب
يمينه ، ويصلي بالناس التراويح . وله نعم بارّة ، وخيرات
دائرة جداً . وأمر من حين ولي السلطنة برفع المكوس والمظالم
عن المسلمين ، ونصب الجزية . بعد أن لم تكن
على الكفار . وتم له ذلك مع انه لم يتم لاحد من اسلافه ،
أخذ الجزية منهم لكثرتهم ، وتغلبهم على اقليم الهند .
وأقام فيها دولة العلم ، وبالغ في تعظيم أهله . وعظمت
شوكته ، وفتح الفتوحات العظيمة . وهو مع كثرة أعدائه ،
وقوتهم ، غير مبال بهم ، مشغول بالعبادات ، وليس له
في عصره من الملوك نظير ، في حسن السيرة ، والخوف
من الله تعالى ، والقيام بنصرة الدين . رحمه الله تعالى .

* * *

(الامير منصور) المعروف بابن الفريخ ، تصغير
فرخ ، البدوي ، أمير البقاع العزيزي ، بعد اولاد
الحنش . كان في أول أمره بدوياً من عرب تلك البلاد ،
وكان يتكسب بالرجادة (١) . ثم انتهى أمره إلى أن حاز الامارة
وتظاهر بتتل المناحيس ، وأهل الزعارة والشطارة . وكان
يبغض اللصوص والقطاع . ويعاملهم اذا قبض عليهم
بالقتل والتمثيل . وكان يحب أهل الشجاعة ، حتى عظم
أمره . فولي حكومة البقاع ، ثم أعطي حكومة نابلس .
وانحاز اليه جماعة من جند دمشق ، واشتهر ، وأخاف
الدروز . ثم شنّ الغارات عليهم ، وكان هو السبب في
أخذ ابراهيم باشا ، أحد الوزراء في عهد السلطان مراد بن
سليم اليهم ، وقد جاء من نيابة مصر . ثم كان قيده (٢) ،
حتى أثر فيهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . واختفى منهم
الامير قرقماس بن معن ، حتى مات في اختفائه . ثم جمع
له بين حكومة نابلس ، وصفد ، وعجلون ، والبقاع ،
وأضيف اليها امارة الحاج . والتزم مالاً عظيماً على صفد .

(١) نقل سنابل القمح إلى البيدر .

(٢) رجله المقدم ، وأداته .

ونابلس ، وجعل نابلس باسم ولده ، وعجلون باسم واحد من جماعته ، يقال له دالي علي ، وصفد باسمه ، والبقاع بحاكم من قبله . وسافر بالحج مرتين ، في سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وفي التي بعدها . ثم زاد عتوه وتمردّه ، وخرب بلاداً كثيرة ، وقتل خلقاً كثيراً . وعمر عمارات عظيمة بالبقاع ، بقرية قبر الياس . وشرع في عمارة دار عظيمة خارج دمشق ، قبلي دار السعادة ، لم يرسم مثلها : جعل بابها بالرخام الابيض ، والحجر الاحمر المعدني ، ونقل لها الرخام من بلاد السواحل ، والحجارة من البقاع ، واستعمل فيها العملة بالسخرة . وسيرته طويلة ، وكان مع ما هو فيه من التعدي ، ملازماً للصلوات ، محباً للسنة وأهلها ، مبغضاً للرافضة ، والدروز ، والتيامنة (١) ، شديداً على المفسدين . وكانت الطرقات آمنة في أيامه . ثم لما ولي مراد باشا نيابة الشام ، وهو الذي صار آخر وزيراً أعظم ، طلع من صيدا في سنة احدى بعد الالف . فخدمه الامير فخرالدين بن معن ، بخدمة سنّية ، وأطعمه بكل جزئية وكلية . فعمل مراد باشا على قبض الامير منصور صاحب الترجمة ، وهو آمن منه ،

(١) سكان وادي التيم .

بعد أن أمره بعمل ضيافة له في بيته الذي ابتناه عند الدرويشية ،
ثم اعتذر عن الذهاب اليه ، وأمره أن تكون الضيافة عنده
في دار السعادة . فلم يشعر الامير منصور الا وقد أحيط به ،
ثم أودعه قلعة دمشق . وعرض فيه إلى السلطان مراد ،
فجاء الامر بقتله . فقتل في نهار الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع
الاول سنة اثنتين وألف . وأخرج من القلعة في بلنسة عتيقة ،
محمولاً فيها من غير نعش ، وغسل في بيت زوجته بنت مراد
باشا ، ودفن بتربتهم قبلي ميدان العبيد ، خارج باب الصغير .
وفيه يقول الاديب يوسف العلمي مؤرخاً :

في السحن شخصٌ اشتبكُ
مقيماً من غير شكٍ
من ظلمه وجوره
عليه قد دار الفأسك
فكم طغى وكم بغى
وكم سبى وكم فتك
لم يُرَ في خيرٍ سعى
ولا مشى ولا سلك

فلا نجا لما اعتدى
ولا افتدي بما مملك
وقد أتى تاريخه
ابن فريخ جاهلك

ونخلف عشرة أولاد أكبرهم قرقماس ، الظالم العسوف .
وكان عند قتل والده مقيماً ببوارش من أرض البقاع ، فأرسل
مراد باشا إلى الأمير فخر الدين بن معن يأمره بالكبس عليه .
فتوجه إليه في جمع عظيم من الدروز والتيامنة . فقبل وصوله
إلى بوارش التي كان نازلاً فيها ، جاءه النذير ، ففر ، ومعه
نحو مائة بندقاني . فعمدوا إلى بيوته فنهبوها وحرقوها ، ونقلوا
محاسنها إلى بلادهم ، ثم نزلوا إلى قبر الياص . وبعثوا إلى مراد
باشا يخبرونه أن قرقماس هرب إلى ابن سيف ، ببلاد كسروان .
فأرسل مراد باشا يأمرهم بالرحيل عن قبر الياص إليه . ثم جاءت
الاخبار بأن قرقماس لما توجه من بوارش ، هارباً إلى ابن سيف ،
لم يمكنه ابن سيف من النزول عليه في بلاده . فتفرق عنه من كان
معه ولم يدر أين ذهب والله أعلم . (قلت) : ثم كانت عاقبته
أنه قتل على يد الأمير موسى بن الحرفوش بمواطاة الأمير فخر
الدين بن معن ، وكان قتله في حدود سنة ثلاث بعد الالف .

* * *

(الأمير منصور) المعروف بابن الشهاب التيماني أمير وادي التيم ، وابن أميرها . ولآبائه وعمومته قدم في اماره الوادي المذكور . وجورهم بالنسبة إلى أمراء بلاد الشام كالدروز بني معن ، والرفضة بني الحرفوش ، وبني سرحان ، مقصور على أنفسهم من حيث المعتقد فيحسب ، وما لهم في القديم والحديث كثرة أذية للمسلمين . وبلادهم المذكورة من أصبح بلاد الشام هواء ، وأطيبها بقعة ، والامراء المذكورون يسكنون منها حاصبيا وريشيا قريتين . ولهم فيهما أبنية نفيسة ، وعمارات فائقة . وكان الامير منصور المذكور صاحب بسطة في المال ، لطيف الشكل والمصاحبة ، مائلاً إلى المعاشرة والمباشطة ، عاقلاً ذا فكرة جيدة . الا أنه لعبت به وساوس الحشمة ، فأدته إلى موافقة عبد السلام ، وبقية رؤساء جند الشام ، في مصادمة مرتضى باشا لما ولي نيابة الشام ، وقارب أن يدخلها . وكان عبد السلام كاتب الامير منصور ، وابن عمه الامير علياً في هذا الامر ، وطلب اسعافه بالرجال . فجمعوا من بلادهم جمعاً عظيماً ، وجاؤوا بهم إلى دمشق . ثم تجمع العسكر ، وخرج الفتيان ، ومعهما من الرعاع والاوباش ماضبط ، فكان أربعة عشر ألفاً . وكان مرتضى باشا وصل إلى القطيفة . فخرجوا إلى محاربته .

فلما سمع بنجرهم رجع ، ولم يدخل إلى دمشق . ورجعواهم إلى دمشق . وأقام الاميران المذكوران بها أياماً ، وأقبل العسكر عليهما ، وتغالوا في تعظيمهما ومواساتهما . فأعجبهما ذلك الاقبال ، وظنا أن الدهر سالمهما في الحال والمآل . وحسن لهما كثير أن يسكننا دمشق ، ويدخلا في زمرة جندها ، فانسغا ، ولم يعهد فيما أحسب لاحد من أهل بيتهما ذلك الانسياغ . وتماكنا دارين بمحلة القنوات ، احدهما اشتراها الامير منصور من بني فرهاد ، والاخرى اشتراها الامير علي من مخلفات الصنجدار (١) . وصارا كلاهما من كبار الجند المعبر عنهم بالبلوكباشية (٢) . وشرعا في عمارة هذين الدارين على أسلوب متقن محكم ، وزخرفاهما بأنواع الزخارف ، وجلبا اليهما الرخام من بلادهما . واستمرا مدة يصرفان جهدهما في اتمام بنائهما حتى تمت عمارتهما . ولعمري انهما ابدعا ، ونوعا ، وأجادا فيما صنعا . وهاتان الداران بعد تناقل الايدي لهما من محاسن

(١) حامل الصنجدق أي حامل اللواء .

(٢) كلمة تركية مؤلفة من مقطعين : بلوك وتعني القسم ، و « باش » الرأس . أي رئيس قسم . وكانت كلمة « بلوك » تطلق على بعض فرق الانكشارية .

دمشق الآن . واتفق قريب التمام قصة قتل عبد السلام كما ذكرنا
في ترجمته فتنغص عيشهما ، وأقلعا إلى بلادهما متخوفين ،
وعلما أن ما ارتكباه كان غلطاً . وتواردت عليهما بعد ذلك
أخبار زعزعتهما عن مستقرهما ، وطبقا يلتجئان إلى من يحسن
التدبير في أمرهما . فلما أعياهما الظفر بمخلص لهما ، عند
أرباب العقد والحل ، وعظم الكرب عندهما من كثرة الاوهام
وجلّ ، لم يقرّ للامير منصور قرار ، دون أن ترك الديار والدار ،
وصمم على السفر إلى جهة السلطنة العلية ، ولم يبال اذا قدم
عليهم أتدركه منية أو أمنية . فوقع أنه وصل ، وقابل الوزير ،
فعوجل بالقتل من غير تأخير . وكان قتله في سنة ثلاث وسبعين
وألف ، بقسطنطينية . ووقع في أطراف دمشق التفتيش
على ابن عمه علي ، فظفروا به تلك السنة وقتل أيضاً .

* * *

(الأمير موسى) بن علي ، بن موسى ، المعروف بابن
الحرفوش . الامير ، ابن الامير ، أمير بعلبك . ولي إمارتها بعد
قتل أبيه . وذلك بعد أن كان قبض على أبيه ، وأرسل هو
والامير منصور ابن الفريخ ، والامير قانصوه ، إلى الروم .

ثم خلع هو وابن الفريخ ، ثم قبض عليه مراد باشا ،
كما قبض على الفريخ ، وخنقه في قلعة دمشق في سنة احدى
أو اثنتين بعد الالف . وهؤلاء القوم من الغلاة في الرفض ،
خذلهم الله تعالى ، إلا أن صاحب الترجمة كان أقرب إلى التسنن ،
كما قال النجم في ترجمته . وكان بطلاً ، شجاعاً ، جواداً .
وكان ركب على الامير علي بن سيف صاحب طرابلس الشام .
بأمر من الوزير محمد باشا السيد الشريف ، المنفصل عن نيابة
مصر ، حين كان نائباً بالشام في سنة سبع أو ثمان بعد الالف .
وقتل ابن سيف في ناحية غزير ، وقد ذكرنا خبر هذه الواقعة
في ترجمة الامير حسن بن الاعوج ، وذكرنا بيتين تمثل بهما
ابن الاعوج المذكور في صدر رسالة أرسلها إلى الامير موسى ،
صاحب الترجمة يحثه فيها على قتال ابن سيف . والبيتان هما :

غزير طورٌ ونار الحرب موقدة

وأنت موسى ، وهذا اليوم ميقات

إلى آخرهما ، فارجع اليهما ثمة . وبقي الامير موسى في
امارة بعلبك حتى دخل الامير علي بن جانبولاذ بعلبك قاصداً
دمشق ، فنهض الامير موسى إلى نواحي حمص لاستقباله .
مدارة ومحاماة عن أرضه ، فتحادثا ، وتقاولا ، وتشاورا فيما

صدر : وتجاوزا . فقال الامير موسى : هل تعطيني عهداً على الصلح ، وأنا أذهب إلى الشام ، وآخذ لك العهد الوثيق من الانام ؟ فقال : اذهب سليماً ، وكن ياموسى كليماً . فحضر إلى الشام ، ورُمي من عسكرها بغاية الملام ، وأرجعوه بغليظ الكلام ، ظناً من جهلهم انه عليهم ، وما كان ناوياً الاسوق الحير اليهم . فلما حضر إلى أمير الامراء بدمشق ، قال له : قد جئت على قدر ياموسى ، فجرد سيف عزمك يُذهب البوسى (١) . فقال : ان ابن جانبولاذ يطلب أن تعطي حوران لعمرى البدوي . من عرب المنارجة ، والبقاع العزيزي لمنصور بن الفريخ ، وأن يؤذن لكيوان بالدخول إلى الشام والعود كما كان ، ويُكتب عرض بأن ابن جانبولاذ لم يدخل إلى أرض الشام ، وان فخرالدين ابن معن يؤدّي ما عليه من مال السلطان ، وبلاده موصوفة بالامان . فعقد أمير الامراء ديواناً لهذه المطالب . فانفقوا على أن حوران لعمرى ، ولكن في السنة القابلة . وأما البقاع فان إعطاءه لمنصور غير معقول ، لكونه عند الرعايا غير مقبول . وأما كيوان فانه يرجع وعاليه الأمان . وانه يكتب عرض بما أراد من عدم دخوله ، وبتعديل ابن معن . ثم وقع في ثاني يوم اباء من الشيخ محمد بن سعد الدين لما صمم عليه أولاً . فرجع

(١) البوسى : الشدة والفقر .

الامير موسى إلى ابن جابولاذ بغير المراد . فعزم ابن جانبولاذ على قصد دمشق . وهرب الامير موسى اليها ، وأنجز انه ترك ابن جانبولاذ على قصد دمشق . ثم ان ابن جانبولاذ جاء إلى البقاع ، وخيم بها ، وانحاز اليه الامير يونس بن حسين ابن الحرفوش ابن عم الامير موسى ، ومن معه من أولاد عمه . وقصدوا بعلبك فنهبوها ، وفرقوا أهلها . ووقع من ابن جانبولاذ بعد ذلك ما وقع من قصته التي ذكرتها في ترجمته . وحوصرت الشام ، وصولح ابن جانبولاذ على المال ، وصولح ابن معن على أن تكون بعلبك والبقاع للامير يونس . فلما رجع ابن جانبولاذ وعشيرته ، خرج الامير موسى إلى القيروانية ، وجمع عشيراً كبيراً لقتال ابن عمه ، وانخرجه من بعلبك . ثم صرف العشير ورجع إلى دمشق مريضاً ، فمات يوم الجمعة سابع وعشري صفر سنة ست عشرة بعد الألف ، ودفن في مقبرة الفراديس بالقبة المعروفة ببني الحرفوش .

* * *

(نصوح باشا) . وشهرته بناصف باشا ، وهذه عادة الاتراك في تلاعبهم بالحروف ، فيقولون في نصوح ناصف . وتبدلاتهم ليس لها حدّ يحصرها ، ولا قاعدة تضبطها . ونصوح

باشا هذا أصله من نواحي درامة (١) من بلاد روم ايلى . خدم
أولاً في حرم السلطنة الخاص ، ثم صار من المتفرقة ، وحكم
ببلدة زلة (٢) ، ثم صار أمير أخور (٣) صغيراً في سنة سبع
بعد الالف . ثم ولي كفالة حلب . وكان متغلباً في حكمه ،
عسوفاً ، قوي النفس ، شديد البأس . ولما وليها ، كان لجند
الشام حينئذ الغلبة والعتو . وكان في ذلك العهد يذهب منهم في
كل سنة طائفة إلى حلب ، وينصب عليهم سردار من كبارهم ،
يستخدمون بمدينة حلب . وكان بعض كبار الجند قد تقووا
في حلب ، وفتكوا وجاروا ، خصوصاً طواغيهم ، خدا وردى ،
وكنعان الكبير ، وحمزة الكردي ، وأمثالهم ، حتى رهبهم أهلها ،
وصاهرتهم كباراً ، واستولوا على أكثر قراها . فلما رأى
نصوح باشا ما فعلوه ، وما استولوا عليه منها ومن قراها ،

(١) درامة : مدينة إلى الشمال الشرقي من سالونيك .

(٢) مدينة في شمال شرقي تركيا ، جنوبي أمازيا .

(٣) أمير أخور : هو المشرف على اصطبل السلطان وخيوله .
وكان هناك (أمير أخور كبير) يرأس جميع الموظفين الاصطبلات
و (أمير خور صغير) وعمله تقديم الخيول إلى غلمان « الداخل » والعناية
بمركبات السلطان .

بحيث قلت أموال السلطنة . وصارت أهالي القرى كالارقاء لهم . رفع أيديهم عن قراها ، وجلاهم عن تلك البلاد . ووقع بينه وبينهم وقعة ، وكان معه حسين باشا ابن جانبولاذ عند المعرة . وفروا بين يديه هارين إلى حماة ، وأخذ ما وجد من أموالهم وحيولهم وخيامهم . ثم جمعوا عليه عشيراً بحماة ، وأرادوا قتاله . فأدركهم مرور علي باشا الوزير منفصلاً عن نيابة مصر ، ومعه خزينتها عن سنتين . وقد تحفظ عليها بخمسة عشر مدفعاً ، وعساكر نحو الأربعة آلاف . فجاءوا إلى دمشق للقاءه واتقائه . فلما خرج علي باشا من دمشق بالخزينة قاصداً جانب السلطنة ، لم يصل إلى حماة حتى هموا بالخروج . وخرج أوائلهم . ثم ذهب في اثناء ذلك طاغيتهم خداوردي ، وفي صحبته نحو عشرين رجلاً من أعيانهم إلى الأمير علي بن الشهاب ، ثم إلى الأمير فخر الدين بن معن ، ووقعوا عليهما في السفر معهم لقتال ابن جانبولاذ ، وأخذوا ثأرهم منه . فسافر قبلهم أمير بعلبك الأمير موسى بن الحرفوش : وجمعوا عشيراً كثيراً بحمص وحماة . وورد أمر سلطاني ، وعليه خط شريف ، بأن طائفة الجند بالشام لا يخرجون إلى حلب ، لقتال كافلها ناصف باشا وحاكم كلز حسين باشا ابن جانبولاذ . لأنهم

كانوا اجتمعوا وعرضوا بذلك إلى أبواب الدولة . وكان ذلك
جواب عرضهم . وكان وصوله إلى دمشق يوم السبت عاشر
رجب سنة اثني عشرة بعد الألف . ومن جملة ما ذكر في
الخط المذكور ، أنهم ان خرجوا يكونوا مغضوباً عليهم ،
مستحقين للعقوبة والنكال من السلطان . فرأى نائب الشام اذ
ذاك فرهاد باشا ، وقاضيتها المولى مصطفى بن عزمي ، ودفترها
حسن باشا شوربزه ، أنهم لا يرجعون إلا بحيلة . فرأوا ان يرسلوا
الشيخ محمد بن سعد الدين ، لكسر هذه الفتنة الموجبة للعقوبة
إلى حماة ، ويقرأ عليهم الخط السلطاني ، ويرجعهم إلى دمشق ،
ليقال : لولا خاطر الشيخ محمد مارجعنا . فخرج الشيخ محمد اليهم
في ثاني عشر رجب ، ثم عاد يوم الاحد ثاني شعبان ، ولم يسمعوا
قوله ، وخرجوا بعد قراءة الحكم عليهم ، والكلام معهم إلى
الطيبة ، ثم توجهوا إلى ناحية حلب ، وانضم اليهم عجر محمد
الجلالي وعشيرته . ثم رجعوا في أواخر شعبان إلى دمشق ،
بعد أن صار بينهم وبين ناصف باشا وابن جانبولاذ ، مناوشة
عند كلنز يوماً واحداً ، ثم ولوا هاربين ، وتفرق عشيرتهم ،
وذلك بعد أن حاصروا كلنز أياماً ، وخربوا ماحولها من قرية
الباب ، وعزاز ، وغيرهما من قرى حلب . وهتكوا النساء .

وافترضوا جملة من أبكارهن ، ودخلت أشقيائهم حماماً
بكلز على النسوة وفعلوا أفاعيل جاهلية . ثم تلاقوا مع نصوح
باشا ، وابن جانبولاذ ، خارج كلز يوماً واحداً ثم انهزموا
من ليلتهم وعادوا إلى دمشق ، وفر غجر محمد إلى البيرة (١) ،
وكانت الواقعة في أواسط شعبان . ثم تتبع نصوح باشا غجر
محمد الجلالى ومعه عشيره ، ومنهم طائفة من جند الشام ،
فأغار عليهم في شوال ، وهو في الربيع بالقرب من حماة ،
وانتهبهم ، وأخذ خيولهم ، وكرر الغارة عليهم . فلما كان أوائل
ذي الحجة ، مر مصطفى باشا الشهير بابى راضية ، متولياً نيابة الشام ،
بغجر محمد ، وقد جمع عشيراً نحو ثلاثة آلاف مقاتل . فقالوا
له : لا نمكّنك من الذهاب إلى دمشق ، حتى تنتصف لنا من
ناصر باشا . فسار معهم مكرهاً ، وكانوا قد تظاهروا بقطع
الطريق ، وضربوا على أهل حمص وحماة ضرائب من المال ،
واعترضوا القوافل ، وجرموهم . فخرجوا بمصطفى باشا من
حماة إلى ناحية حلب . فلم يلبثوا إلا وناصر باشا قد انقض
عليهم ، فلم يثبتوا له ساعة ، وأفلت عليهم المكاحل فقتل منهم

(١) بلدة إلى شمال شرقي حلب ، وعلى بعد ٢١٠ كم منها .

وتدعى اليوم « بيرة جك » .

جماعة كثيرون ، وفر الغجر ومن معه من الجند الشامي ،
وانحاز مصطفى باشا إلى ناصف باشا . ثم بعث خلف الغجر ،
طلیعة من العرب فيهم الامير دندن بن أبي ريشة الحيارى .
فسار خلفه إلى تدمر ، وشتت شمله . ثم شاع الخبر في دمشق في
رابع ، أو خامس الحجّة ان ناصف باشا وصل إلى دمشق
لانتقام من الجند . ثم عقب يومين ، وصل من طرفه رسول ،
ومعه كتاب منه يطلب منهم نحو ثلاثين رجلاً ، ليأخذ ما في
عهدتهم من الاموال السلطانية التي تناولوها من أموال حلب ،
ومنهم خداوردي ، وآق يناق ، وقرایناق ، وحمزة الكردي ،
وآخرون . وان لم يسلموا هذه الطائفة اليه ، والا أتى إلى دمشق
وقاتلهم واستأصلهم . فامتنعوا ، وأظهروا له العناد والتمرد ،
والقوة والاشتداد . ثم دخلت طائفة منهم إلى القلعة ، واستولوا
عليها ، وتحصنوا . ثم بعثوا منهم جماعة إلى الامير فخرالدين
ابن معن ، والامير موسى بن الحرفوش ، والامير أحمد بن الشهاب ،
والشيخ عمر شيخ المفارجة . ثم خرجوا إلى القابون ، واجتمع
العشير عليهم ثمة ، ولم يتأخر إلا الامير فخرالدين بن معن
وبقيت خيامهم بالقابون نحو عشرة أيام ، وأخذوا في نهب
ذروع الناس وبعض مواشيهم . ودخل أهل الغوطة إلى دمشق ،

ونقلوا أسبابهم ، وأمتعتهم ، ونساءهم اليها ، وارتعبت أهل
دمشق . ثم شاع في ثامن ذي الحجة بدمشق ، أن ناصف باشا
رجع إلى حلب بعد أن كان وصل إلى الرستن . وكان مصطفى
باشا نائب دمشق قد فارقه قبل ذلك بأيام ، ونزل بالقابون ،
فلم يملكه من دخول دمشق ، بل قالوا له : ارجع وقاتل
معنا ناصف باشا . وبقوا ثمة ، حتى استهلكت سنة ثلاث عشرة
يوم الاثنين . فهموا بالرحيل ، وافترقوا فرقتين : فرقة تقول
نذهب إلى حلب ، وهم الذين كانوا في استخدام حلب ،
والآخرون يقولون نرجع إلى دمشق ، وقد رجع عنا ناصف
باشا ونحن لانعصي السلطنة . ثم فكوا خيامهم ، وتوجه الحلبيون
إلى أرض القصير . وعذرا . ثم يوم الثلاثاء رحل مصطفى
باشا إلى دمشق بعد العصر ، ومعه ابن الشهاب ، وابن
الحرفوش ، وأكثر الجنده . وانقطع أمرهم عن حلب ،
وعن سرداريتهم فيها . وليته انقطع عن دمشق أيضاً ،
فلعمري ان بلدة تأمن غوائلهم ، ولا ترى مصائبهم
ونوازلهم ، هي أمينة من جميع المصائب ، مدفوع عنها
بلطف الله تعالى جملة النوائب . فانهم مدار كل ضرر آجل
وعاجل . وليس لهم تالله نفع ، ولا تحتهم طائل . عوداً إلى

تتمة ترجمة صاحب الترجمة : ثم صار بعد ذلك نائب السلطنة بديار اناطولي ، ثم ولي محافظة بغداد ، ثم صار نائباً بديار بكر ، ثم وجه اليه الوزير الاعظم مراد باشا سردار العساكر بحكومة مصر . فلم تمض أيام الا مرض مراد باشا مرض موته ، فبعث السلطان أحمد ، مراديل إلى صاحب الترجمة بأن يكون قائم مقام الوزير . ثم توفي مراد باشا فوجهت اليه الوزارة العظمى ، والسردارية . وجاءه الختم ، في جمادى الآخرة سنة عشرين وألف . وعقد الصلح بين السلطان وشاه العجم ، ثم سافر راجعاً بالعساكر إلى حلب ، وأرهب جند الشام وغيرهم . وهرعت الناس اليه إلى حلب ، ثم سافر من حلب إلى قسطنطينية ، فدخلها في شعبان . فقابله السلطان أحمد بالقبول والاقبال ، وزوجه ابنته . ثم قتله ، يوم الجمعة بعاء الصلاة ثاني عشر رمضان سنة ثلاث وعشرين وألف والله أعلم .

* * *

(الأمير يوسف بن سيف) أمير طرابلس الشام . وأوحد المشاهير بالكرد والانعام . ولي حكومة طرابلس مدة طويلة ، واشتهر عنه عزة عظيمة . ونعمة جزيلة .

وقصده الشعراء بالمدائح ، وأهدوا اليه أنفُس بدائِه المدائح .
وكان في نفس الامر ممن تفرد بالهبات الطائلة ، ورغب في
ادخار الثناء الحسن بالعطايا الشاملة . واقتدى به أخوه الامير
علي ، وابنه الأمير حسين ، وابن أخيه الامير محمد ، فكانت
دولتهم السيفية اليوسفية ، كما سمعت عن الدولة البرمكية
والمعتمدية . جمعوا للمعالي شملًا . وأصبحوا للسكرام
أهلًا . وكانت لهم بلاد طرابلس صافية ، ووعود الزمان
بالمراد لمن قصدها وافية . وكان الأمير يوسف أكبر القوم
سنًا ، وأحدّهم في النجدة والبأس سنًا . وهو الذي
أسس لهم الدولة فبنوا على أساسه ، واقتدوا به في أمر الحكومة
مستضيئين بنبراسه . وله من الآثار مسجد بناه بطرابلس .
فقيّل في تاريخه :

بنى ابن سيفاً يوسفُ مسجداً
دام أميراً للعلی راقيا
ومن بنى لله بيتاً يكن
عليه في تاريخه راضيا

وقصة مقاتلته ابن جانبولاذ وانكساره قد قدمناها
في ترجمة ابن جانبولاذ فلا حاجة إلى اعادةها . وكانت وفاته
في عشر الثلاثين والله أعلم .

* * *

قائمة بالتراجيم المختارة من رجال الدين والادارة :

الصفحة	الجزء	تاريخ الوفاة	العمل	اسم الشخصية
٣٥	الأول	١٠٠٨ هـ	خطيب وشيخ القراء بدمشق	١ - إبراهيم بن محمد العمادي
٤٩	»	١٠٥٤ هـ	إمام وواعظ	٢ - إبراهيم الصمادي الواعظ
١٤٥	»	١٠٣٨ أو ١٠٣٩ هـ	مفتي المالاكية بدمشق	٣ - أبو القاسم المغربي
١٥٨	»	١٠٦٠ هـ	قاضي الركب الشامي	٤ - أحمد بن تاج الدين الدمشقي
١٧٧	»	بعد الألف بقليل	كاتب القاضي ونايه	٥ - أحمد بن أسكندر الرومي
١٧٨	»	١٠٦٩ هـ	رئيس المؤذنين	٦ - أحمد بن أكمل الدين
١٩٧	»	١٠٤٥ هـ	قاضي حلب فدمشق	٧ - المولى أحمد بن المنلازين الدين
٢٠٨	»	١٠١٠ هـ	قاضي حلب فدمشق	٨ - المولى أحمد بن سليمان الأياضي
٢٤٦	»	١٠٤٣ هـ	قاض شافعي بدمشق	٩ - السيد أحمد الصفوري
٢٦٢	»	١٠٤٨ هـ	قاضي دمشق فمصر	١٠ - المولى أحمد بن عوض
٤١٠	»	١٠٠٦ هـ	متولي أوقاف الجامع الأموي	١١ - اسماعيل الحماني
٤٥٥	»	١٠٩٢ هـ	قاضي صيدا	١٢ - برهان الدين البهسي

تابع قائمة تراجم رجال الدين والادارة :

١٠٨	الثاني	٥١٠١٣	نقيب أشراف حلب	١٣ - السيد حسين أليمارستاني
٢٠٩	"	٥١٠٧١	مفتي الشافعية بدمشق	١٤ - سعودي النوري
٢١٩	"	٥١٠٧٦	كتبخدا الجند ومتولي الجامع الاموي	١٥ - سنان باشا
٢٥٩	"	٥١٠٩٧	نائب قاض وقاض	١٦ - صنع الله بن حبيب الله المحجي
٤٤٢	"	بعد ١٠٢٦هـ	المفتي الخنفي بمصر	١٧ - عبد القادر الطوري
٤٧٣	"	٥١٠٨٣	قاضي عسكري ومفتي	١٨ - عبد القادر قلدي
٩٦	الثالث	٥١٠٨٩	قاضي قضاة	١٩ - عبد الواحد الأنصاري
١٠٠	"	٥١٠١٢	مفتي دمشق الخنفي	٢٠ - عبد الوهاب النورقوزي
٢٣٥	"	٥١٠٦٢	مفتي مراکش	٢١ - عيسى بن عبد "ترحمين
٢٧٥	"	٥١١٠٠	رئيس الاكتاب بالحكمة	٢٢ - فضل الله الأسطواني
٢٩٢	"	٥١٠٦٨	ناظر وقف وإمام	٢٣ - المنلا قاسم الكرودي
٤٠٥	"	٥١٠٤٠	نقيب الأشراف باستامبول	٢٤ - السيد محمد بن برهان الدين
٤٠٩	"	٥١٠٧٢	خطيب الجامع الاموي	٢٥ - محمد بن تاج الدين المحاسني
٤٣٦	"	٥١٠٩٦	نقيب الأشراف بدمشق	٢٦ - السيد محمد بن عجلان

تابع قائمة تراجم رجال الدين والادارة :

٣١٩	الرابع	٥١٠٨٢	مفتي الموصل	محمود بن عبد الله الموصل	٢٧ -
٣٨٥	»	٥١٠٧٥	كاتب السكوك في المحكمة	مصطفى العلمي	٢٨ -
٣٨٥	»	٥١٠٧٩	متولي وقف	مصطفى بن قاسم	٢٩ -
٤٦٧	»	٥١٠٥٣	مفتي السلطنة	يحيى بن زكريا	٣٠ -

(الشيخ ابراهيم) بن محمد العمادي ، الملقب برهان الدين ابن كسبائي . الفقيه ، الحنفي ، الدمشقي ، المقرئ ، المجيد ، المحدث ، شيخ القراء بدمشق في وقته . ولد بدمشق ، وأخذ القراءات العشر عن طريق النشر (١) وغيره ، عن شيخ الاسلام البدر الغزي . وأخذ عنه غير ذلك من العلوم . وقرأ على شيخ القراء بالشام ، أحمد بن بدر الطيبي ، للسبع ، والعشر (٢) . وعلى الامام الشهاب أحمد الفلوجي ختمة كاملة ، لعاصم والكسائي ؛ ومن اوله إلى (المائدة) ، لأبي عمرو وابن عامر . وعلى العلامة السيد الشريف عماد الدين علي بن عماد الدين محمود ، بن نجم الدين ، بن علي ، القارئ البحرآبادي أصلاً ، الجرجاني منشأً ، ثم القزويني ، قرأ عليه بدمشق إلى قوله تعالى ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ للعشرة . وقرأ على المقرئ ، المسند المعمر ، بدر الدين حسن ، ابن محمد ، بن نصر الله الصائبي الشافعي ، للسبعة جمعاً ،

(١) المقصود به كتاب « النشر في القراءات العشر » للشيخ محمد

ابن محمد الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م .

(٢) أي قراءات القرآن السبع ، والعشر . والقراء العشر الذين

نسبت إليهم تلك القراءات هم : حفص ، وحزمة ، وعاصم ، وابن عامر ، ابن كثير ، ونافع ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف ، وأبو جعفر .

ثم للعشرة إلى قوله تعالى : ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ .
في البقرة ؛ وعلى الامام العلامة شرف الدين يحيى ، بن محمد ،
ابن حامد الصفدي ، إلى قوله تعالى : ﴿واذ قلتم يا موسى لن
نصبر﴾ ، من طريق الشاطبية (١) . وقرأ النشر ، والشاطبية ،
والدرة (٢) ، والمقدمة (٣) ، وغير ذلك على الطيبي .
ورحل إلى مصر ، وأخذ بها عن النجم الغيطي وغيره .
وكان يعرف العربية ، وغيرها . وله شعر ، أكثره منحول
من أشعار المتقدمين ، مع تغيير يسير بما أدخل بالوزن .
وكان له بقعة بالجامع الاموي . وولي تدريس الاتابكية (٤) ،
عن المحدث الكبير محمد بن داود المقدسي ، نزيل دمشق ،
الآتي ذكره ، في حياته ، ثم أعيدت إلى الداودي . ودرس

(١) كتاب « الشاطبية في القراءات السبع » للشيخ القاسم الشاطبي
المتوفى سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م .

(٢) كتاب « الدرر المضية في قراءات الائمة الثلاثة المرضية »
لمحمد بن محمد الجزري .

(٣) منظومة « المقدمة الجزرية في علم التجويد والقراءات » لمحمد
ابن محمد الجزري .

(٤) من مدارس الشافعية بدمشق ، بسفح قاسيون ، وقد اندرست .

بالمعادية الكبرى (١) بطريق الفراغ ، من حسن البوريني ،
لما درس بالمدرسة الناصرية الجوانية (٢) . وخطب مدّة
طويلة بجامع سيبائي ، خارج دمشق بقرب باب الجابية .
وكان يعسر عليه تأدية الخطبة ، ويطيل فيها . وكان فيه
دعابة ومزاح ، ويغلب عليه التغفل . قال النجم في ذيله :
قرأت بخطه نقلاً عن خط والده ، أن مولده ليلة السبت
خامس عشر شهر ربيع الثاني ، سنة أربع وخمسين وتسعمائة ،
وتوفي يوم الاثنين ختام ذي القعدة سنة ثمان بعد الالف ،
ودفن بمقبرة باب الصغير قبالة المدرسة الصابونية .

* * *

(ابراهيم) ويعرف كما يعرف هو (٣) بالصمادي ،
إلا أن اسم أبيه ، احمد ، بن داود ، بن مسلم ، بن محمد ،
ويتميز عن هذا باطلاق لفظ « الواعظ » عليه ،

(١) هي مقر المجمع العلمي العربي اليوم ، مقابل الظاهرية .
(٢) من مدارس الشافعية بدمشق ، داخل باب الفراديس . وقد تحولت
إلى دار للسكن .

(٣) لقد سبق هذه الترجمة لترجمة لشخصية صوفية تحمل الاسم
نفسه (ابراهيم الصمادي) .

وانما ذكرته هنا دفعاً لهذا الاشتباه من أول وهلة ، ولان الشهرة للمذكور هنا دون ذاك . وكان امام الجامع الأموي بالمقصورة على مذهب الشافعي . وكان عالماً ، فقيهاً ، واعظاً ، ناصحاً . وكان وعظه مؤثراً في القلوب ينشع له السامع . وكان في ابتداء أمره قرأ على الشمس الميداني ، وكان يلزم دروسه . ولما مات الشمس لزم النجم الغزي ، وروى عنهما الحديث ، والفقه ، وأجازته النجم بالافتاء ، فكان يفتي ، وقام في النفع مدة ، وأخذ عنه كثير ممن لحقه . وكان صالحاً جداً ، وله مناقب سامية . منها ما حكاها الشيخ محمد الميداني نزيل الحانقاه (١) السميساطية (٢) ، وهو قريب العهد، وكان من أصلح خلق الله : أنه كان يقرأ على الصمادي المذكور في (المنهاج) ، وكان غلام وسيم الوجه يقرأ عليه أيضاً في الفقه ، وعلى الميداني في التجويد . قال: فرأيت الصمادي يوماً في الجامع صادف الغلام فعبث بخدّه ، فأنكرت عليه ، وانقطعت عن درسه . فرأيت في المنام قد أحاطت به جماعة من العلماء كثيرون ، وهوراكب ، فدنرت لأقبل يده ، فقال لي : عدّ عن اعتراضك على أوليا

(١) المكان الذي يقيم فيه المتصوفة .

(٢) تقع عند الباب الشمالي للجامع الأموي ، وقد تخربت .

الله تعالى . ففي ثاني يوم توجهت اليه ، فأول ما قابلني بشـ
في وجهي ، وقال: لعلك تركت الاعتراض . وبالحملة
فقد كان من عباد الله الاخيار، وكانت وفاته في سنة أربع
 وخمسين وألف ، ودفن بمقبرة باب الصغير .

والصُّمادي، بضم الصاد المهملة ثم ميماً بعدها ألف ثم دال مهملة،
نسبة إلى صُماد قرية من قرى حوران ، بها أجدادهم ولهم
نسبة سيادة من جهة الاب ، أظهروها في سنة خمس وثمانين
وتسعمائة ، وذكروا أنها كانت عند بعض بنات عمهم بمدينة
نابلس ، وانهم لم يطلعوا عليها الا بعد وفاتها. وأثبتوا نسبهم
بدمشق على بعض قضاتها ، ووضعوا العلامة الخضراء على
رؤوسهم، وبعضهم لبس العمام الخضر . وكان قريباً منهم
أثبت نسبهم بنو الدسوقي في سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ،
ذكر ذلك الشمس الداودي المقدسي نزيل دمشق ، وشيخ
محدثها، في أوراق ظفرت فيها بخطه ، ذكر فيها وقائع
كثيرة وقعت بالشام . وأما نسبة الصماديين من جهة الام ،
إلى سعيده بن جبير فمستفيضة . ومنهم مسلم الكبير مذکور
في نسبهم ، وهو صاحب الطبل المستقرّ عندهم من نحاس
أصفر ، كان معه في فتح عكة ، يضربون به عند سماعهم

ووجدتهم . وقد سئل كثير من العلماء عنه فأفتى البلر الغزي ،
والشمس بن حامد ، والتقوي بن قاضي عجلون ، باباحته
في المسجد وغيره ، قياساً على طبول الجهاد والحجيج ،
لأنها محرّكة للقلوب إلى الرغبة في سلوك الطريق . وهي بعيدة
الاسلوب عن طريقة أهل الفسق ، والشرب . والصوفية
معروفون ، وكثيراً ما كان يختلج في صدره السؤال عن
لفظ الصوفي لماذا ينسب ، حتى رأيت رسالة للسنباطي
الخطيب الشافعي المسعودي ، ذكر فيها نقلاً عن ابن الجوزي
في كتابه تفليس ابليس : ان أوّل من انفرد بخدمة الله تعالى
عند البيت الحرام رجل يقال له صوفة ، واسمه الغوث بن
مرّ ، فنسبوا إليه لمشايتهم إياه في الانقطاع إلى الله تعالى .
وروى بسنده إلى أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ . قال :
سألت وليد بن قاسم إلى أي شيء ينسب الصوفية ؟ فقال
كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله تعالى ،
وقطنوا عند الكعبة ، فمن تشبه بهم فهو الصوفي . وقيل
على الأوّل انما سمي الغوث بن مرّ صوفة ، لأنه كان لا يعيش
لامه ولد ، فنذرت لئن عاش لتعلّقنه برأسه ، ولتجعلنه
ربيطاً بالكعبة ، ففعلت ، فقيل له : صوفة . ولولده من

بعده . ثم رأيت الشهاب الخفاجي قد تعرض للصوفية ،
فزاد وجوهاً في النسبة ، استطردتها فنقلتها حيث قال :
والمتصوفة والصوفية ، واحد هم صوفي ، ويقال تصوف ، اذا انقطع
لله تعالى ، كما يقال قيسي اذا انتسب إلى قيس . وهذا اللفظ مؤنث ،
واصطلاح حدث بعد القرن الاول . فقال بعضهم الصوفي
هو المنقطع بهمة إلى ربه ، وهم مقتدون بأصل الصفة ، وهي
سقية اتخذها ضعفاء الصحابة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .
وكان قبل الاسلام حي يقال لهم صوفة يخدمون الكعبة فقليل الصوفي ،
نسبة لهم ، وقيل انهم تجمعوا كما يتجمع الصوف ، وقيل
انهم نخشوعهم كصوفة مطروحة على الارض . أو هم
منسوبون للصوفة للينهم ، وسهولة اخلاقهم ، أو لبسهم
الصوف لاختيارهم الفقر ، وهذا أظهر الوجوه لفظاً ومعنى .
وقيل : منسوبون للصفة ، وقيل : الاصل صفّي فأبدل احد حرفي
التضعيف ليناً . وقيل انه من صفاء ، ففيه قلب ، وصحح
هذا بعضهم لقول البستي :

تخالف الناسُ في الصوفيِّ واختلفوا
جهلاً فظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحلُّ هذا الاسم غيرتي
صافي فصوفي حتى سمي الصوفي

ولا شاهد فيه ، لانه على مذهب الشعراء ، وقد بين
المصنف معنى الصوفي . انتهى .

* * *

(أبو القاسم) بن محمد المغربي السوسي ، المالكي ،
نزىل دمشق ، ومفتي (١) المالكية بها . كان اماماً بزاوية
المغاربة ، خارج باب الشاغور ، ومحل مرقد ولي الله الشيخ
مسعود . يقال ان الدعاء عند قبره مستجاب . كان يصلي بها
الاوراق الخمسة . وكان حافظاً لقراءة السبع ، والعشر ،
وشرح الشاطبية ، والنشر ، شرحاً لطيفاً . وكان له مكتب
يعلم فيه الاطفال ، وما قرأ عليه أحد الا فتح عليه لشدة
ما كان عليه من الفتحة . وكان وحيد عصره في الفتيا ،
بعد مشايحه العظام بدمشق كأبي الفتحة المالكي وغيره .

(١) أوجد السلطان العثماني « سليمان القانوني » تنظيمًا للمفتين
موازيًا لتنظيم القضاة . فالى جانب القاضي الحنفي العثماني في كل مدينة
هناك مفت . والمفتي هو الفقيه الذي يطلب منه ايضاحات وتفسيرات للأمور
الشرعية ، وحلولا لبعض القضايا . وقد عملت الدولة على أن يكون
هناك مفتون محليون على المذاهب الأربعة حيث يكون السكان على تلك
المذاهب . بل انها مع مرور الزمن كانت تختار المفتي الحنفي من أهل البلاد
العرب .

وكان شهماً غيوراً على الدين ، تهابه القضاة والحكام ..
وغالب أهل دمشق يرجعون اليه في المشاورة للامور ..
وحدث بالجامع الاموي ، فحضره خلق كثير . وأخذ عليه
جماعة ، وانتفعوا به ، منهم الشيخ علي المكتبي وولده محمد
الآتي ذكرهما . وكانت وفاته في سنة ثمان أو تسع وثلاثين
وألف . ودفن بمقبرة باب الصغير بالقرب من ضريح سيدنا
بلال الحبشي رضي الله عنه .

* * *

(أحمد) بن ابراهيم المعروف بابن تاج الدين ،
الحنفي ، الدمشقي ، التاجي . كان أحد صدور الشام ،
ومن كملاتها المشهورين بحسن المصاحبة ، ولطف البداهة .
وكان وجيهاً صاحب اقدام في الامور ، وله معرفة باللغة
التركية ، وكان بيده وقف أجداده بني تاج الدين ، وهذا
الوقف من الاوقاف الكبيرة بدمشق . وكان شريكاً لحاله ،
شيخ شيوخ الشام ، عبد القادر بن سليمان في خدمة مزار
حضرة الشيخ ارسلان ، وكانت بينهما نصفين . وسافر
إلى الروم ، ولأزم على قاعدتهم ، ودرس ، ثم صار قاضياً
بالركب الشامي في سنة تسع وثلاثين وألف . وعاد إلى الروم ..

وصار قاضياً بفوّه في اقليم مصر . وبعدما عزل منها توجه
إلى الروم ثالث مرة ، في رجب سنة سبع وأربعين وألف ،
وترك طريق القضاء ، وأبدله بالتدريس . وولي تدريس
المدرسة الاحمدية بالمشهد الشرقي بجامع بني أمية المعروفة
بدار الحديث ، التي كان جدها أحمد باشا الحافظ أيام
حكومته بالشام . وكانت وجهت إليه برتبة الخارج (١) ،
ثم أعطي رتبة الداخل . وأخذ المدرسة العذراوية (٢) ،
عن عالم دمشق وخطيبها أحمد بن يحيى البهنسي الآتي
ذكره ان شاء الله تعالى ، ولم يتصرف بها وقررت على البهنسي
لكون أخذها لم يصادف محلاً . وناب في قضاء دمشق عن
قاضي القضاة أبي السعود الشعراوي المقدم ذكره ، وأثرى
في آخر عمره ، وتصدر ، وكثرت حواشيه ، وعلى كل حال
فهو معدود من الصدور . وكانت ولادته في سنة سبع بعد
الالف ، وتوفي في سابع شعبان سنة ستين وألف ودفن

(١) لقد رتب السلطان « سليمان القانوني » التعليم الذي يخرج
المدرسين والقضاة في اثني عشرة درجة ، ومن تلك الدرجات : الخارج ،
والداخل ، وهي من بدايات المراتب . ورتبة الداخل تتلو الخارج ،
ولكل واحدة مرتب معين .

(٢) تقع بحارة الغرباء داخل باب النصر وقد تهدمت .

بالمدرسة القلجية (١) تحت قدمي بانيها الامير يوسف الدين.
قلج الاصفلار رحمه الله تعالى .

* * *

(أحمد) بن اسكندر الرومي الكاتب ، نزيل دمشق ،
وحيد وقته في صناعة الانشاء . وكانت له الشهرة التامة
بالذكاء ، وسرعة الفطنة . وكان يكتب العروض المهمة
من رأس القلم من غير تسويد ، ويكون مقبولا إلى الغاية
عند العارف بهذا الفن ، مع حسن الخط الفائق حلاوة
وطلاوة . وسبب تفوقه في هذه الصناعة ، انه أتقن الالسن
الثلاثة العربي والفارسي والتركي اتقاناً كاملاً ، والمقبول
من انشاء التركية ما كان مرصعاً من الالسن الثلاثة . ورد
دمشق في سنة ثمان وثمانين وتسعمائة مع قاضي القضاة مصطفى
ابن بستان ، وكان أحد جماعته الذين ينوبون عنه في
القضاء ، ونال منه حظاً عظيماً بحيث انه يمضي غالب
الامور بإشارته . وكان يكتب له العروض . ثم قطن دمشق ،
وبقي بعد عزل استاذة ، وابتنى بيتاً كان تربة في مقابلة
دار الحديث الاشرفية بالقرب من قلعة دمشق . ودرس

(١) شمالي الصادية ، بسوق التبن .

بالمدرسة الجوهريّة (١) . ودأب في تحصيل العلوم والمعارف ،
فقرأ على العلامة محمد بن عبد الملك البغدادي الحنفي علم
الكلام والهيئة وغيرهما ، وقرأ على الحسن البوريني من
الشرح المختصر على التلخيص ومقامات الحريري ، ومهر
في جميع الفنون حتى صار من أعلام وقته ومفردات عصره
في التنقيب عن كلمات القوم الدقيقة . وكان ينكر على ابن
عربي ، وابن الفارض ، وأضرابهما . ويحط عليهما .
وانفلج في آخر عمره ، فكان يقال ان ذلك بسبب انكاره .
وكانت وفاته بعد الالف بقليل . هكذا ذكره النجم في
(لطف السمر) ولم يزد على ذلك والله أعلم .

* * *

(أحمد) بن أكمل الدين ، الدمشقي ، الحنفي .
رئيس المؤذنين بجامع بني أمية ، المعروف بالشراباتي .
كان أعجوبة وقته . ونادرة عصره ، جمع إلى الصلاح
حسن المعاشرة ، ولذة المخاطبة . وكان حسن الصوت ،
عارفاً بالموسيقى . وله سخاء ، وإيثار . وكان في مبدأ أمره

(١) بحارة البلاطة شرقي المدرسة الصالحية (زقاق المحكمة
الشرعية) .

مؤذناً بالجامع المذكور ، ولما توفي الشيخ محمد المحمدي ،
أحد رؤساء المؤذنين الثلاثة به (١) ، وجه اليه مكانه .
وسافر إلى آمله مع ابراهيم باشا الدفري بالشام ، وحج معه
لما صار أمير الركب الشامي في سنة احدى وأربعين وألف .
وكانت ولادته سنة تسع وتسعين وتسعمائة ، وتوفي عصر
نهار الجمعة آخر يوم من ذي الحجة سنة تسع وستين وألف ،
ودفن من غده في مقبرة باب الصغير . قال والذي رحمه الله :
واتفق يوم وفاته ان كان يوم نوبته في الترقية بين يدي
الخطيب ، فناوله ساقى الحمام في نوبته رحمه الله تعالى .

* * *

(المولى أحمد) بن المنلا زين الدين ، العجمي ، النحجواني
الاصل ، الدمشقي المولد والوفاة . قاضي القضاة الملقب
بالمنطقي . الفاضل ، الاديب ، الشاعر ، النائر ، أحد أفراد
الدهر ومحاسن العصر . كان فاضلاً ، سامياً هضبات الادب ،
متفهماً بليغاً في انشائه ، عذب المنطق ، سريع الفهم . وبالجملة
فقد كان روحاً كله من فرقه إلى قدمه . وكان ينظم

(١) كان عدد المؤذنين في جامع بني أمية كبيراً ، وكان هناك
ثلاث نوب لهم منذ عهد الوليد بن عبد الملك وعلى رأس كل نوبة «رئيس
للمؤذنين» .

وينثر في الالسن الثلاثة . وهو فيما عدا العربي ، نسيجٌ
وحده ، ومفرد وقته . وشعره فيما بين أهل الروم أغلى قيمة
من الدر . وذكر لي بعض الثقات منهم أن الاديب شاعر
الروم في وقته سليمان البوسنوي ، المنعوت بمذاقي ، وهو
ممن أدركته بالروم وسأذكره في كتابي هذا ، كان يقول
في شعر المنطقي : ان كل غزل من شعره يعادل ديواناً من
شعر غيره . وكنت وأنا بالروم جمعت من أشعاره حصّة
وافرة ، فأردت ذكر شيء منها هاهنا ، ثم منعي من ذلك
ان أهل بلادنا ليس لهم اعتناء بهذا النوع ، وغالب النساخ
عندنا لا يعرفون التركية ، فكثيراً ما يحرفون الكلم عن
مواضعه ، فيقع التخييط ، والحاجة ليست بماسة لذلك جداً .
نعم ، هي ماسة للدفع مايقع بين أدباء العرب من السؤال
عن قوافي أشعار الروم ، بسبب اتحادها في الصورة ولو
كثرت ، ويقولون ان هذا ابطاء(١) تبعاً للعربية ، فهذا يحتاج
إلى بيان ، ولم أر من تعرض له الا العماد الكاتب في خريدته .
فانه قال : وللعجم ، قلت : والروم تبع لهم ، مذهب في الشعر
مخالف لاسلوب العرب ، وهو انهم يجعلون الكلمة الواحدة
رديفاً يردّدونه في كل بيت . مثال ذلك ما نظمه الشاعر :

(١) وطأ الشعر وفيه : كرر الفافية فيه لفظاً ومعنى .

سل الصَّبَا هلْ ورد الوردُ
يامن عليه حسد الورد
ثم قال : فالدال هي الروي عنه هم . والورد هو الرديف ،
مثل هاء الضمير في أسودها وأغيدها . قال : وتذكرت هنا
رباعيات لي وهي :

اسمعُ مقال عندليب الورد
فالبلبل في الروض خطيب الوردِ
الشرب على الورد نصيبُ الوردِ
ما يحسن أن يضيع طيب الورد
وأيضاً :

كم حضر الراح وغاب الوردُ
حتى عدم الراح فغاب الورد
لما عبق الراح وطاب الورد
فقلنا جماد الراح وذاب الورد
وهذا كلام وقع في البين ولكن ما خلا من فائدة .
فلنعد إلى تنمة ترجمة المنطقي فنقول : وأما شعره العربي
فقليل ، وقد أورد له والذي رحمه الله تعالى في ترجمته
قطعتين ، استحسنتهما أحدهما فأوردتها وهي هذه :

سقت الرياض دموع عيني الجارية
فبدت تراجعها عيون باكية
وسرت لأغصان الورود فأصبحت
أكمامها منها قلوباً دامية
دمعي تبدل بالشرار وكيف لا
وجحيم قلبي فيه نار حاميه
ماذا عليّ من الجحيم ولم تنزل
نار المحبة في وجودي باقيه
ياسادة لما بدا سلطانهم
مملك القلوب من الانام كما هي
تلوي غصون قدودهم أيدي الصبا
وقلوبهم مثل الحجارة قاسيه
لم يبق لي ثمن يقاوم وصلكم
الا المحبة والمحبة غاليه
الجسم ذاب من الجفا والقلب ره
ن "عندكم والروح مني عاريه
منوا علي بنظرة فـوَ حَقَّهَا
قسماً بمن يحيي النفوس الفانيه

لو مرّ بي ميتاً نسيمٌ دياركم
سرت الحياة إلى عظامي البالية

وذكر مبدأ أمره ، أنه ولد بدمشق . وقرأ وبرع ،
واشتهر . وأشهر من أخذ عنه الشرف الدمشقي ، وبرز
بروزاً غريباً ، فجلس لالقاء الدروس وهو حدث السن ،
جديد العذار ، فاجتمع في حلقة درسه جماعة من الاكراد ،
والاعاجم . ونبل قدره ، وعلا صيته ، وولي تدريس المدرسة
السليمية بصالحية دمشق ، وكانت بيد العلامة عبد الرحمن
ابن عماد الدين العمادي . وبعد مدة أعيدت إلى العمادي .
فسافر المنطقي إلى حلب ، وذلك في سنة خمس وعشرين
وألف . واجتمع ثمة بالوزير محمد باشا السردار ، المعين من
جانب السلطان أحمد إلى مقاتلة شاه العجم عباس خان .
فحظي عنده باقبال كثير ، وقرر له المدرسة ، وعاد إلى
دمشق بمهابة عظيمة ، وأقام بها مدة . ثم سافر ثانياً إلى حلب
صحبة محمود الرومي الدفترى بدمشق ، فاجتمع بقاضيهما
الاديب المنشيء المشهور عبد الكريم بن سنان ، فأحسن
اليه كل الاحسان . ولما عزل من قضاء حلب ، صحبه
إلى الروم ، وكان ذلك في حدود سنة ثمان وعشرين وألف ،

فدخل إلى دار السلطنة وأقام بها . فرغب كثير من كبارها
في معاشرته لحسن محاضراته وأدبه ، وحظي عندهم . ولأزم
ودرس بعد مدة بعدة مدارس ، وجمع مالا كثيراً ،
وجاهاً عريضاً . وترقى في الشهرة حتى وصل خبره للسلطان
مراد ، فاتخذة نديم مجلسه . وكان يجتمع هو ونفعي ،
الشاعر المشهور أحد الندماء في المجلس السلطاني ، ويجري
بينهما مكالمات ومخاطبات تأخذ العقول . وكان كل منهما
شديد الحظ على الآخر في غيبته . ومن أبلغ ما وقع بينهما
أن السلطان أمر صاحب الترجمة أن يهجو نفعي ، فهجاه
بقصيدة أفحش فيها . فلما سمعها نفعي استشاط غيظاً ،
وجزم على مكيدته . وعرض في المجلس السلطاني بأن المنطقي
يحسن محاكاة كل جيل من الناس ، وإن أحسن ما رآه منه ،
محاكاة الفرنج في الملبس والمكالمة . فنادى السلطان صاحب
الترجمة وذكر له ما قاله نفعي عنه . فحلف الأيمان الأكيدة
أنه لم يصدر منه مثل ذلك قط ، وما زال يتخضع ، ويبكي
حتى خلص نفسه من هذه الورطة ، التي كان أدنى عاقبتها
القتل . ولما تحرك الجند على السلطان ، وقتلوا الوزير الأعظم

أحمد باشا الحافظ ، انقطع صاحب الترجمة عن صحبة
السلطان ، خوفاً من الجند . ولزم زاوية العزلة . وظهر السلطان
بعد ذلك على الجند ، وقتل منهم من قتل ، وفرق شملهم ،
فظهر المنطقي إلى الوجود ، الا أنه ضرب الحجاب بينه وبين
صحبة السلطان كغيره من الندماء . ولكنه بقي على التردد
إلى مجالس الصدور ، كالمفتي الاعظم المولى يحيى بن زكرياء
وغیره . وكان كثير الخطأ على من يعاديه ، مغالياً في اظهار
زيف أبناء عصره ، خصوصاً أهالي بلدته دمشق . وذكر
والدي في ترجمته بأنه كان يوماً في مجلس المفتي المذكور ،
فوصلت اليه قصيدة أرسلها اليه أديب دمشق أحمد بن شاهين
ومطلعها :

لايسلني عن الزمان سؤال

إن عتبي على الزمان يطول

فناولہ المفتي قرطاسها ، وأمره بقراءتها ، فابتدر
يقرأها ويحاكي ناظمها في حركاته وانشاده الشعر . وكان
على طريقة أبي عبادة البحراني في انشاده الشعر ، يتشدق
ويهر رأسه ، ومنكبيه ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ،
ويقول أحسنت أو أجدت أو ماشاكلها ، إلى أن أتم قراءتها

على هذا الأسلوب . فبلغ ابن شاهين مافعله فجهز قصيدة
ثانية إلى المفتي المذكور ومطلعها قوله :

غِبَّ لَمْ اَلْعَتَابُ بَعْدَ الدَّعَاءِ
بِشْفَاهُ لَمْ تَنُوحِ غَيْرَ الشِّفَاءِ

وذكر فيها فصلاً يعرض بالمنطقي وهو في بابه مستعذب
جداً وذلك قوله فيها :

وَأَنَاسٍ مِنْ الشَّامِ نَعَسَتْهُمْ
شَامُنَا فِي جَوَانِبِ الْغُبَرَاءِ
تَرَكَتْهُمْ لَا يَأْلِفُونَ خَلِيلَا

مِنْ جَمِيعِ الْوَرَى لِفَقْدِ الْوَفَاءِ
خَرَجُوا يَطْلُبُونَ فَضْلَ ثَوَاءِ
لَيْتَهُمْ قَدْ رَضُوا بِفَضْلِ الثَّرَاءِ

أَلْفُوا الْكَسْبَ مِنْ وَجْهِ الْبَرَايَا
مَا كَدَرُوا قَدْرَ مَكْسَبِ الْآبَاءِ
بَرَحَ الْعِجْزُ فِيهِمْ فَتَرَاهُمْ

يَبْتَغُونَ الْغَدَاءَ وَقْتَ الْعِشَاءِ
قَدْ أَرَاقُوا مَاءَ الْحَيَا وَالْمَحْيَا
ثُمَّ حَدَّوْا فِي الْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ

ربما هجّنوا لديك ثنائي
ربما محسّنوا لديك ازدرائي
ربما حاولوا .. حكاية .. صوتي
فأخلّثوا بحسن ذاك الاداء
ليس عندي وأنت ذُخْرِي منهم
غير ما بالجوزا من العوّاء
أنا ياسيدي "سهيل" (١) عليهم
وطلوعي يضرّ نسل الزناء
هذا البيت مأخوذ من قول المتنبي :
وَتُنْكِرُ مَوْتَهُمْ وَأَنَا سَهِيلٌ
طلعتُ بموت أولاد الزناء

والعرب تزعم أن سهيلاً اذا طلع وقع الوباء في الارض ،
وكثر الموت . يقول : فأنا سهيل على أولاد الزناء خاصة
أي أنهم يموتون حسداً لي . وبعض الناس يقول : ان ولد الزنا
اسم لدويبة ترصف اذا طارت بالليل ، وانها تموت اذا
طلع سهيل ، ولا أدري صحته والله تعالى أعلم . ولم يزل
المنطقي على حالته المذكورة حتى صار قاضي قضاة حلب

(١) نجم من النجوم .

ونقل منها إلى قضاء الشام فوردها ، وكان سيره بها حسناً .
ومدحه شعراء ذلك العصر بالقصائد الطنانة ، وأجود ممدوح
يه قصيدة الأمير المنجكي التي مطلعها قوله :

ورد الربيع فقم الحشي الكاس
ودع المقام بأربع أدراس
يقول منها في مديحه :

قاض تودّ لو أنها فرشت له
عند القدوم كواكب الأغلاس
بيديه حلّ المضلات وكشفها

وجلاية الجلى ورفع الباس
وله سهام عدالة لو فوقت

تركت متون الجور كالأقواس
لما سهرت على مدائحه التي
جعلت عداي من الردى حراسي

ودّ الهلال لو استقام وأنه
أمسى لديّ مكانة النبراس

ووجهت حكومة الشام في أيام قضائه ، إلى مصاحب
السلطان مراد الوزير مصطفى باشا السلاحدار ، فأرسل من قبله

لضبطها رجلاً يقال له عثمان الجفتلري ، وهو الذي صار حاكماً مستقلاً بالشام في سنة ثمان وأربعين وألف . ووقف الوقف الذي له على أجزاء تقرأ في الجامع الاموي ، بعد صلاة الظهر ، في العزية الصغيرة الوسطى قبالة محراب الحنابلة . فاتفق انه وقع بينه وبين صاحب الترجمة لمنعه اياه عن بعض المظالم ، فعرض فيه بما لا يليق عرضه ، وأسند اليه أموراً منها هدم قبة المزار المنسوب لسيدي عبد الرحمن حفيد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، بمقبرة الفرديس . وكان هدمه بسبب انه كان يصير فيه بعض مناكر من الفساق . ومنها انه ورد أمر فتح قلعة روان حين أخذت من يد شاد العجم عباس شاه ، واتفق يومئذ وجود القاضي في الصالحية . فأرسل اليه الخبر فتباطى في النزول وحضور الديوان . ومنها انه ربما أطلق لسانه في أركان الدولة ، ومنهم الوزير المذكور . فبعد مدة قليلة من ارسال العرض ورد خبر عزله عن قضاء الشام ، ثم ورد أمر شريف بقتله . فأخذ إلى قلعة دمشق وخنق بها . واتفق يوم وصول خبر قتله ، دخول المولى عبدالله بن عمر معلم السلطان عثمان ، قاضي مصر إلى الشام . وجرى ذكر المنطقي في مجلسه وما وقع له من

الحنق ، فقال متمثلاً : ان البلاء موكَّل بالمنطق . وكأنه
أحال ذلك على سببية اطلاق لسانه في حق بعض الصدور .
وقيل في تاريخ قتله (قل مسقط الرأس دمشق) . وحكى
انه لما ولي قضاء الشام ، ذهب إلى المفتي الذي ولاه ، المولى
يحيى المذكور آنفاً بالتشكر منه ، ففاعله بالتبريك بأن قال
له : أوّل شام وآخر شام . وكان ذلك جرى على لسانه
بالهام ، فوقع ماقاله . وهذه اللقظة يستعملها أهل الروم
من قبيل المثال ، ولم أقف على أصلها ، وان كان معنى
شقها الثاني صحيحاً باعتبار أن الشام أرض المحشر والمنشر .
وأما باعتبار شقها الأوّل فما أدري وجه الاولية والله تعالى
أعلم . وبالحملة فقد عاش المنطقي حميداً ، ومات شهيداً ،
فرحم الله تعالى فضائله وممارفه . وكانت ولادته في سنة
ثلاث بعد الالف ، ومات صبيحة الجمعة ثالث عشر جمادى
الآخرة سنة خمس وأربعين وألف . وضبطت أمواله
لجهة بيت المال ، وصلي عليه بعد أداء صلاة الجمعة في
الجامع الاموي ، ودفن بمقبرة الفراديس بالقرب من قبر
أبي شامة .

والنسخجواني بفتح النون وسكون الخاء المنقوطة
وضم الجيم ثم واو بعدها ألف ونون: بلدة بالعجم معروفه .

* * *

(المولى أحمد) بن سليمان الرومي . المعروف بالياشي ،
قاضي القضاة بحلب ثم بالشام . ولي الشام في سنة سبع بعد
الالف . وكان في ابتداء قضائه معتدلاً ، وسالك مسلك
الانصاف ، وملاحه شعراء دمشق بالقصائد البديعة ، ومنهم
أبو المعالي درويش محمد الطالوي . فانه كتب اليه قصيدة
شينية استحسناها أدباء وقته مع صعوبة رويها ، ومطلعها :

كيف أخشى في الشام أمرَ معاشي
وملاذي بها جناب الأياشي
أفضل القوم من سما للمعالي
فاعتلاها طفلاً وكهلاً وناشي
فهو بدر العارم صدر الموالي
من سماهم فضلاً ولست أحاشي
ساق عدلاً بالشام حتى شهدنا
مشي ذئب الفلاة بين المواشي

ثم تغيرت أحواله ، وفسدت أطواره ، واشتهرت
في أيامه الرشوة ، وأبطل كثيراً من الحقوق ، حتى ضجر
منه أهل دمشق وأعيانهم الجهد ، وقامت عوامتها على ساق ،

فرجموه عند خندق القلعة بين سوق الاروام والعمارة
الاحمدية ، وأفحشوا في رجمه . وكان رجمه يوم دخول
السيد محمد باشا الوزير إلى دمشق حاكماً بها ، وقد كان
طلع لاستقباله ، فكان الناس يشيرون إلى الوزير بالشكاية
عليه في وجهه ، ويتظلمون وهو ساكت . ولم يزل الناس
ممسكين أيديهم عن الرجم ، إلى أن دخل الوزير المذكور
إلى دار الامارة ، ففارقه القاضي ، فاستقبله
الناس عند انصرافه يصيحون في وجهه ، ويقابلونه
بكلمات لاتليق ، وأعقبوا ذلك بالرجم ، حتى فرّ منهم
هارباً ، وأدركه مع ذلك ما أدركه من الاحجار . وهجاء
بعد ذلك أبو المعالي المذكور بقصيدة طويلة سماها «رفع
الغواشي عن ظلم الاياشي» ، وقسمها فصولاً ، وجعل كل
فصل في حال من أحواله . وابتدأها ببيتين من شعر شيخه
أبي الفتح المالكي مفتي المالكية بالشام ، وهما قوله :

الشام تبكي . بدموع غزار
بكاء ثكلى ماها من قرار

بكاء مظلوم له ناصر

لكن بعيد الدار والخصم جار
ثم ذكر فصولها ، فمن ذلك قوله ، مشيراً إلى ظلمه
مع وكيله ، لرجل بدمشق يقال له عقيص ، مات وخلف
ثلاثة آلاف قرش ، أخذ منها ألفاً فقال :

كيف استحلّ ألفَ قرش لنا

وجملة المال ثلاثٌ كبار

وجملة الاوقاف في عهده

تباع في الدلال بيع الخيار

ويدعي الرقة في طبعه

مثل المخاديم الموالي الكبار

ثم عزل عن قضاء الشام بعيد رجمه بقليل ، واتفق
عزله يوم عيد النحر من سنة ثمان بعد الالف فليل في تاريخ
عزله :

رجم الأياشي في دمشق وجاءه

عزل وكان العيد عيداً أكبرا

وسئلت عن تاريخه فأجبتهم

بالعزلِ شيطانٌ رجم دُمِّرا

وكانت وفاته في سنة عشر بعد الالف .

والاياشي بفتح الهمزة بعدها ياء مثناة ثم ألف فشين
«معجمة نسبة إلى أياش ، بليدة يصنع بها الصوف من
تقواحي أنقرة ، ببلاد قرمان . والله أعلم .

* * *

(السيد أحمد) بن علي ، بن علاء الدين ، السيد الشريف ،
المعروف بالصفوري ، الحسيني الشافعي ، الدمشقي .
كانت له معرفة تامة بالفقه ، والشعر ، وأنواع الادب .
هو كان حسن الخلق ، جيد الفهم ، له همة عالية ، وطبيعة
«طبيعة . قرأ بدمشق على عبد الحق الحجازي ، والحسن
البوريني ، والشرف الدمشقي . وسمع الحديث من الشمس
الميداني ، والنجم الغزي ، وكان معيداً لدرسيهما في
صحیح البخاري تحت قبة النسر ، بجامع دمشق . وسافر
إلى حلب في سنة ست عشرة وألف ، وجرى له مع
أدبائها مطارحات ، وقفت عليها بخطه في بعض مجاميعه .
هو درس بدار الحديث الاشرفية ، وتولى قضاء الشافعية
بمحكمة الباب بدمشق . وكان حسن النزاهة في قضائه ،
«مشهور السمعة . وله شعر مستعذب ، عليه طلائع . وفيه
رقة وعدوبة . فمن ذلك قوله :

أيا رب قد مكنت في القلب حبه
وحكمته في الصب بالقول والفعل
وألمته الإعراض عني ولم تدع
لقلبي صبراً عنه في الهجر والوصل
فألمه احساناً إليّ فليس لي
سوى لطفك المعهود إن لم يكن من لي
والا فسوّ الحب بيني وبينه
فانك يا مولاي توصف بالعدل

هذا أسلوب لطيف يعرفه من له خبرة بقريض الشعر «
وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر تظرفاً ، كاستعماله
في الغزل ماعه استعمله في الدعاء ، كقول ابن الوكيل :
يارب جفني قد جفاه هجوعه
والوجد يعصي مهجتي وتطيعه
يارب قلبي قد تصدّع بالنوى
فإلى متى هذا البعاد يروعه
يارب بدّر الحى غاب عن الحمى
فمتى أراه في القباب طلوعه

يارب في الاطعان سار فؤاده
ياليتته لو كان سار جميعه
يارب لا أدعُ البكا في حبّهم
من بعدهم جهْدُ المُقِلِّ دموعه
يارب عذِّبُ في الهوى من ساعني
بمقالة أحلى الهوى ممنوعه
يارب هذا بينه وبعاده
فمتى يكون اياه ورجوعه
ومثله استعمال الغزل على طريق الاوامر السلطانية
كقول الظريف :

أعزَّ الله أنصارَ العيون
وخلد ملك هاتيك الجفون
وأسبغ ظل ذاك الشعر منه
على قدِّ به هيف الغصون
ومن شعر صاحب الترجمة قوله مضمناً :

إن جئتُ حيَّ أميري صف له شجني
وطول سقمي وما ألقى فان سمعا

فاشرح له حال صبٍ مغرم دنف
قد قطع البعد عنه قلبه قطعاً
لا يستقرُّ به في منزل جسد
وطرفه بعده والله ما هجعا
واذكر له أن حبي زاد فيه وهل
يخشى تغير ما في الطبع قد طبعاً
وانشده عهداً مضى في الرقمتين لنا
والبدر شاهدنا لما إليه سعى
عساه تعطفه تلك العهود وكم
نخل إلى العهد والميثاق قد رجعا
وأسرع بلطف وقل مستعطفاً ملكاً
بيتاً إلى ذكره حال المشوق دعا
يا بن الكرام ألا تدنو فتبصر ما
قد حدثوك فدما راء كمن سمعا

هذا البيت مما كثر تضمينه قديماً وحديثاً ، ولا أدري
لمن هو . وفيه عكس التشبيه ، اذ ليس المراد جعل السامع
أوفى درجة من الرائي . وقوله مضمناً أيضاً :

يا مَنْ به بدء الجمال ومن غدا
للحسن دون ذوي الكمال ختاماً
قد تمَّ حسنك بالعتذار فمن رأى
بدرًا يكون له الكسوف تماماً
وهذا البيت للاستاذ أبي الفرج بن هندو قبله :
خلع العذار على جمالك خلعة
خلعت قلوب العاشقين غراماً
وللباخري فيما يقاربه وهو قوله :
وجه حكى الوصل طيباً زانه صدغٌ
كأنه الهجر فوق الوصل علقه
وقد رأيت أعاجيب الزمان وما
رأيت وصلاً يكون الهجر رونقه
وللصفوري في الاعتذار قوله :
أيا مَنْ فضله والجود سارا
مسير النيرين بلا معارض
وعدتك سيدي والوعد دين
ولكن ما سلمت من العوارض

(قلت) : العوارض مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت
في الشام في كل سنة ، ويقال : إنها من محدّثات الملك الظاهر
بيبرس ، وبهذا تمت له التورية . ومما يعجبني في التعرض
لها ، قول الاكرومي المقدم ذكره :

لحى الله أيامَ العوارض لأنها
هدومٌ لرؤياها تشيب العوارضُ
يضيق لها صدمي وإني لشاعر
خليع وبيتي ماعليه عوارضُ

وقال ملاحاً بحكمة ، تروى عن الامام محمد بن الحنفية ،
وهي : ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف من لا يجد بداً
من معاشرته حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

إذا أنت لم تقدرْ على ترك عشرة
لذي شوكةٍ فانصحْ وعاشره بالصدقِ
ولا تضجرنْ من ضيقٍ ماقد لقيته
عسى فرجٌ يأتيك من خالق الخلقِ

وله :

إذا أنت لم تقرب ينجيك خاطري
وان تدنُ مني فالجوارح أعين

لأنك مطلوب بي على كل حالة
ولأنك مختاري فرؤياك أحسن
وفي معناه قول القاضي اسماعيل الحجازي الآتي ذكره :
إذا لحت لي ناجتك كل جوارحي
وان غبت عن عيني أناجيلك بالقلب
فأنت مني قلبي حضوراً وغيبة
وأنت ضيا عيني في حالة القرب
ومن شعره قوله يمدح الوادي التحتاني أحد متنزهات
دمشق :

والله ما رأيت العينان مثلك يا
وادي دمشق ولم تسمع به أذن
لأنت كالجنة الفردوس اذ هبطت
فيك الجواري والولدان قد سكنوا
وبالجملة فمحاسن السيد أحمد في الشعر كثيرة فنكتفي
منها بهذا القدر. وكانت ولادته في سنة سبع وسبعين وتسعمائة
وتوفي خامس شعبان سنة ثلاث وأربعين وألف ودفن
بمقبرة باب الصغير رحمه الله تعالى .

* * *

(المولى أحمد) بن عوض العينتابي الأصل ، الحلبي .
قاضي قضاة الشام ومصر وغيرها . كان من أهل الفضل والكمال
وفيه تواضع ، وله أخلاق حسنة . ولد بحلب . وكان أبوه
صالحاً تقياً ، نشأ في حجره ، وقرأ في مبادئ عمره بحلب ،
ثم سافر إلى الروم ، وأقام بها مدة طويلة ، ولازم بعض
الموالي ، فسلّمك طريق الموالي ، فدرس . وقدم في غضون
ذلك إلى حلب صحبة قاضيها عبد الرحيم بن اسكندر ،
فولاه قسمة (١) حلب . وقدم إلى دمشق مرّات عديدة
ثم خدّم بعض قضاة العمرة في خدمة التذكرة (٢) ، وصارت
له محنة كاد أن يقتل بسببها . وذلك انه نسب اليه انه قلّده
السلطان في خطه ، فكتب السلطان خطأ شريفاً بقتله .
ثم لم تزل أعيان الدولة يشفعون له ، حتى سكّت عنه . واختفى
مدة حتى تنوسيت قصته . ثم أخذ في اصلاح احواله فتولى

(١) كان يعاون قاضي كل مدينة « قسام » ، يقوم بتقسمة التركات
بموجب الشريعة الاسلامية ، ويحفظ لكل وريث حقه ، وفي الوقت
ذاته يحفظ حق الخزينة ، بالنسبة للمتوفين من الانكشارية (القباي
كولاري) .

(٢) أي « التذكرجي » وهو أحد المساعدين الثلاثة للقاضي
عسكر فكان ينظر في توزيع الأجور .

قضاء آمد (١) ، فسلك فيها أحسن سلوك ، وكاد يلتحق بالقاضي شريح . ثم ولي قضاء القدس ، ثم قضاء أيوب (٢) ، ثم ولي قضاء الشام في سنة احدى وأربعين وألف . وقال فيه بعض الادباء مؤرخاً توليته :
لقد ولي الشام الشريفة حاكم
بخير لنا قد عدت والعود أحمد

وكان بالروم رجل من أهالي حلب يسمى تبجي ، ويعرف بستيتة حلب ، وكان علماء الروم يعتقدونه كثيراً ، خصوصاً شيخ الاسلام حسين ابن أخي ، فشفع لصاحب الترجمة في ابقائه بدمشق مدة زائدة على مدته ، فأبقي ، وأنفذت شفاعته : فقال في ذلك الامير منجك :

تقول لنا الشهباء والدهر نادم
وأم الليالي اشتدّ صوت نواحها
ستيتي أبقت لقاضي دمشقكم
جناحاً فها هو طائر بجناحها

(١) ديار بكر . مدينة في تركيا اليوم ، على الشاطئ الأيسر لدجلة .

(٢) احدى محلات استامبول .

وفي أيام قضائه ، ورد إلى دمشق ، من عسكر السلطان
مراد بن أحمد طوائف ، وشهرتهم بالقشلق . وسبب ورودهم ،
أنهم كانوا عينوا لمحاربة شاه عباس فدهمهم الشتاء دون
الوصول إلى خطة العجم ، فأمرُوا بأن يشتتوا في دمشق
واطرافها من القرى . وضيّقوا على الناس أمر المعيشة ،
وبالغوا في التعدّي والتجاوز ، ونهب أموال الناس .
ونفع صاحب الترجمة الخلق في قمع أولئك بعض القمع ،
وفيهم يقول ابراهيم الاكرمي المقدّم ذكره :

انظر إلى القشلق في ذلّة
العكس من حالهم الحائل
كم رجل منهم بسموره
على جواد صائل صاهل
تحف بالجندي غلمانده
وقد أتى يسأل من سائل

ولابي بكر العمري قصيدة في وصفهم ، وفيما فعلوه ،
ويشير فيها إلى معاونة صاحب الترجمة في دفع بعض شرهم
ومطلعها :

أواه مما حل في جلق
من العنا في زمن القشلق

رامي البلا مدّ على أهلها
قوساً له قال القضا فوقه
حتى تنادى الناس مما دهمي
يا ليتنا من قبل لم نخلق
قد مسنا الضرّ وعمّ الأذى
ومالنا من منجد مشفق
من مبلغ ساطأنا أننا
من جنده في حرج ضيق
ويامراد الله في خلقه
من السلاطين غداً نلتقي
في موقف يحكم ربُّ السورى
فيه ولا ملجأ منه يقي
أدرك رعاياك فقد أصبحوا
على شفا من كل باغ شقي
كانت دمشق الشام محسودة
لكونها بالعين لم تطرق
آمنة من كل ما يخشى
مأمنة للخائف المشفق

مائة . تزهو بسكانها
مائدة للبائس المملق
لا يعرف الدخْلُ (١) لها مدخلا
ولا إلى عليها يرتقي
وهي على ماتم من نعمة
تتيه بالحسن وبالرونق
وأهلها في سعة كلهم
الفاجر الفاتك والمتقي
يغبطهم في ذاك أهل الدنا
من مغرب الشمس إلى المشرق
فجاءها ويلاه في غفلة
أمرٌ إليها قسطٌ لم يسبق
أمرٌ مراديٌ له سطوة
أخرست المنطق والمنطقي
قوم من الاتراك عاثوا بها
على خيول ضُمّر سبق
من جهة المشرق قد أقبلوا
والشرّ قد يأتي من المشرق

(١) الدخْل : العيب .

في رقعة الشام عدت خيلهم
وذلت الارخاخ للبيدق
أواه من خمسة نيرانها
يانار كيف اليوم لم تجسرق
أين العتاق الجرد ما بالها
من أدهم عال ومن أبلق
ماللماضي سكنت غلفها
كأنها بالامس لم تنبرق
ماللعوالي نكست للثرى
رؤوسها كالحائف المطرق
وأين فرسانك ياشامنا
هل دخلوا في نفق مغلق
عهدي بهم كانوا ليوث الوغى
لم يعبأوا بالفيلق المطبق
عهدي بهم كانوا غيوث الندى
إذا ظمئنا منهم نستقي
عهدي بهم كانوا حماة الحمى
من الثيبات إلى المفرق

قد أسلمونا للردى خيفة
منهم ولاذوا بحصون تقي،
وبيننا خلوا وبين العدا
ووكلوا الباشق بالعقق (١)
أقول للنفس وقد أوجفت
خوفاً عليك الأمنُ لاتفرقي
إن مسكِ الضرَّ وزاد العنا
فلازمي الصبر ولا تفلقي.
أو نالك الجوع فلا تشتكي
فإن باب الله لم يغلق.
ولا تضيقني إن عرى فادحٌ
ذرعاً ولو دام فلا تحنقي.
لكل كرب فرجٌ يُرتجى
فصدقي ما قلته واصدقي.
ياويح قوم دعسوا أرضنا
وأوقعونا في ردى موبق
وقد أغاروا وبنا أحرقوا
ياغيرة الله إلينا اسبقي.

(١) طائر على شكل الغراب .

أَجَلُوا أَهْلِي الدُّورِ عَنْ دَوْرِهِمْ
بِالسَّيْفِ وَالدَّبْؤُسِ وَالبَنْدِقِ
وَاتَّخَذُوهَا سَكَنًا دُونَهُمْ
بِالْفُرْشِ مِنْ خَزٍّ وَاسْتَبْرَقِ
وَاسْتَوْعَبُوا أَكْثَرَ أَمْوَالِهِمْ
ظُلْمًا بِلَا عَهْدٍ وَلَا مَوْثِقِ
وَاقْتَنَعَ النَّاسُ بِأَعْرَاضِهِمْ
فَانْهَاجُوا بِالثَّلْبِ لَمْ تَرُشَقْ
هَذَا وَأَوَّلَا اللَّهَ بَارِي الْوَرَى
أَغَاثِهِمْ بِالْعَالَمِ الْمَفْلَقِ
الْأَوْحَدِي، الْمَوْلَى، خَدِينِ الْعَلَى
أَحْمَدُ قَاضِيهَا التَّقِي النَّقِي
الْعَالَمِ الْفَرْدِ رَفِيعِ الدَّرَى
النَّاشِرِ الْعَدْلِ عَلَى صَنْجَقِ
وَاللَّهُ لَوْلَاهُ يَمِينُ امْرِئٍ
لِسَانُهُ بِالْمِينِ (١) لَمْ يَنْطَقْ

(١) المين : الكذب .

نخلت دمشق الشام من أهلها
طَرّاً ولم يبق بها من بقي
جاهد في الله وخاض الوغى
بهمة علياء لم تلحق
ولم يخف في الله من لائم
لام ولا من فاظر مذلق
وحوله الاعلام ساداتنا
كلُّ يُرى كالقمر المشرق.
فقاتلوهم بقلوب صفت
بالوعظ لا بالكفّ والمرفق
وخوفوهم بطش سلطاننا
مرادٍ مُردى كلُّ باغ شقي
ثم ابتهلنا كلنا بالدعا
إن الدعا من كل شر يقي
وزال عنا بعض مانشتكي
ونسأل المنان فيما بقي
وبعدها قالوا اشترُوا شامكم
منا فباعوها على المخنق

لقد غزينا دون وعد بلا
لأم (١) فأرخ سنة القشلق
وصلَّ يارب على من ترى
أنواره جهراً من الأبرق
وخبر القشلق مستفيض مشهور ، وكذا هذه القصيدة مشهورة .

عوداً إلى تنمة الترجمة : وعزل صاحب الترجمة
عن قضاء دمشق ، وبعد مدّة طويلة ولي قضاء مصر وبها
توفي . وكانت وفاته في أوائل سنة ثمان وأربعين وألف ،
ودفن بالقرافة الكبرى .

* * *

(اسماعيل بن عبد الوهاب) ، الهمداني ، نزيل دمشق ،
ذكره الغزي في ذيله ، وقال : دخل دمشق في سنة ثمان
 وخمسين وتسعمائة ، وسكن بالمجاهدية (٢) . وكان
 يبيع الحبر بباب البريد ، ويصبغ الورق . وكان يخدم
 القضاة وغيرهم . ونال شيئاً من الجوالي (٣) . ثم أعطي

(١) الأمم : الدرع .

(٢) مدرسة ، سميت بالحجازية ، لكثرة من يسكنها من
المكيين والمدنيين .

(٣) ضريبة الجزية التي كانت تؤخذ من أهل الذمة ، وكانت
تنفق عادة على العلماء .

تولية جامع سيباي خارج باب الجابية ، ثم أعطاه المولى علي بن أمر الله المعروف بابن الحنائي ، وكان قاضي القضاة بالشام ، تولية الجامع الأموي (١) عن منلا أسد بن معين الدين التبريزي . وضم إليه نظارة النظار (٢) عن الكمال بن الأحمر اوي . وبقي متولياً على الجامع أربعين سنة ، وتصرف هو والقاضي أبو بكر بن الموقع ، تصرفاً انتقد عليهما أكثره . وفيهما يقول شيخ الاسلام أبو الفتح المالكي مشيراً إلى مافعله بالوقف :

يقول على ما قيل جامع جلق
ألم يك قاضي الشام عني مسؤولاً
يسلم للاعجام وقفي لأكله
ويروى لهم عني كتاب ابن ماكولا
أبعد الفتى السبكي أعطى لسببك
وبعد الامام الزنكلوني ازنكولا

-
- (١) كان للأوقاف عاملان أساسيان : المتولي ، والناظر . فتولية الجامع الأموي هي الاشراف على أوقافه .
(٢) أي ضبط جميع نظار الأوقاف . وناظر الوقف هو الذي يراقب أعمال المتولي .

أقاموه لي قرداً بشباك مشهد
وضموا له دباً على الرقص محبوباً
يؤمّل كلّ أكلٍ وقفي بأسره
فلا بلّغ الله الاعاجم مأمولاً

ولما آل أمر الوقف إلى الضياع ، ولزم توزيع نقص
ماله على أرباب الوظائف ، وكان يقسم على طبقات ،
اقتضى صرف اسماعيل عن نظارته . وأعطيت لبورنسوز
على سنة ، فطغى في نظارته ، ثم عزل عنها . وولي مكانه
حسن باشا الشهير بشوربزه حسن ، فسلك فيه أحسن السلوك ،
من تنمية وقفه ، واعطاء علوفاته . ورفع يد اسماعيل ،
وكان يوصله علوفته ، فاختل أمره ، وبقي في زوايا
الحمول ، إلى أن مات في سادس عشر شوال سنة ست بعد الالف .

* * *

(برهان الدين) بن محمد ، البهنسي ، الدمشقي ،
المشهور بشقّلبشها . من ذوي البيوت بدمشق ، الذين خرج
منهم علماء ، وفضلاء . وتقدّم ابن عمه أحمد الخطيب ،
وسياّتي أبو أحمد يحيى . وهذا برهان الدين ، نشأ في مبدأ

أمره ، يبيع الحرير بجانوت قرب باب العنبرانيين من أبواب
جامع بني أمية . ثم نما حاله ، وأثرى ، فرحل إلى الروم ،
وعاد مدرساً بالمدرسة السليمية ، وعدّ ذلك من العجائب .
ولم يطل أمره بها ، وأخذها عنه المولى يوسف بن أبي
الفتح امام السلطان . فتوجه إلى الروم ثانياً ، وولي قضاء صيدا .
ولما عزل عنها ، استقر بدمشق . وبقي يعامل الفلاحين ،
واشتهر بالوربا ، وبلغ فيه مبلغاً ليس وراءه غاية . وكان
إذا استحق ماله على الدائن يغلظ عليه في طلبه ، ويقول
لاسبيل إلا أن تعطيني مالي ، أو تشقلبه . وهذه عبارة جارية
على السن العوام : يقولون شقلب ماله ، أي رابح فيه مرة
ثانية . فكان منهم من يعطيه ماله ، ومنهم من يراجع ،
وبذلك عرف بشقلبها . وجمع كتباً نفيسة ، واملاكاً ،
وعقارات . وامتنح مرّات ، فكان قضاة دمشق يهينونه
كثيراً ، وهو لا يعبأ بذلك . وكان قرب داره قناة ماء فأخرجها
إلى الشارع وعمّرها ، وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين
وألف ، فقال العمادي المفتي ، مؤرخاً بناءها ، وهو من
التواريخ العجيبة وهو قوله :

لبرهان قناة قد بناها
وشقلبها فتلك له سمات
فشقلب واحداً في العد واحسب
وأرخها مشقلبة قناة

(قلت) قد اعتبر التاء المربوطة في قناة هاء وهي مستعملة
عند الادباء كذلك كما في المقامات الحريرية . وكانت
وفاته سنة اثنتين وتسعين وألف ، ودفن بمقبرة الشيخ أرسلان
قدس الله سره العزيز .

* * *

(السيد حسين) بن محمد البيمارستاني ، نقيب
الأشراف بحلب (١) ، وكان يكتب الحسيني . تولى
نقابة حلب بعد موت والده ، ونازعه الشمس الراحمداني ،
فانه كان نقيباً قبل والد السيد حسين . فتقرب السيد حسين
إلى المولى يحيى بن سنان بالهدايا ، حتى قررها عليه ، وعرض

(١) نقابة الأشراف : إحدى الوظائف الدينية ، وصاحبها من
الأشراف ، أي من نسل علي بن أبي طالب ، ويلقبون أيضاً بالآسياد . وكان
نقيب الأشراف يتأكد من انساب الأشراف ، ويشرف على شؤونهم .

له بها . وكان صاحب أموال جزيلة ، حصلها من التجارات ،
والمداينات . وأخذ أمراً بالتقاعد عن دفترة حلب .
وكان لا يأخذ من الاشراف مالا ، ولا يصادرهم ، بل
كان يبذل لهم القرى ، ويقضي مهمات مصالحهم بخلاف
غيره من النقباء . ولما استولى خداوردي أحد جند الشام
على حلب ونواحيها ، وامتدت يده ، زوج ابنته لابن
خداوردي ، كما زوج الشيخ أبو الجود ابنته لخداوردي ،
تقرباً إلى جاهه . ولما تولى الوزير نصوح كفاة حلب ،
وفهم الشيخ أبو الجود انه يريد الانتقام من خداوردي ،
وبقية أجناد دمشق المستولين على حلب ، فرّ قبل وقوع الفتنة
إلى دمشق ، والسيد حسين ثبت . وكان يداري الباشا ،
وهو في الباطن يبغضه ، وينوي له سوء . والامير درويش
ابن مطاف ، أحد متفرقة حلب ، مقبول الباشا ، كثير
البغض للسيد حسين ، بواسطة أخيه السيد لطفي . فانه كان
عدواً للسيد حسين ، مع كونه أخاه . فكان السيد لطفي
يثلب أخاه بحضور الامير درويش ، والامير درويش ينقل
ذلك للباشا ، حتى وقع الحرب بين نصوح باشا وحسين
ابن جانبولاذاً كما ذكرناه سابقاً . وانكسر نصوح باشا

وعاد إلى حلب مقهوراً ، فوشي السيد لطفي انّ أخاه فرح
بكسر عسكر الباشا وانه قرأ مولداً في هذه الليلة للفرح .
فذهب الباشا إلى دار السيد حسين ، فسمع ضرب الدفوف ،
وأصوات الغواني ، وأمارات السرور . وكان سببه ان
بنت السيد حسين ولدت ولداً ذكراً في تلك الايام ، فاجتمعت
النساء للفرح . ففي اليوم الثاني طلب الباشا السيد حسين ، فأخذ
معه شريفاً من بيت ضعاف الحبس ، ورجلاً يقال له منصور
ابن حلاوة ، فدخل الثلاثة إلى دار السعادة . فأمر الباشا بخنقهم
وألقى أجسادهم في الخندق بحيث لا يشعر بهم أحد .
وضبط الباشا أموال السيد حسين ، وهرب السيد لطفي
لما قيل له الباشا يقتلك أيضاً ، وليوهم الناس أنني ماسعيت
في قتل أخي . وقد كان السيد لطفي يحلف الايماناة العظيمة
انّ أخاه يشرب الخمر ، ويلبس لبوس النصارى ، ويذكر
ذلك الباشا . وكان قتله في سنة ثلاث عشرة بعد الالف وعمره
نحو سبعين سنة رحمه الله تعالى .

* * *

(سعودي) بن محمد . بن محمد . بن محمد الغزي ،
العامري الدمشقي الشافعي . مفتي الشافعية بدمشق ، وابن

مفتيها ، وابن ابن مفتيها . رؤساء العلم بالشام ، وكبراؤه ،
وشهرة بيتهم لا تحتاج إلى بيان . وكان سعودي هذا فاضلاً
وجيهاً رقيق الطبع ، متساوي الاطراف . أخذ الفقه والحديث
عن جدّه لأمه الشهاب أحمد العيثاوي ، المقدم ذكره ،
وعن والده النجم . وسافر في خدمته إلى الحج في سنة أربع
عشرة بعد الالف ، وإلى الروم في سنة ثلاث وثلاثين .
ولما حج والده في سنة سبع وأربعين ، أقامه مقامه في خدمة
فتوى الشافعية ، فباشرها . وظهرت كفايته ، وحمدت
سيرته . ثم مات أبوه في سنة ستين ، فاستقل بها . وأعطى
عنه المدرسة الشامية البرانية ، ودرس الحديث تحت قبة
النسر من جامع بني أمية ، وابتدأ من محل انتهى إليه درس
والده في صحيح البخاري ، وكان وقف في آخر درس قرأه
على باب البكاء على الميت . واستمر مدّة يفتي ، ويدرس ،
وله القبول التام ، والتقدم بين أبناء نوعه . وكان حسن
المطارحة والادب ، وينسب إليه من الشعر شيء قليل .
فمن ذلك ما رأيته منسوباً إليه في بعض المجاميع ولا أتحققه ،
وذلك قوله في صاحب له :

لي صاحب في نقله ماحكى
للكذب عن آباءه وارث
فكل ماينقله مثل ما
قال الحريري حكي الحارث

وكانت ولادته في سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ، وتوفي
في أواسط ذي القعدة سنة احدى وسبعين وألف . ودفن
بمقبرة آباءه بتربة الشيخ أرسلان قدس الله تعالى سره العزيز .

* * *

(سنان باشا) ابن محمود نزيل دمشق . ومتولي الجامع
الأموي بها . أمير الامراء ، وصدر أعيان الشام في وقته
أصله من قرية دورلي ، بكسر الدال المهملة ، وبعدها واو
مكسورة مهملة وراء ساكنة ، ولام مكسورة ، من ضواحي
قرمان . ورد إلى دمشق في خدمة الوزير مصطفى باشا الخناق ،
نائب الشام ، في سنة ثلاث وثلاثين وألف . وبعد ما عزل
مخدومه ، أقام هو بدمشق وصار من جندها ، وصار زعيم
دمشق مرات ، وسرداراً بخدمة المحكمة . وصار محتسباً (١)

(١) هو معاون للقاضي ، ويشرف على الأمور التي تتعلق بالنجار
والحرفيين وطوائفهم ويراقب الأسواق .

مدّة طويلة ، وأحدث بها ثمان عشرة بدعة باقية إلى يومنا .
ثم ترقى حتى صار باشجاويش (١) . وحج سنتين ،
وعمر داراً قبالة البيمارستان النوري ، تعرف قديماً بدار
الصابوني . والصابوني هذا هو صاحب جامع الصابونية .
وبعد مدة صار كتخدا الجند ، وسلك سلوكاً غريباً حتى
فاق من قبله واتعب من بعده . وكان سخيّاً إلى الغاية ،
وله بذل وعطايا وقرى ، ثم صار أمير الحاج ، وأعطى
حكومة نابلس ، فحج بالناس سنتين ، وذلك سنة تسع
 وخمسين وسنة ستين . ثم عزل ، ورقّ حاله ، ولم يتغير
عن كرمه . ثم سعى له بعض الاعيان وصيره أمير الامراء
بالقدس . وبعدما عزل عنها عاد مديوناً ، وتضعضع حاله
وكثر عليه الدين حتى باع أملاكه . وسافر إلى الروم فلم
يحصل له منصب ، بل صارت له علوفة في خزينة دمشق ،
على سبيل التقاعد وذلك في سنة تسع وستين . ثم صار متولي
أوقاف الجامع الأموي . ولما قدم الوزير أحمد باشا الفاضل ،
جعل له كتخدا الدفتر بدمشق ، وهذه الخدمة تتعلق بأرباب

(١) الجاويش ، هو جندي مراسل ، أو حارس . و (الباشجاويش)
هو رئيس للجاويشية .

التيمار وأهل الزعامات ، ومن يتولاها يكون ضابطاً لهم .
قانتظم حاله وتنبه من رقدة الحمول . قال والذي رحمه
الله تعالى في ترجمته : وبعد ماناهز الثمانين ، ابتلي بمحنة
غلام كان عنده من الخدّام ، ولم يكن عهد في طبعه الرقة ،
ولا عرف للغرام حقه ، وبعدما تحكم عشقه فيه ، نفر عنه
وقصد تجافيه ، وخدم عند الوزير قبلان نائب الشام ،
وعسر عليه خلاصه من يده ، واجتهد في تحصيله غاية
الاجتهاد ، فلم يظفر منه بمراد . ولم يزل يعاني فيه الغصص ،
ويتوقع مواقع الفرص ، إلى أن مات وما ماتت حسرته .
وخلقت أميته منيته ، وكانت وفاته نهار الاثنين ثاني شهر
رمضان سنة ست وسبعين وألف ، ودفن بمقبرة باب الصغير
بالقرب من مزار بلال الحبشي رضي الله تعالى عنه .

* * *

(صنع الله) بن محب الله ، بن محمد محب الدين ، بن أبي بكر
تقي الدين ، بن داود ، بن عبد الرحمن ، بن عبد الخالق ،
ابن عبد الرحمن ، المحبي ، الدمشقي ، الحنفي ، عمي
شقيق والذي . وكان لي مكان والذي ، فان أبي سافر
إلى بلاد الروم وعمرى إحدى عشرة سنة ، فتقيد بي ،

ورباني وأقدمني على الطلب ، وجعل أهم أمره أمري ..
وكان ، جزاه الله تعالى عني خيراً ، برّاً بي ، شفوفاً عليّ ،
مريداً لي كل خير عاجل وآجل . وما عاهدت منه لحظة ما
إساءة أو مقتاً ، بل كان رحمه الله تعالى يألّم لما آلم منه ،
وينشرح لما أنشرح له ، بل يغضب لغضبي ويرضى لرضائي ،
وعلى كثير من مناهجه في التودّد نهجت ، وعلى آدابه
وحسن طويته درجت . وكان ، بلّ الله ثراه بوابل الغفران ،
لطيف الطبع ، حمولاً ، فاضلاً ، كاملاً ، طارحاً للتكلف ، حسن
العشرة ، متودّداً . وكان أبوه في حياته يحبه كثيراً ، فربي ،
عزيزاً مكرماً . ولما مات أبوه كان عمره عشر سنين ،
فرباه وتقيده به ، وكان له إليه محبة لم أرها من أحد ، ولم
أسمع بمثلها ، وكان هو كذلك . وكثيراً ما كنت أسمع
يقول : أرجو الله تعالى ، أن لا يريني يوم موت أخي ،
وأكون أنا السابق عليه بالموت ، حتى قدر الله أنه مارأى
يوم موته ، لكن لالموته قبله ، بل لأنه كان مسافراً في
بلاد الروم . وقد اشتغل بالعلم كثيراً في مبادئه ، فقرأ
على الشيخ أحمد القلعي ، وعلى شيخنا النجم الفرضي ،
وعلى غيرهما . وناب في القضاء بمحاكم دمشق : كالكبرى .

والقسمة والميدان والعونية . وصار نائباً بالقدس في سنة
اثنين وسبعين وألف . ثم انه سافر إلى الروم . وصار قاضياً
بحمص ، ورجع إلى الشام . وكان بالشام اذ ذاك شيخ
الاسلام محمد بن عبد الحليم البروسوي . وقد رجع من
الحج ، فجاءه قضاء القدس فتوجه معه . وخدمه في نيابة
غزة ، ثم قدم في خدمته إلى الشام بعد ان عزل . وكان أمر
بالتوجه إلى وطنه بروسية ، فصحبته إلى الروم ، وسافرت
أنا معهم . ودخلنا بروسية في خدمة المولى المذكور . ثم
فارقناه ، وتوجهنا بحراً إلى ناحية أدرنة ، والدولة اذ ذاك بها ،
فوصلناها وأقمنا بها مدة . ثم لما توجه السلطان محمد إلى
قسطنطينية ، جئت أنا وإياه إليها ، فولي بها قضاء معرة
المصريين ، وتوجه إليها وضبطها . ورجع إلى الروم وأنا
مقيم بها . ثم أعطى قضاء معرة المصريين ثانياً ، وسافر
إليها ، فصحبته في الطريق إلى أن وصلنا إلى انطاكية ، ثم
افترقنا . ولم يقدر الله تعالى بعد ذلك اجتماعاً : فاني قدمت
إلى دمشق ، وألقيت بها عصا الترحال، ووصل هو إلى قضائه
وضبط المنصب . وعزل عنه ، ثم سافر إلى الروم . وولي قضاء
سرمين ، ووصل إليها فتوفي بها وهو قاض . وكانت

وفاته في ثامن شهر رمضان سنة سبع وتسعين وألف عن
ستين سنة رحمه الله .

* * *

(عبد القادر) بن عثمان ، القاهري ، الحنفي ، الشهير
بالطوري مفتي الحنفية بمصر من بيت أئمة الحنفية ، ذوي
حسب . وكان عالماً ، فاضلاً ، فقيهاً ، أديباً ، وله وجاهة
ونباهة في أنواع العلوم . وكان ملازماً على الافتاء ، والتدريس
بجامع الازهر . وله تصانيف ، منها : شرح على (الكنز) في الفقه ،
وتكملة (البحر الرائق) . وله كتاب في الادب جمعه من نظمه ونثره
سماه ، الفواكه الطورية . وفي هذه التسمية لطف ، لان
بلدته الطور ، أكثر تلك الدائرة فاكهة . ويعجبني ما كتبه إليه
بعض الادباء ، في طلب كتابه هذا ، وكان وعده بارساله
اليه وذلك :

يا إماماً لقد حوى دررا
بكل نظم وكل منشور
غرسه بالفضل روضة بسقت
ثمارها من طلائع النور

يشتاق طرفي لأن يشاهدها
فتلك عندي أجلّ منظور
وفؤادي العليل من قدم
يتمنى فواكه الطور

وذكره الشهاب في (الخبايا) ، فقال في ترجمته : « والطور
وكتاب مسطور ، لهو صديق لي ، تجر به المودة حلال الحبور .
روض مجد ناضر ، وبحر أدب وافر . لكن طبعه أم الصقور ،
مقلات نزور . ولم يورق حتى احتضر ، ومضى بأمر عزيز
مقتدر . » ثم أنشد له قوله :

تنور منيتي بلطيف صنع
معاني حسنه أضحت غزيره
له قدّ رشيق ثمّ جسم
عليه حين لاح رأيت نوره

ثم تعقبه بما في (تحرير التحريف) للصفدي ، يقولون :
تنور الرجل من النورة . والصواب انتور ، وانتار ، ولا يقال
تنور ، الا اذا أبصر المنار . ثم قال : وما منعه صرح به غيره
من أهل اللغة ، لكن المشهور هذا . قلت : ويشهد للأول
ما في حماسة الطائي : قال اعرابي لابنيه وقد دخلا الحمام
فأحرقتهما النورة :

نهيتهما عن نُورة أحرقتهما
وحمام سوء مأوه يتسعر

أجد كما لم تعلمنا أن جارنا
أبا الحسل في الصحراء لا يتنور

على أن (تنور) ، في كلام الطوري ، لا يتعين حملة على
تعاطي النورة . لاحتمال جعل له نوراً . وقول الشهاب
في حقه : لكن طبعه أم الصقور إلى آخره ، اشارة إلى انه
كان قليل الافادة والآثار ، وهو حل لقول السفيه الحماسي :

بغات الطير أكثرها فراخاً

وأم الصقر مقلات نزور

والمقلات ، بالفتح : ناقة تضع واحداً ثم لا تحمل .
والتزور : الناقة مات ولدها وتروم ولدآها . وقوله ويشهد للاول
الى آخره هذه عبارة الطائي . وقال الشريشي في شرح
المقامات : روي أن عبيد بن قرط الاسدي دخل مع صاحبين
له بلداً فيه حمام ، فأحب صاحباه دخوله ، فنهاهما
عبيد ، فأبيا الا دخوله . فلما رأيا فيه رجلاً يتنور أي يستعمل
النورة . فسألا عنها فأخبرا باذهاها الشعر فاستعملها فلم
يحسنا ، فأحرقتهما وأضررت بهما . فقال عبيد :

لعمري لقد حذرت قرطاً وجاره
ولا ينفع التحذير من ليس يحذر
نهيتهما عن نورة أحرقتهما
وحمام سوء ناره تتسعر
فما منهما الا اتاني موقعاً
به أثر من مسها يتقسر
أجد كما لم تعلمنا ان جارنا
ابا الحسل بالبلاء لايتنور
ولم تعلمنا حمامنا في بلادنا
اذا جعل الحرباء في الحدل يحضر

والنورة قيل انها ليست عربية في الاصل ، واشتقاقها
يشابه اشتقاق العربي ، فزعم قوم انها سميت بذلك ، لان
أول من عملها امرأة يقال لها نورة . وقد استعملتها العرب
في الشعر القديم . قال الراجز :

ياربّ إن كان بنو عميره
رھط التلبّ هؤلاء مقصوره
قد أجمعوا الخلعة مشهوره
واجتمعوا كأنهم قاروره

فابعث عليهم سنة قاشوره
تحتلق المال احتلاق النوره

انتهى . وقد تفحصت عن وفاة الطوري كثيراً فلم
أظفر بها ، سوى اني رأيت في مجموع بخط بعض الافاضل
الادباء ، وكان ممن قرأ على الطوري أنه كان موجوداً
في سنة ست وعشرين وألف .

* * *

(عبد القادر) قاضي العسكر الشهير بقدري . وهو
صاحب الفتاوى المشهورة بفتاوى قدري ، ويطلق عليها
لفظ المجموعة . وهي الآن عمدة الحكماء في أحكامهم
والمفتين في فتاويهم . وبالجملة فانها مجموعة نفيسة ، أكثر
مسائلها وقائع كانت تقع أيام المفتي يحيى بن زكريا ،
وكان هو في خدمة المفتي المشار إليه موزع الفتوى . وموزع
الفتوى عندهم ، عبارة عن رجل يجمع الفتاوى التي كتبت
أجوبتها ، ويدعها إلى يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، فهذا
يوم التوزيع . فيقتل في مكان من دار المفتي المعين ، وينادي
بأسماء أصحاب الفتاوى ، واسماؤهم مكتوبة على ظهر
قرطاس الفتوى . فهذه خدمة الموزع وأمين الفتوى هو .

الذي يراجع المسائل من محلها ، وينزل عليها الوقائع . واستمر عند ابن زكريا بهذه الخدمة زماناً طويلاً . وكان من ذلك العهد موصوفاً بالتقى والاقبال على أمر الآخرة ، وفيه صلاح وإنابة . ومن هنا يحكى أن المفتي المذكور كان أعرف أهل زمانه . واجتمع عنده من الحفدة أرباب المعرفة ما لم يجتمع عنده غيره . فكان إذا أراد المفاوضة مع أحد في أمر الدنيا ، والدولة ، وأحوال الناس ، قدم المولى محمد بن عبد الحليم البورسوي الذي صار آخراً مفتياً الآتي ذكره ، وكان عنده أمين الفتوى ، وأقرب المقربين ، فيتفاوض معه في هذه الأمور لكمال فطنته ودربه ومعرفته بأحوال الناس . وإذا أراد المذاكرة في مشكلات الفقه ، والمسائل ، اختار المولى أوزون حسن أي الطويل ، وكان من خواصه . وإذا أراد المباحثة في أنواع الفنون العقلية ، رجع المولى مصطفى البولوي الذي صار آخراً مفتياً ، وكان من حواشيه . وإذا أراد المناقشة في الأدب والشعر ، ميز المولى محمد بن فضل الله الشهير بعصمتي ، الذي صار آخراً قاضي العساكر ، وكان من ندمائه . وإذا أراد المفاخرة في أمر الآخرة . وأحوال المعاد والجنة والنار ، استدعى

صاحب الترجمة . وعلى كل حال ، فهو من خيار الموالي
العظام ، ولي قضاء قسطنطينية ، وقضاء العسكرين مرات .
وكان عالماً ، فاضلاً ، وقوراً ، عليه مهابة العلم والصلاح .
وكانت وفاته في سنة ثلاث وثمانين وألف بقسطنطينية
ودفن خارج باب أدرنة .

* * *

(عبد الواحد) بن أبي بكر الانصاري الشافعي ،
قاضي القنفذة (١) ، الامام الفاضل . كان بمكان مكن
من العلم ، غاية في الذكاء والفهم ، حسن التقرير والتحرير .
روى الفقه ، والحديث ، وغيرهما ، عن العلامة الشيخ
علي بن الجمال ، وعبدالله بن سعيد باقشير ، وعيسى بن محمد
الجعفري . وله فيه مدائح كثيرة ، ومرثيات كثيرة .
وجاور بالحرمين سنين ، وأجازه شيونحه . وكان رئيس
القنفذة وما والاها من أرض الحجاز ، لاتصلر حقيقة
أمرها الا عن رأيه . ولم يزل كذلك حتى سعى به بعض
الوشاة ، بسبب سعيه في صلح بين الاشراف بني عبدالله ،
إلى الشريف سعيد بن زياد ، ورماه بأمور أوجبت ان أمر

(١) إحدى مدن منطقة العسير في جنوبي غربي شبه الجزيرة العربية .

بالقبض عليه ، ونهب داره ، وجميع أثاثه ودثاره . ثم
قيد بالقيود ، وأُتي به اليه . وأراد قتله ، بعد الذي جرى
عليه من حلق ذقنه ، ولحيته ، فشفع فيه بعض الاعيان
فعفا عنه . واختار الإقامة بعد ذلك بنجد الحجاز ، ولم تسمح
نفسه بسكنى بلده القنفذة ، بل كان يتردد اليها أحياناً
لزيرة من بها من أحبائه . وتوطن محلة موطف ، وله مؤلفات
كثيرة : منها نظم المنهج ، وشرح على الرحبية في الفرائض ،
ومنظومة في أصول الدين ، وشرح عقيدة الامام اسماعيل
ابن القاسم ملك اليمن ، وبين فيها أدلة أهل السنة ، وردّ على
الزيدية . وله رسائل كثيرة ، منها رسالة سماها الجواب
الابيّ في صحة الطلاق مع الكلام القليل وان كان بالاجنبي ؛
وغير ذلك من المنشور ، والمنظوم ، والشعر الفائق . وكانت
وفاته في جمادى الاولى سنة تسع وثمانين وألف .

* * *

(عبد الوهاب) بن أحمد ، بن محمد ، بن محمد ،
ابن أحمد ، بن محمود ، بن عبدالله ، بن محمود الفرغوري .
الدمشقي ، الحنفي ، مفتي الشام . وأحد الفضلاء المبرزين .
كان فقيهاً ، وجيهاً ، جليل القدر ، سامي الرتبة . قوي

الحافظة ، طويل الباع . وله أدب بارع ، ومحاضرة جيدة ، اشتغل في مبادئه على الشيخ عبد اللطيف الجالقي ، والشرف الدمشقي ، وأخذ الحديث عن الشيخ عمر القاري ، ثم لزم العمادي المفتي . ومال إليه العمادي بكليته ، فصيره معيد درسه في صحيح البخاري . وتخرج في كتابة الاسئلة المتعلقة بالفتيا ، على الشهاب أحمد بن قولاً قسز ، وعبد اللطيف المنقاري . ثم لازم ودرس على قاعدة الروم ، وفرغ له أحمد بن شاهين عن تلريس الجقمقية (١) قبل وفاته . ثم درس ، وأفاد ، وانتفع به جماعة ، وتولى النيابة الكبرى مرات متعددة ، ونال رتبة الداخل المتعارفة الآن في بلادنا . ولما قدم الوزير أحمد باشا الفاضل إلى دمشق ، أقبل عليه كثيراً لما رأى من فضله . فلما ولي الوزارة العظمى صيره مفتياً بالشام ، ووقعت منه موقعها وكتب إليه الامير المنجكي قوله :

شكت إلى الروم أحباؤنا
من فتية تفني على جهلها

(١) مدرسة في شمالي الجامع الأموي ، تحولت اليوم إلى متحف للخط العربي .

فأرسل الفتوى مليك الورى
لنجل فرفور على رسلها
وأصبح الفضل لنا قائلاً
أدّوا الامانات إلى أهلها
وأرخ توليته شيخنا الشيخ عبد الغني النابلسي فقال :
قد جاءت الفتوى إلى بابكم
مسرعة تولي معاليها
لما بكم لاقت ولقتم بها
والدهر أعطى التمس بارها
والله ماجارت بكم أرخوا
بل آلت الفتوى لأهلها

وقد تمكنت قواعده في الفتيا ، واشتهر أمره .
وكان مع عراقته الطائفة ، وتفوقه في الفضل والادب ،
متواضعاً ، دمث ، الاخلاق ، ودوداً ، حسن العشرة ،
طارحاً للتكلف . فلهذا مالت اليه القلوب ، وانبعثت اليه
الاهواء . وكان في الاطلاع على فروع الفقه ، والانخذ
بمحال الاحكام في الدروة العالية . ومن غريب أمره انه

مع فضله الباهر، لم يرو له أثر من تحرير أو تقرير . وكان
ينظم الشعر ، ومن جيله شعره قوله :

لله بدر قد حكى بخدوده

ورد الربى وشقائق النعمان

وبشغره زهر الاقاح منضبد

وبقده المياس غصن البان

وبطيه طيب الرياض ونشرها

وبصدغه للآس والريحان

واذا محاسنه بدت لعيوننا

تجلى فلا نحتاج للبستان

وقوله :

إن غبت عن ناظري يامن كلفت به

فما أراك عقيب الآن في عمري

لأن عيني تجري بعد فرقتكم

دماً ويتبعه ماطل من بصري

وقوله :

دع الحب إن الحب للعقل سالب

وعش خالياً فالحب فيه النوائب

فلا يصلحن الا لمثلي فإنني
ففي دون نعليه السهى والكواكب
فمن كان مثلي كان بالحب لائقاً
والا فصب بالصباة لاعب
وكتب إلى جلدي محب الله في غرض :
يامن أياديه سحب ممطر
ولديه حاتم في السخا لا يذكر
وعليه من سيما الكرام دلالة
وشواهد تبدو عليه وتظهر
طوقني من راحتك بمنة
أضحت على طول الليالي تنشر
لم أقض حق ثنائها لو أن لي
في كل جارحة لساناً يشكر
ولم تطل مدته ، فتوفي . وكانت ولادته في سنة اثنتي
عشرة وألف وتوفي في خامس عشر المحرم سنة ثلاث وسبعين
وألف ، ودفن بمقبرة أجداده بني الفرفوري ، لصيق مزار
الشيخ أرسلان قدس الله تعالى سره العزيز . وقال الامير
المنجكي يرثيه :

ريحانة الافضال عاجلها الردى
ولفقدتها مسّ الانعام زكام
ماكانت الايام الا مقلة
ولها ابن فرفور ضيا ومنام
حيّته أرواح الرضا من ربه
وهمي عليه من الهبات غمام

* * *

(عيسى) بن عبد الرحمن . أبو مهدي السكتاني ،
المالكي المذهب ، مفتي مراکش وقاضيهما ، وعالمها .
الامام العلامة النظار ، خاتمة العلماء الكبار ، محقق المغرب
الاقصى في عصره ، وأوحد علماء دهره . له شهرة كبيرة
تغني عن التطويل ببيان فضائله وعلومه ، حتى قال بعضهم
انه مجدّد أمر دين هذه الامة . وقد ستر الله تعالى على ضعفاء
العقيدة ، مقامه العالي بقوة ظهوره بالقضاء والافتاء ،
وانتهاء الرياسة اليه . وكانت له كرامات مشهورة ومناقب
كثيرة مأثورة . ولد بمراكش ، وبها نشأ . وأخذ بالمغرب
عن شيوخ عظام ، وقادة أجلاء فخام ، منهم العلامة وحيد
الزمان أبو العباس المعروف بالمنجور ، وغيره . وعنه خلق

كثير بالمغرب مشهورون ، منهم العلامة محمد بن سعيد ،
والامام الهمام محمد بن سلمان نزيل مكة ، وغيرهما .
ولم يكن في زمانه من يقاربه في جميع العلوم العقلية والنقلية
ببلاد المغرب ، الا العلامة أحمد بن عمران الفاسي .
وكان يقرئ التفسير في فصل الشتاء ، فيأتيه العلماء من
جهات شتى ، ويلتزمون درسه . وكان يملئ من حفظه
كلام المفسرين ، مع البحث معهم والجواب عما يورده
الفضلاء بين يديه ، فيأتي في أثناء تقريره بالعجب العجيب ،
والامر الذي يحير العقول والالباب . وكان يقال ، بعد
انقضاء طبقة أشياخه : علماء المغرب ثلاثة ، صاحب الترجمة ،
وأحمد بن عمران ، والشيخ عبد القادر بن علي ، الفاسيان .
يعنون أهل المشاركة في العلوم والتحقيق ، والا
فقد كان من العلماء كثير ممن طارت فتاويهم في الاقطار ،
وسار ذكرهم كل مسير . وله مؤلفات عجيبة الاسلوب ،
منها حاشية على شرح أمّ البراهين للسنوسي ، وغيرها .
وكانت وفاته بمراكش في سنة اثنتين وستين وألف ،
وقد ناف على المائة سنة ، ممتعاً بحواسه ، لولا ضعف في
رجليه على ما أخبر به محمد بن سليمان المذكور .

* * *

(فضل الله) بن علي ، بن محمد ، بن محمد الاسطواني .
الدمشقي ، الحنفي ، رئيس الكتاب بمحكمة قاضي القضاة
أحد أفاضل الكتبة الاكامل . وهو ابن خالتي ، وختني .
وكان من أفراد العصر في المعرفة ، والصلف . وافر التنعم ،
سخياً ، متودداً ، معاشراً . لزم فيما عهده شيخنا ، الشيخ
عبد الحي بن العماد العسكري المقدّم ذكره ، فقراً عليه
كثيراً . واغتنت في صحبته معه ليالي ، وأياماً ما زلت أذكرها .
ثم بعد وفاة شيخنا المذكور لزم شيخنا الشيخ رمضان العطيفي ،
فقراً عليه الدرر والغرر ، ومات شيخنا ولم يكمله . فشرع
في تكميله على شيخنا الشيخ ابراهيم الفتال ثم بعد وفاة
الفتال . قرأ دروساً منه على شيخنا الشيخ عبد
القادر بن عبد الهادي . ودرس بالمدرسة الخاتونية (١)
والمقدمية (٢) ، وهي مشروطة لهم . وسافر إلى الروم ،
وحج ، وجمع من نفائس الكتب ، والدخائر ، ما لم يجتمع
عند أحد من أبناء عصره . وولي رياسة الكتاب ، ثم مرض

(١) من مدارس الحنفية بدمشق ، كانت بمحلة البيمارستان النوري

(٢) من مدارس الحنفية بدمشق ، داخل باب الفراديس في

محلة العمارة .

وطال مرضه مدّة إلى أن توفي . وكانت وفاته في أوائل
ذي الحجة سنة مائة وألف ، عن ست وخمسين سنة ،
ودفن بمقبرة الفراديس المعروفة بتربة الغرباء عند أسلافه
بني الاسطواني .

* * *

(المنلا قاسم) بن أحمد الكردي ، نزيل دمشق ،
من أفاضل الاكراد ، وزد إلى دمشق ، وأقام بالمدرسة الاحمدية
قبالة قلعة دمشق . وأقرأ بعض الطلبة ، وسكن دمشق ،
وأنشأ داراً بالقرب من جامع الدرويشية . ولما قدم محافظ
الشام الوزير أحمد باشا الكوجك ، جعله اماماً له . وحصل
أموالاً كثيرة ، وصار خادماً لمزار سيدنا يحيى بن زكريا
عليهما الصلاة والسلام . ولما عمر مخدومه المذكور عمارته
بدمشق شرط له النظر عليها . فلما مات أحمد باشا استأجر
وقفه ببعليك ، وصرف جهده في تنمية الوقف . وبعده
اضمحله أمره وخربت قراه . ومن عجيب أمره أنه كان
سخياً إلى الغاية ، والسخاء في الاكراد أعجب العجب .
وكانت وفاته ليلة الاحد سادس المحرم سنة ثمان وستين
وألف ودفن بالقلندرية بمقبرة باب الصغير .

* * *

(السيد محمد) بن برهان الدين الشهير بشريف الحميدي .
نقيب السادة الطالبية بممالك آل عثمان ، أحد فصحاء الروم
وبلغائهم . وكان عالماً ، فاضلاً ، مشهوراً بالذكاء ،
والتبحر في العلوم . لازم من شيخ الاسلام زكريا بن بيران ،
وكان في خدمة نيابته بحلب ، لما كان قاضياً بها . ولما صار
قاضي العسكر أعطاه خدمة التذاكر ، ثم زوجه ابنته .
وتنقل في المدارس . ثم ولي قضاء الشام في سنة ثمان عشرة
وألف ، ودخلها وأحسن في قضائه ، ومدحه شعراؤها
بالقصائد والمقطعات ، ولم أسمع بقماض في دمشق مدح
بمقدار مامدح به هذا . وكان محباً للادباء ، مقرباً لهم ،
متهافناً على التلذذ بمجالستهم . وقرأت في أخبار الاديب
عبد اللطيف بن يحيى المنقاري . انه كان نديم مجلسه .
وكان يقربه ويدنيه . ومرض أبوه في أيام قضائه . فأراد
ولده أن يستفرغه عن وظائفه فتمنع . ثم انه لما أحس بالموت
أراد الفراغ فما أمكنه ، فذهبت الوظائف ولم يحصل له
منها إلا القليل . وكان بيده تدريس العزبة التي بالشرف
الاعلى بجانب دمشق الغربي ، فأخذه الجمال يوسف بن
كريم الدين . كاتب المحكمة ، وعجز المنقاري عن أخذه

لقرب الكريمي من القاضي . فكتب المنقاري إلى قاضي
القضاة السيد صاحب الترجمة هذه الأبيات معاتبه على توجيه
مدرسة أبيه للكريمي ، وهي أبيات لطيفة وغالبها تضمين
من شعر الغير :

غيرت يادهر من ودّي غدا لهم
ملازماً فنأت غني لهم نعم
قد كنت أرجو وجود الجود مع شرف
أسمو به فوق أقراني اذا حكموا
فصار جودهم للغير وانخفضت
مراتب شأوها الانخلاص عندهم
وفي فؤادي من عكس الردى حرق
قد أضرمتها رياح شابها الالم
ماكل مايتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لايشتهي الارم
لعلها تنطفي من برد حكمته
ويشتفي القلب من نار لها ضرر
فان عكس الرجا مر مذاقته
على كتيب عرته في الورى نعم

مولاي يا من غدا سر الوجود ومن
سواه عندي وان أولى الجفا عدم
لأنت انسان عين الروم حزت على
مانا لها قط لا عرب ولا عجم
وفقت غيرك في حكم ومعدلة
وشدت ربعاً ومن سكانه الكرم
طلعت في أفقنا بدرأ وليس يرى
للليل جهل وظلم في الملا ظلم
لكنّ موضع رحلي أسود وفمي
فيه لبيب الظما دون الورى ودم.
سقيت جرعة عيش كله كدر
ووردهم من نذاك السلسل الشبم
تعلقت بحبال الشمس منك يدي
ثم انشت وهي صفر ملؤها ندم
هل في القضية يا من فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم
يضيع واجب حقّي بعد ما شهدت
به النصيحة والاخلاص والخدم

ولم أقصر لدى حفظ الوداد ولا
جرت إلى نحو اخلاصي لك التهم
وما ظننتك تنسى حق معرفتي
ان المعارف في أهل النهى ذمم
ولم أضيع عهداً منك لي سلفت
وما غدرت فلم للودّ احترام
حرمت ما كنت أرجو من ودادك لي
ما الرزق الا الذي تجري به القسم
بالله يا بن الألى ساروا إلى رتب
ماناها أحد في الخلق غيرهم
مامر يوماً بفكري ما يري بكم
ولاسعت بي إلى ماساءكم قدم
أحببتكم لخال كنت أعرفها
وانما تعشق الاخلاق والشيم
اذا محاسني اللاتي أدل بها
كانت ذنوباً فوصلي منك منصرم
مع ذا فأنت مني قلبي فلست إلى
سواك ان عبس التبريح أبتسم

وبعد لوقيل لي ماذا تحب وما
دعواك من زينة الدنيا لقلت هم
وما سخطت بعادي اذ رضيت به
فكل جرح اذا أرضاك ملتئم
فاسلم على أي حال شئت يا أملي
وأنت ذو حكمة بين الوري حكم
مدى الزمان وما أبدي كئيب أسي
شكاية من شريف داره حرم
وكان صاحب الترجمة ينظم الشعر العربي ، ومن نظمه ،
ماقاله لما ولي الحافظ أحمد حكومة الشام وقدمها ، وكان
ظالماً عاتياً ، وكان نذراً ، ماكم أين منه فقال :
أرسل السلطان بالعدل المبين
حاكماً وافي لقمع الظالمين
أحمد وافي دمشقاً حافظاً
بيضة الإسلام بالرأي الرزين
دام في عدل . واقبال وفي
عزة من لطف رب العالمين

مخلص ، وكان ساح في العرب والعجم ، وكان قدومه إلى الروم في أوائل القرن التاسع . فوقع من بعض الاشراف أمر اقتضى تأديبه من أجله ، فعين السيد محمود المذكور لنظارة الاشراف باختيار الجمهور . وكان يعرف أن في بلاد العرب يطلق على هذا الناظر نقيب الاشراف ، فأشار أن يكتب في منشوره هذا اللفظ . وابتدأوا وظيفته أولاً بعشرين عثمانياً ، ثم ترقى إلى أن صارت سبعين . ولازال السيد محمد شريف نقيباً إلى أن توفي في سنة أربعين وألف تقريباً ودفن بقسطنطينية .

* * *

(محمد) بن تاج الدين بن أحمد المحاسني الدمشقي ، الحنفي ، الخطيب بجامع دمشق . تقدم أبوه وأخوه عبدالرحيم . وهذا أشهر آل بيته ، وأفضلهم . وكان فاضلاً ، كاملاً ، أديباً ، لبيباً ، لطيف الشكل ، وجيهاً ، ساكناً ، جامعاً لمخاسن الاخلاق ، حسن الصوت . نشأ في نعمة وافرة ، وكان أبوه ذا ثروة عظيمة ، فكان يصله بكل ما يحتاج اليه من مال ومتاع . وقرأ على علماء عصره ، منهم الشرف الدمشقي ، والشيخ عبد اللطيف الجالقي ،

والعمادي المفتي ، والجمال الفتحي إمام السلطان ، وأخذ
عن الشيخ عمر القاري ، والنجم الغزي ، وأبي العباس
المقري . وسافر إلى الروم صحبة والده ، وأخذ عن علمائها ،
منهم الشمس محمد المحبي . ثم رجع ، وأعطى بقعة تدريس
بالجامع الأموي عن شيخه الشرف لما مات . ولزم من المولى
محمد بن أبي السعود ، وولي خطابة جامع السلطان سليم
بصالحية دمشق ، واشتهر بحسن الخطابة . ثم صار إماماً بجامع
بني أمية . ولما توجه شيخه الفتحي إلى الروم ، وكان عين
لإمامة السلطان مراد ، فوُضَّ إليه أمر حصته في الخطابة
بجامع دمشق . ودرس بالمدرسة الجوهريّة ، وكان يدرس
في الجامع في غالب الايام والليالي ، سيما في الاشهر الثلاثة
رجب وشعبان ورمضان . وأقرأ صحيح مسلم ،
وكتب عليه بعض تعاليق . وسكن أولاً في دار جدّه لأمه
الحسن البوريني ، ثم وقف عليه رجل يعرف بالصنجدار
بيتاً قبالة المدرسة العادلية الكبرى ، فسكن فيه . وسافر
إلى الروم في سنة خمسين ، وأخذ تولية الجامع الأموي
وولي قسمة العسكر مرتين . ثم بعد وفاة والده ، سكن بداره
قرب باب الفراديس . وفرغ له الشهاب أحمد البهنسي

مذ رأوه ليس من جنس الذي
قد خلا من قبله في الحاكمين
قال أهل الظلم منه رهبة
ليس هذا الكعك من ذاك العجين

وعارض هذه جماعة من الادباء . وليس في ايراد
معارضاتهم كبير فائدة الاتضمنين هذا المثل فلذا أعرضت
عن ذكرها . ثم عزل السيد محمد عن قضاء الشام وولي
قضاء مصر ، وقسطنطينية ، ثم ولي قضاء العسكر بأناطولي
مرتين ، نقل في ثانيتهما إلى نقابة الاشراف ، وذلك في
جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وألف . وهو حادي
عشر نقيباً ولي في الدولة العثمانية : فانه من عهد السلطان
عثمان الكبير ، إلى عهد السلطان يلدرم بايزيد ، لم يتعين
نقيب للاشراف . ثم ان أمير سلطان ، كان صاحب معه
إلى بروسة لما دخلها السيد علي النطاع ، وهو جدّ عاشق
جلبي ، فعين ناظراً على الاشراف . ولما مات ولي مكانه
ولده زين العابدين ، في زمن السلطان مراد والسلطان محمد
الاولين . فلما مات بقي هذا المنصب خالياً ، إلى أوائل عصر
السلطان بايزيد . فقدم في زمانه السيد محمود المعروف بأما

عن نصف الخطابة بالجامع الاموي . ثم لما مات شيخه الفتحي
استقل بجميع الخطابة أصالة . وبقي إلى أن ولي علي القصير
دفترية الشام ، فادّعى أن الخطابة التي للفتحي كانت في
السابق نظارة للسلطان ، وأحسن بها إليه السلطان عثمان
وجعلها خطابة مكان النظارة . وأظهر صورة التوجيه ،
فرفع يده عنها ، وبقيت في يده الخطابة الاصلية التي فرغ
له عنها البهنسي . ولما توفي الشيخ سعودي الغزي ، وجه اليه
درس الحديث تحت قبة النسر من جامع دمشق ، كما أسلفته
في ترجمة محمد بن أحمد الاسطواني قريباً . وهذا الدرس
وظيفة حادثة بعد الخمسين وألف ، رتبها بهرام آغا، كتخدا
والدة السلطان ابراهيم ، وبني السوق الحديد ، والخان
قرب باب الجابية لأجلها ، وعين للمدرس ستين قرشاً ،
وللمعيد ثلاثين ، ولقارئ العشر عشرة قروش . ودرس
المحاسني ، وكان فصيح العبارة ، وانتفع به خلق من علماء
دمشق، منهم شيخنا العلاء محمد بن علي الحصكفي مفتي الشام،
وشيوخنا المحقق ابراهيم بن منصور القتال ، وغيرهما .
وله تحريرات تدل على علمه، وله شعر حسن مطبوع .
فمنه قوله من قصيدة :

ياسقاهما مرابعاً للتلاقي
كل سار من الحيا غيداق.
حيث تبدو بقامة تنجبل الغص
ن ووجه يزيد في الاشراق.
ورعى الله عهدنا بالمصلى
حيث ذات اللى على الميثاق
حيث أشكو لها الغرام ووجداً
قد أسال الدموع من آماقي.
ياحدة المطي رفقا بقلبي
إن طعم الفراق مر المذاق
جبلت طينتي على محنة الحب
ب فحسبي من الهوى مألأقي
كل يوم قطيعة وبعاد
واكتئاب وفيض دمع مآقي
شاب فودي يتلو مشيب فؤادي
فأمانا من هول يوم الفراق.
ليت شعري متى تعيد الليالي
مأأتاحت من صفو عيش التلاقي.

ماأظن الايام تحكم الا
بامتناع الارفاق للارفاق
ومن جيد شعره قوله :
وتنفسي الصعداء ليس شكاية
مما قضته سوابق الاقدار
لكن بقلبي جملة تفصيلها
صعب لدى العقلاء والاحرار
فجعلت موضع كل ذلك أنة
ضمنت مرادي من عطاء الباري
وكتب إلى بعض أصحابه بدمشق وهو بمصر :
لو كنت بمراى من خليطنزحاً
ماكان دخيل الوجد مني وضحا
لكن بعدوا فصار سري عاكناً
من بعدهم وصار كأسي قدحا
ومن ملحه هذا الموشح نظمته على أسلوب موشح لبنت
العرندس الشيعي ومطلع موشحه :
أهواه مهفهفاً من الولدان
ساجي الحديق

قد فر من الجنان من رضوان
تحت الغسق
من ريقته سكرت لامن راحي
كم جدّد لي رحيقها أفراحي
كم أسكرني بنخمرها يا صاح
كم أرقني بطرفه الوسنان
حتى الفلق
لوعامله بعدله ذا الجاني
أطفا حريقي
من باهر حسنه يغار القمر
في روض جماله يحار النظر
قد عز لديّ ان بدا المصطر
ماهتز يميل ميّلة الاغصان
للمعتق
الا وأتاح للمحب العاني
كل القلق
ياويح محبه اذا ماخطرا
كالبدر يلوح في الدياجي قمرا

إن أقض ولم يقض لقلبي وطرا
فالويل اذاً لمغرم ولهان
في الحب شقي
قد حمل في العشق من الهجران
مالم يطق
القدّ رشيق مثل خوط البان
واللحظ كسيّف الهند في الاجفان
والحال شقيق المسك في الالوان
والحدّ مورد أسيل قاني
شبه الشفق
والعارض قد سلسل كالريحان
للورد يقي
ياعاذل لو أبصرت من أهواه
ناديت تبارك الذي سّواه
قد أحسن خلقه وقد نماه
إذ كماه وخص بالنقصان
بدر الافق

قد أفرغه في قالب الاحسان زاكي الخلق
الصبر على هواه مثل الصبر

والقلب غدا من هجره في جمر
مألفه في وصله والهجر

لم ألق له في وصله من ثاني
حاو الملق

ماوصل بعد بعده أجفاني غير الارق
ومطاع موشح بنت العرندس هو هذا :

مارنحت الصبا غصون البان بين الورق
الا وشجى الهوى لقلبي العاني نار الحرق

ماهب صبا . لنحوك القلب صبا . لاقى وصبا

يابدر سما . سما على بدر سما . للناس سبا

صلني فمسى . تنال مني ذهابا . عقلي ذهابا

والقلب مني مواقد النيران

نامي القلق والناظر قد أسال من أجفاني ماء الغدق

ومن شعر المحاسني قوله :
أودّ عكم وأودّ عكم جناني
وأثر أدمعي مثل الجمان
ولو نعطى الخيار لما افترقنا
ولكن لا خيار مع الزمان

وله غير ذلك . وكانت ولادته في سنة اثنتي عشرة
وألف ، وتوفي عشية الاربعاء غرة شعبان سنة اثنتين وسبعين
وألف . ودفن بمقبرة الفراديس بالقرب من جلدّه لأمه
الحسن البوريني ، ورثاه شيخنا عبد الغني بن اسماعيل
النابلسي بقصيدة مطلعها :

لتهنّ راع الناس وليفرح الجهل
فبعدك لا يرجو البقا من له عقل
أيا جنة قرّت عيون أولي النهى
بها زمناً حتى تداركها المحل
وهي قصيدة جيدة غاية ، ولولا طولها المذكرتها برمتها .

* * *

(السيد محمد) بن حسن ، الشهير بابن عجلان ،
الحسيني ، الشافعي ، الدمشقي ، نقيب الاشراف بدمشق
كان غزير الفضل ، فصيح العبارة . حسن الفهم .
كثير المحفوظ ، وله في التفسير يد طائلة . اشتغل على الشمس
محمد بن محمد العيبي ، وعلى الشيخ منصور السطوح الصابوني ،
وأخذ عن جماعة ، وحصل ودأب ، ثم ولي نقابة الاشراف
في سنة احدى وثمانين وألف . وعزل بعد مدة ، فارتحل
إلى الروم ، وولي المدرسة السليمية . ورجع ، وتملك داراً
بالقرب من الشيخ عمود ، داخل باب الجابية ، وسكنها .
ولما مات السيد محمد بن حمزة نقيب الشام ، نهض به حظه ،
فكان تارة يلي النقابة ، وتارة يعزل ، إلى أن استقل بها
مدة . وروجع في الامور كثيراً ، وكان كامل العقل ،
خبيراً بما يصنع . ونفذت كلمته عند الاعيان ، وأرباب
الحكومات . وولي نيابة القضاء وقضاء المواريث .
ووقع في آخر أيامه أن رجلاً سب النبي صلى الله عليه وسلم ،
وتعصب جماعة في قبرته ، وأرادوا أن يرغموا الشهود في
كتم الشهادة . فقام بهذا الامر ، وأثبت عليه السب عند القاضي
فقتل . وكان ذا مفاكهة عذبة ، ممتعاً في حديثه . وتملك

كتباً كثيرة ، وأقرأ التفسير في السليمية ، والبخاري في بيته : وكان كثير المطالعة ، لا يمل من البحث ، ولا يفتر عن المذاكرة . وبالحملة فقد كان من المميزين في الفضل : وكانت ولادته في سنة ست وثلاثين وألف ، وتوفي بكرة . نهار الاثنين ثامن عشر المحرم سنة ست وتسعين وألف ، ودفن بمدفن خاص بهم بالقرب من مسجد الذبان . وكان آخر درس أقرأه في تفسير سورة مريم ، قوله تعالى (إذا ما متُّ كَسَوَفَ أُخْرِجُ حَيًّا) . ولم يخلف ذكراً . وبنو عجلان طائفة بالشام ، مشهورون بصحة النسب . واسلافهم كانوا قدموا من مصر ، وسكنوا بزاوية الرفاعية بمحلة ميدان الحصى ، وهي الزاوية المعروفة بزاوية شيخ المشايخ عند مزار سيدي حسن بن الرفاعي . وهي زاوية كبيرة فسيحة ، وكانت خربت بسبب فتنة صدرت في أواخر دولة الجراكسة ، في سنة عشرين وتسعمائة . وذلك ان السلطان الغوري أرسل حاكماً إلى دمشق يقال له النائب ، وكان بها حاكم غيره ، فما أراد تسليمه . فتحصن النائب المذكور في زاوية ابن الرفاعي المذكورة ، فرمى نائب القلعة على الزاوية بأحجار المدافع الكبيرة ، فهدّ ايوان الزاوية . قاله البوريني والله أعلم .

* * *

(محمود) بن عبد الله الموصلی ، الحنفی ، مفتی الموصل ،
ورئيسها المشهور عند الخاص والعام بالعلوم الشرعية ،
والفنون العقاية . ولد بالموصل ، وبها نشأ ، واشتغل بالعلوم وتفنن
في علم النظر ، والكلام ، والحكمة ، وبرع في جميع
ذلك . ورحل إلى حلب ، وأقام بها مدة ، وأخذ بها عن
النجم الحلقاوي ، وإبراهيم الكردي ، وأبي الوفا العرضي ،
والجمال البابولي ، وغيرهم ، وأجازوه . ورجع إلى بلده
ومكث مدة . ورحل إلى الديار الرومية ، وحظي عند الصلح
الفاضل ، وبقية كبرائها ، وأخذ عن جمع بها . وولي افتاء
بلده الموصل . ورجع إليها ، وأقام بها يشتغل باقراء العلوم ،
وتخرج به جماعة . وكانت المسائل المشككة ترد عليه ،
فيجيب عنها بأحسن جواب ، وأتقن خطاب . وكان عارفاً
بالعربية ، والفارسية ، والتركية . وله تصانيف ، منها ،
حاشية على التلويح ، وحاشية على البيضاوي ، ونظم حسن .
وكان سهلاً ، ذا دين متين وتقوى ويقين ، صادق اللهجة ،
مواظباً على السنن النبوية والنوافل الشرعية ، حسن السمات ،
رقيق القلب ، كامل العقل ، معتقداً للسادة الصوفية .
وخرج في سنة احدى وثمانين وألف ، وأخذ عنه جماعة

بالحرمين ، منهم ، صاحبنا الفاضل الاديب والكامل الاريب
الشيخ مصطفى بن فتح الله ، وطلب منه أن يجيزه فأجابه
بديهة بقوله :

لني أجزت المصطفى الفتحي بما
أرويه عن أشياخ أهل الموصل
ومحقيقي أهل العراق وجلق
والروم والشهباء أكرم منزل
وبكل ما ألّفته ونظمته
ونقلته عن كل عذب المنهل
وبما يطول اذا ذكرت جميعه
بل بعضه فكفايتي بالافضل
أعني البخاري الصحيح ومسلماً
وبقية الست الشهيرة فانقل
عن شيخنا العرضي وهو أبو الوفا
عن عالم الشهاب الامام الافضل
عُمَرَ أبيه عن أبيه ذي التقى
عبد الوهاب عن الشيخ الولي
زكريّا عن حافظ الدنيا شها
ب الدين أحمد بن سيّدنا علي

العسقلاني الحافظ الخبر الذي
ينهى اليه كل ذي سند علي
وجميع مايرويه في فهرسته
اطلبه فيه تجده ثمة وادعُ لسي
ولما رجع من الحج توفي بحلب ، ودفن بها . وكانت
وفاته في سنة اثنتين وثمانين وألف عن ثلاث وثمانين سنة
تقريباً .

* * *

(مصطفى) بن فخر الدين بن عثمان ، العلمي ، القدسي .
من فضلاء القدس وأعيانها . نشأ في طلب العلم ، ورحل
إلى مصر ، وأقام بالازهر زماناً طويلاً ، حتى كادت لغة
أهل مصر تغلب عليه ، وكان دائماً يتكلم بها . ورجع إلى
القدس ، وصار كاتب الصكوك في محكمتها ، وولي النيابة
كثيراً . وله من الآثار وقف على المؤذنين بالمسجد الاقصى .
وله على الصخرة قنديل معلق يشعل ليلاً ونهاراً . وكذلك
له خيرات على خدام سيدنا الخليل ، وله قنديل على الغار
الذي في الصخرة . وكانت وفاته في سنة خمس وسبعين
وألف ولم يعقب . رحمه الله تعالى .

* * *

(مصطفى) بن قاسم بن عبد المنان متولي أوقاف
السناينة بالشام . الدمشقي ، عين الاعيان ، ومجموعة النواذر
الحسان . كان واحداً الوقت في المحاوراة ، وسرعة البداة ،
والنكتة والناصرة . وفيه يقول الأمير المنجكي رحمه الله تعالى :

لنجل أبي المعالي حسن فهم
وطبع كالزلال العذب صافي
تطاوعه المعاني حين يُنشئ
وتخدمه النكات مع القوافي

اشتغل بالطلب على المنلا عبد الله القونوي ، امام جامع
الدرويشية ، وعلى العلامة الشيخ رمضان بن عبد الحق
العكاري . وشارك في العلوم الادبية ، وحفظ من الشعر ،
العربي ، والفارسي ، والتركي ، أشياء كثيرة . ونظم الشعر ،
وأكثر نظمه كان بالتركية ، ومخلصه رمزي . وحج في
صحبة والده سنة ست وأربعين وألف . وصار أولاً من
الجنود الشامي ، ثم لما مات أبوه في التاريخ الذي ذكرته
في ترجمته ، توجه ثاني يوم من وفاته إلى الروم ، وصار
متولياً مكانه على أوقاف سنان باشا ، بموجب الشرط للعتقاء
وذريتهم . وصار من المتفرقة بالباب العالي ، ورجع إلى

دمشق ، وقام مقام والده ، ووضع يده على ما خلفه له من أموال ، وأسباب . وتصرف في التولية بعقله ، وملت يده إلى البسطة والسرف ، وكانت العقلاء ينظرون إلى عاقبة أمره في عدم الانتظام . وصحب الوزراء ، والموالي ، وكانوا يقبلون عليه لبداعته ، وغرابته . وكان مكثراً في حكاياته ، وقلماً يخلو من مبالغات في خطاباته ، لكنه على تعبيراته مسحة الحلاوة ، وعليها طل الطلاوة والنداوة ، ولما صار الوزير محمد باشا بويني اكري كافل الشام وزيراً أعظم ، سافر من دمشق في خدمته . وكان له إليه محبة ، فأنعم عليه برتبة أحد البوابين للسلطان ، ولم يسبق لغيره من أهالي دمشق . ودخل دمشق بطرز غريب ، وأظهر بعض الخيلاء . وكان جند الشام في ذلك العهد قد صالوا ، وتاهوا ، فعزموا على مهاجرته . فلم يزل منطرحاً في زوايا الحمول ، حتى استألف بعض كبرائهم ، وأظهر لهم كمال الانحياز ، وأزال الحجاب . واختلت بعد ذلك أموره ، فقابلته الايام بوجه عبوس . وأبدلته بعد النعم بالعبوس . وأصابته العين ، ونفذ ما عنده من النقد والعين . وأخذ يستلف على أقلام الوقف ، وقل عليه الايراد وكثر الصرف .

غزادت عليه الاحوال . وتكدّر منه الفكر والبال . وكان من جملة ماورثه عن والده ، الفلاحة ، والدار بقرية دير العصافير . وهي من محاسن الابنية ، والبساتين ، بالقرب من جامع تنكر . فباعها بدون ثمن مثلها ، وأنشأ عوضها قصرأ بالصالحية بالبحسر الابيض ، وصرف عليه مالا كثيراً . وبلغني أن الذي اشترى البستان باع منه أشجاراً من الحور في السنة التي اشتراه فيها بثمانه ، الا ثلث قرش فضل عن رأس المال . وكان له من هذا القبيل أمور كثيرة . وكان كثير النكات ، وقد جمع من نكاته جانباً في دفتر كان كثيراً مايوردها . ومن المتداول منها أن بعض كفلاء الشام كان طلب رماحاً من أعيان دمشق ، وطلب منه ثلاثة فتعسرت عليه ، فأنشد البيت المشهور وهو :

ولو كان رماحاً واحداً لاتقيته

ولكنه رماح وثمان وثالث

وكان يوماً بمجلس بعض كفلاء الشام ، فدخل جماعة من طلبة العلم شاكين من مستوفي الخزينة ، بأنه قطع من معاليمهم أربعة أشهر من غير وجه ، وقرأ بعضهم قوله تعالى (إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ

الله يومَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُومٌ. فقال :
الأربعة الحرم هي التي قطعها الدفترى . واتفق في قدمة
مرتضى باشا الوزير ومن معه من العسكر ، أنه ورد إلى دمشق
من أهالي حلب رجل يقال له عسكر ، وكان يحسن الموسيقى
ويتردد إلى الأعيان للاستجداء . فكان يخاطبه إذا دخل عليه :
أتانا مرتضى الجبار بعسكر جرار . ووقع له أن كان في
مجلس بعض القضاة بدمشق فدخل الشيخ يس البقاعي
وأشدد قصيدة يمدح بها القاضي ، وكانت القصيدة ركيكة ،
فلما أتم قراءتها تلى صاحب الترجمة الآية : (وما علمناهُ
الشعرَ وما ينبغي له) . وقال له : الشيخ مصطفى بن سعد
الدين : والدك كان خليفة والدي ، أخذ عنه الطريق ،
وأنت خليفتي . فقال لست لك بخليفة ، ولا ابن الخليفة ،
وأوماً إلى رجل من المجان يعرف بابن الخليفة . وكان
صاحب الترجمة أحول ، فقال له بعض من له عليه ادلال
من الكبراء : كم شخصاً تراني ؟ فحلق فيه وقال : لأرى
الا واحداً . وبالحملة فهو أكثر أهل العصر نواذر
وتحفاً . وكانت ولادته في سنة سبع وعشرين وألف ،
وتوفي في أوائل شعبان سنة تسع وسبعين وألف . ودفن
بمقبرة باب الصغير بالقرب من قبر أبيه .

* * *

(يحيى) بن زكريا بن بيرام شيخ الاسلام ، وأوحد علماء الروم باتفاق الاعلام . ذكره والذي رحمه الله تعالى ، فقال في حقه : سلطان علماء المغرب والمشرق ، ومطلع كوكب أفق السعادة المشرق . شيخ الكل في الكل ، من الدق والجل ، واحد الزمان وثاني النعمان . من بمكارم الاخلاق في الآفاق موصوف ، وفي تعداد أفراد النوع الانساني واحد يعدل ألوف . كبير المملكة السلطانية دون منازع ، بركة الدولة العثمانية من غير مدافع ، عمدة الملوك ، مرشد اهل الطريق والسلوك ، بحر المعارف ، بدر اللطائف ، صاحب الكلم النوايح . مَن ثوب أنعامه على الأنام سابغ ، الذي ألقيت اليه أزمة السلم ، واحتوى على جوامع العلم ، وبدائع الحكم . محط رحال الآمال ، وكعبة ارباب الكمال ، من لم تسمح بمثله الادوار ، ولم يأت بندّه الفلك الدوار . يقال فيه :

هيهات لا يأتي الزمان بمثله

ان الزمان بمثله لبخيل

ولد بقسطنطينية ، ونشأ بها ، واجتهد في التحصيل على علماء عصره حتى برع وتفوق ، ثم لازم من شيخ

الاسلام السيد محمد بن معلول . كما أن والده لازم من
والد السيد المذكور . ثم درس بمدارس قسطنطينية ،
وحج في خدمة والده سنة أربع وتسعين وتسعمائة . وكان
والده اذ ذاك منفصلاً عن قضاء العسكر باناطولي ، ولما رجع
ترقى في المدارس إلى ان وصل إلى احدى الثمان (١) ،
ومات أبوه وهو مدرس بها . ثم درس بمدرسة الشهزادة ،
ونقل منها إلى مدرسة والده السلطان مراد الثالث بأسكدار .
وكان لها شأن عظيم في حياة بانياتها ، فاعطي منها قضاء
حلب . وكانت أول مناصبه ، وكذلك وقع لوالده .
فدخلها في سنة أربع بعد الالف ، خلفاً عن المولى الكمال
ابن طاشكبري . ثم بعد مدة قليلة وقع بينهما مبادلة فنقل
صاحب الترجمة إلى قضاء دمشق ، والكمال إلى قضاء
حلب . وقيل في تاريخ توليته لها :

لما أحيا شرع الهادي
قاض عنه شعاع العدل
يحیی المولى السامي قالوا
حقاً أرخ قاض عدل

(١) أي المدارس الثمان . وهي المدارس التي انشأها السلطان
« محمد الفاتح » حول مسجده .

وكانت سيرته في هذين القضاءين من أحسن سيرة
لقاض ، ثم عزل وتوجه من دمشق إلى معرة النعمان ،
قاصداً دار الخلافة . وكان خرج من دمشق وعليه دين
سابق لم يقدر على وفائه ، وكان قصد أن يمر على حلب
ويستدين من بعض أهلها مبلغاً يوفي به مما عليه . واتفق
أن كتحذاه دخل عليه ، وشكى من المضايقة . فلم يستتم
الكلام الا ودخل عليهم قاصداً من طرف الدولة ومعه
أمر بتوجيه قضاء مصر إلى صاحب الترجمة . فسر بذلك ،
وعاد مبلغ المراد ، وسار إليها وسلك مسلكه المعتاد .
ونقل أنه كان في خدمته أحد عشر نائباً من ملازمي والده ،
ومن طلبته . فاتفق أنه ولي منهم ستة قضاء مصر ، بعد
مدة . وعزل عن قضاء مصر ، فأعطى كلاً منهم مبلغاً
من الدراهم من ماله زيادة على ما حصل لهم من الانتفاع
في أيام قضاائه . وكان ابن أخته اسماعيل ، الذي صار آخر
أمره أحد صناعق مصر في خدمته . وكان وجهه إليه نيابة
المحاسبات ، فبلغه أنه أخذ من بعض النظار عشرة سلطانية
من غير وجه ، فناداه وهو في داخل الحمام ، وقال له :
بلغني أنك أخذت من فلان كذا ، فاعترف . فقال له :

اذن ترحل عني إلى الروم ، واليوم سفينة فلان متجهزة
فلا تتخلف عنها . فأقلع من وقته . ولما عزل أقام ببولاق
بعض ايام عند القاضي زين الدين العبادي ، كاتب المحاسبات
بأوقاف مصر . وكان العبادي المذكور من الرياسة والنعمة
بمكان ، لكن حصل منه تقصير في خدمته . واتفق انه
شكى اليه كثرة الناموس ، وطلب منه ناموسية فتهاون
في ارسالها اليه ، فبعث صاحب الترجمة إلى محافظ مصر
يستأذنه في الذهاب بجرأ . فلما وصل رسوله إلى المحافظ
وعرض عليه ، أجابه بأن يتربص أياماً ، فقام الرسول
ليذهب ، واذا ببريد قدم من قسطنطينية ، ومعه أمر بتقرير
صاحب الترجمة في قضاء مصر . فعاد الرسول مسرعاً
وأخبره . ثم أرسل الوزير الامر ، فدخل الزين العبادي
مهنياً ، وأظهر كمال الرياء . وكان صاحب الترجمة
حقد عليه جداً ، فأخرج في الحال عنه جميع ما في يده
من جهات ومعالييم ووجهها إلى فقراء الازهر ، وكانت
اشياء كثيرة مع عدم احتياجه اليها ، لكونه في غنية زائلة .
وعزله عن كتابة المحاسبات ، وبقي مقهوراً مدة أيام
ثم مات من قهره . ثم عزل ، وسار إلى قسطنطينية .

وبعد مدّة صار قاضياً ببروسة ، ثم ولي قضاء أدرنة ،
ثم قضاء قسطنطينية ، ثم صار قاضي العسكر باناتولي مدّة
يسيرة ، ونقل إلى روم ايلى ، ثم عزل ، وأعيد مرة ثانية
سنة ثمان عشرة وقيل في تاريخه (فضل حق) . ووقع
في أيام قضائه ان درويش باشا الوزير الاعظم أمر بقتل
رجل في الديوان ، فقال له صاحب الترجمة : مالذي
أوجب قتله ؟ فقال له : أنت مالك علاقة بهذا . فقام
من الديوان ، وترك منصب قضاء العسكر . فلما
سمع السلطان أحمد بذلك ، بعث اليه يستخبر منه
عن قضية تركه . فأجابه بقوله : ان القضاء أمانة ، والسلطان
انما يولي قضاء العسكر لسماع الدعاوى ، وانصاف الظالم
من المظلوم ، والآن قد قتل رجل من غير ان يوجب الشرع
قتله ، فلم يوجد اتصاف بما ولينا لاجله القضاء ، فتركنا
المنصب لذلك . ففي ذلك اليوم قتل السلطان أحمد
درويش باشا المذكور ، وحصل لصاحب الترجمة غاية
الاقبال من السلطان . وعزل بعد مدة وأعيد ثالثاً . ثم
ولي الافتاء السلطاني في يوم جلوس السلطان مصطفى ،
وهو اليوم السادس من رجب سنة احدى وثلاثين وألف .
وقال العلامة عبد الرحمن العمادي مؤرخاً توليته بقوله :

لقد صار مفتي الروم يحيى الذي سما
سناء سماء المجد والعلم والتقوى
فنادى بشير السعد فيها مؤرخاً
لمولاي يحيى منصب العلم والفتوى
وكان أول سؤال كتب اليه : أول واجب على
المكلف ماهو ؟ فأجاب هو معرفة الله تعالى ، فاعلم انه
لا إله الا الله . وبني في توليته هذه مدرسته المعروفة
قريباً من داره بمحلة جامع السلطان سليم القديم ، وأرخ
عام تمامها الاديب محمد الحتاتي المصري بقوله :
مفتي البرايا بنى لله مدرسة
لها من الانس أنوار تغشيتها
على الهدى أسست واليمن أرحها
دار العلوم فيحيى العدل منشيتها
ثم عزل وأعيد ثانياً . وكان أول سؤال رفع اليه :
المؤمن اذا أراد الشروع في أمر ذي بال بماذا يبدأ حتى
يكون ماشرع فيه مباركاً ؟ فأجاب يبدأ ببسم الله الرحمن
الرحيم . ثم عزل ثانياً ، في رجب سنة احدى وأربعين
في حركة العسكر ، بمخامرة الوزير رجب باشا وشيخ

الاسلام حسين ابن اخي . وجمعوا جمعاً عظيماً عند السلطان .
مراد ، وأرسلوا إلى صاحب الترجمة رسولاً يطلبونه .
إلى الديوان ، على لسان السلطان . وكانوا صمموا على
قتله في الطريق اذا جاء ، حتى انهم رأوا المولى محمد الشهير
بجشمي قاضي العسكر باناطولي ، وهو متوجه ، فظنوه .
هو ، وما حققوه بعينه ، فلما عرفوه أطلقوا سبيله فأرسل إلى
صاحب الترجمة رسولاً يحذره الحضور من الطريق العام ،
فسار من طريق آخر . فلما رآه السلطان عرف انها مكيدة .
فأشار اليه بالعود بيده فلم يمكنه ذلك . فأرسل اليه السلطان
رسولاً ، وأخذه إلى الداخل . ثم ان العسكر قتلوا الحافظ
الوزير الاعظم ، ونصبوا رجب باشا مكانه ، وجعلوا
ابن أخي مفتياً ، وخمدت الفتنة . ثم ان السلطان التفت
إلى صاحب الترجمة وقال له : قد عزلك القوم ، وأنا
ما عزلتك ، فسر إلى حديقتك واشتغل لنا بالدعاء ، واذا
صار سلطانك سلطاناً كما كان ، صرت مفتياً كما كنت .
ثم فارقه فسار إلى داره ، ثم توجه إلى بستانه المعروف به ،
بطوب قبوسي من أبواب قسطنطينية . وبقي ثمة إلى أن
قتل ابن أخي في رجب سنة ثلاث وأربعين ، فأعيد ، وبقي .

في هذه المرة إلى ان مات . ولم يتفق لاحد من المفتين مااتفق له من طول المدة ، والاقبال ، والحرمة ، والجلالة . ولم يمدح أحد بما مدح به من مشاهير الشعراء . ومدائحهم التي جمعها التقي الفارسي كوري ، وقد تقدم ذكر خبرها في ترجمته ، من ابتداء توليته قضاء حلب إلى ان ولي قضاء العسكر بروم ايلى ومابعد ذلك ، فقد تكفل والذي يجمع حصة منها بلغت مقدار ثلاثة كراريس ، وهي قطرة من بحر . ورزق السعادة في الجاه ، والحفدة . بحيث صار أحد ملازميه ، وهو المولى عبدالله بن عمر خواجه زاده ، قاضي العسكر بروم ايلى . وولي الافتاء من جماعته ثلاثة ، وهم مصطفى البولوي ، ومحمد البورسوي ، ومحمد الانقروي . وأما من ولي منهم قضاء العسكرين ، وغيرهما من المناصب والمدارس ، والقضاء ، من أهل الروم ، ودمشق ، وحلب ، وغيرها ، فلا يحصون كثرة . وأكثرهم شاعت فضائلهم ، وعدت فواضلهم . وبالجمله فانه أستاذ الاساتذة ، وأعظم الصلور الجهابذة . وقد جمع شيخ الاسلام محمد البورسوي فتاويه التي وقعت في عهده في كتاب سماه : فتاوى يحيى . وهو الآن مشهور متداول .

وأما شعره العربي فمنه تخميس البردة للبوصيري ، يقول
في مستهله :

لما رأيتك تذري الدمع كالغنم
غرقت في لجج الاحزان والالم
فقل وسر الهوى لا تخش من ندم
أمن تذكر جيران بني سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
تمسي بعين بوبل الدمع ساجمة
ونار وجد يحوف القلب ضارمة
فهل يريد أتى من حي فاطمة
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من إضم
متى السلو لاهل العشق عنه متى
وحب حب سليمي في الحشا نبثا
ان تذكر الوجد عندي بعدما ثبتا
فما لعينيك ان قلت اكفها همثا
وما لقلبك إن قلت استفق يهيم

تريد تخفي الهوى والدمع منسجم
وفي حشاك لظى الاشواق مضطرم
هيهات كاتم سر العشق منعدم
أحسب الصب أن الحب منكم
ما بين منسجم منه ومضطرم
تقول قلبي سلا عن أعين نجل
وتدعي الصحو والسلوان عن مقل
اني أخاف وحق الود من وغل
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل
ولا أرقّت لذكر البان والعلم
منها :

إذا وجدت امرءاً بالله معتصداً
اسمع مقالته مسترشداً فهماً
وكن لصحبته العلياء مغتنماً
وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما مخضاك النصيح فاتهم
حكمت نفسك والشيطان فاحتكما
يا قلب ويحك ماذا الحيط ويحك ما

لا تقبلن منهما حكماً وإن حكماً
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً
فانت تعرف كيد الخصم والحكم
ومن لطائف شعره أيضاً :

ورد النسيم بأطيب الاخبار
طاب الورود وسائر الازهار
سكروا بخمر الشوق حتى أظهروا
مافي ضمائرهم من الاسرار
في جمعهم لم تلق الا ماسكا
قدحاً من الابريز والبلار
والخوض فيه مجالس ملكية
والورد كالسلطان في الانوار
لعب الشمول بهم فحركهم كما
لعب الشمول بزمرة الشطار
وقوله وهو معنى جيد :

كأن ورد خذه عـقـار
شربتها حتى بدا البـلـار

والبلار لغة في البلور رأيت في استعمال المولدين منهم
المعتمد بن عباد على ما ذكره الفتح في قلائد العقيان .

جاءتك ليلاً في ثياب نهار

من نورها وغلالة البلار

والشرب في بيته كناية عن التقبيل زالت به الحمرة
فبدا البياض . ومن لطائفه أيضاً قوله :

بحلّة حمراء جاءت وقد

تفوح بالعنبر أذيا لها

حليتها لعل^(١) وياقوتة

صيف من العسجد خلخالها

ومن إنشائه الباهر ، ما كتبه على كتاب في الطب ،
اسمه مغني الشفا : ياله من روضة شحاريرها أقلام المادحين
من النحارير ، وألحان سواجعها ماسمع لدى التحرير
من الصرير . غصونها أورقت ولكن بصحائف كأنها
مملوءة باللطائف أطباق ، وأثمرت والعجب أن منابت
ثمارها بطون الاوراق . من وقف عليها وتوقف فيما قلته من
الوصف العاري عن المراء ، فلا شك أنه مبتلى بداء الترك
وليس له دواء . ولما أجلت نظري في ربوة حسننها وبهجتها .

(١) حجر كريم .

ونشقت شذا رياحينها ، وشممت عرّف نفحتها ، وعينت
مجالس أنسها ، وقضيت منها العجب ، وحرك مني سطور
طروسها ما يحدثه القانون من الطرب ، توجهت بمجامع
قلبي إليها ، وقلت موثراً موجز القول في الثناء عليها هذه
الابيات ، وهي قولي :

ياروضة في رباها دَوْحٌ غدا سجع طيره
مغني الشفاء ومغن عن الشفاء وغيره
وكانت ولادته في سنة تسع وتسعين وتسعمائة ،
وتوفي في ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وألف ، ودفن
عند والده بمدرسته المعروفة به . وقال المولى محمد عصمتي
مؤرخاً وفاته بقوله :

مفتي الورى يحيى به
سما العلى وحيّة
ما مضى مولياً
عن هذه الدنيا
سمعتُ من جهزه
بأحسن التحية
يقول تاريخاً لله
في جنة عليه

* * *

الفهرس

٥	المقدمة العامة
١٩	قيمة كتاب خلاصة الأثر
٢٣	سيرة المحي
٤٥	مؤلفات المحي
٥١	التعريف بكتاب خلاصة الأثر
٥٩	اختيار التراجم
٦٥	المدخل إلى تراجم أعلام السياسة والادارة
٦٦	المعطيات السياسية
٩٠	المعطيات الاجتماعية
١١٥	المعطيات الاقتصادية
١٢١	المختارات من كتاب « خلاصة الأثر »

- ١٢٣ مسمرد التراجم من فئة « الملوك والسلاطين والأمراء »
- ١٢٧ النصوص المختارة
- ١٢٩ مقدمة « خلاصة الأثر »
- ١٣٧ السلطان ابراهيم بن أحمد (العثماني)
- ١٤٥ ابراهيم باشا بن عبد المنان (الدفتر دار)
- ١٤٨ الشريف أبوطالب (شريف مكة)
- ١٥٧ الأمير أحمد بن رضوان (أمير غزة)
- ١٦٢ الأمير أحمد بن طراباي (أمير اللجون)
- ١٦٤ مولاي أحمد بن عبد الله بن محمد الشيخ (سلطان المغرب)
- ١٧٣ السلطان أحمد بن محمد (العثماني)
- ١٩٢ أحمد باشا الفاضل (الصدر الأعظم)
- ٢٠٠ أحمد باشا كوجك (والي الشام)
- ٢٠٧ السيد حسن بن الامام القاسم (إمام اليمن)
- ٢٠٩ الأمير حسن بن الأعوج (أمير حماة)
- ٢٢٥ حسين باشا جانبولاد (أمير كلس وحلب)
- ٢٣١ حسين باشا الوزير (والي دمشق الشام)
- ٢٣٤ خليل باشا بن كيوان (أمير الحج الشامي)
- ٢٣٦ الأمير رضوان بن عبد الله الغفاري (أمير الحج المصري)

- سنان باشا (الصدر الأعظم) ٢٣٩
الأمير شديد بن أحمد (حاكم العرب البدو) ٢٤٦
الشاه عباس بن محمد (شاه ايران) ٢٦٧
الأمير علي بن جانبولاد (الأمير الثائر على الدولة) ٢٥٤
علي باشا بن أحمد باشا كوزلجة (والي تونس و حاكم البحر) ٢٦٤
السلطان عمر بن بدر (سلطان حضر موت) ٢٦٦
الملك عنبر شنبو (وزير في الهند) ٢٦٧
فخر الدين بن معن (أمير الشوف) ٢٧٦
الإمام القاسم المنصور بالله (امام اليمن) ٢٨٠
كيوان بن عبدالله (كبير جند الشام) ٢٨٤
محمد باشا (نائب حلب وأذنة) ٢٩٢
محمد باشا الكوبري (الصدر الأعظم) ٢٩٦
السلطان محمود بن ابراهيم (سلطان الدكن) ٣٠١
الأمير منصور بن فريخ (أمير البقاع) ٣٠٣
الأمير منصور الشهابي (أمير وادي التيم) ٣٠٧
الأمير موسى بن علي الحرفوش (أمير بعلبك) ٣٠٩

- ٣١٢ نصوح باشا (والي حلب)
- ٣١٩ الأمير يوسف بن سيف (أمير طرابلس الشام)
- ٣٢١ مسرد التراجم المختارة من «رجال الدين والادارة»
- ٣٢٤ الشيخ ابراهيم العمادي (خطيب جامع)
- ٣٢٦ ابراهيم الصمادي الواعظ (امام وواعظ)
- ٣٣١ أبو القاسم محمد المغربي (مفتي المالكية بدمشق)
- ٣٣٢ أحمد بن تاج الدين الدمشقي (قاضي الركب الشامي)
- ٣٣٤ أحمد بن اسكندر الرومي (كاتب القاضي)
- ٣٣٥ أحمد بن أكمل الدين (رئيس المؤذنين)
- ٣٣٦ المولى أحمد بن المثللا زين الدين (قاضي حلب فدمشق)
- ٣٤٩ المولى أحمد بن سليمان الأياشي (قاضي حلب فدمشق)
- ٣٥١ أحمد بن علي الصفوري (قاض شافعي)
- ٣٥٨ المولى أحمد بن عوض العيتابي (قاض دمشق فمصر)
- ٣٦٧ اسماعيل بن عبد الوهاب الهمداني (متولي أوقاف)
- ٣٦٩ برهان الدين بن محمد البهنسي (قاضي صيدا)
- ٣٧١ السيد حسين البيمارستاني (نقيب أشراف حلب)
- ٣٧٣ سعود الغزي (مفتي الشافعية بدمشق)
- ٣٧٥ سنان باشا (متولي الجامع الأموي)

- ٣٧٧ صنع الله المحيي (قاض ، عم المؤلف)
 ٣٨٠ عبد القادر الطوري (المفتي الحنفي بمصر)
 ٣٨٤ عبد القادر قدرى (قاضى عسكر)
 ٣٨٦ عبد الواحد الانصارى (قاضى قنفذة)
 ٣٨٧ عبد الوهاب الفرموزى (مفتى دمشق الحنفي)
 ٣٩٢ عيسى بن عبد الرحمن السكتاني (مفتى مراکش)
 ٣٩٤ فضل الله الأسطواني (رئيس الكتاب بالمحكمة)
 ٣٩٥ المنلا قاسم بن أحمد الكردي (ناظر وقف وإمام)
 ٣٩٦ السيد محمد بن برهان الدين (نقيب أشراف الدولة العثمانية)
 ٤٠٢ محمد بن تاج الدين المحاسني (خطيب الجامع الأموي)
 ٤١١ محمد بن حسن الشهير بابن عجلان (نقيب الأشراف بدمشق)
 ٤١٣ محمود بن عبد الله الموصلى (مفتى الموصل الحنفي)
 ٤١٥ مصطفى بن فخر الدين العاصي (كاتب صكوك)
 ٤١٦ مصطفى بن قاسم بن عبد المنان (متولي وقف)
 ٤٢٠ يحيى بن زكريا (مفتي السلطنة)

* * *

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٩	١١	براحة	براحة
٧١	٥	وبه جافور	وبه جافور
٧٨	٧	سليمان الثالث	سليمان الثاني
١٢٢	١٣	٣٥٨	٣٨٥
١٣١	١٠	بالمئتين	بالمئين
	١١	الشبلي	الشلي
١٨٧	١٢	يحمل الماء	يحمل بها الماء
١٩٢	٧	وقته	ووقته
٢٠١	١٣	الأمر	الأمير
٢٣١	١٠	قنيجة	قمنيجة
٢٤٦	١١	ذرية	من ذرية
٢٥٨	٦	الأنبيقي	الأنبيقي
٢٧٠	الأخير	سهلاً	سهلاً
٣٥٤	١٠	خل	خل
٤١٨	٤	تنكر	تنكر